إبراهيم عليه السلام

كاهن التوراة أم نبي القرآن

حقوق الطبع محفوظة

الطبعة الأولى

1430 هـ - 2009 م

الرقم الدولي للكتاب

ISBN 978-9933-408-01-5

للطباعة والنشر والتوزيع

دمشق - سوريا

ص.ب: 13414

هاتف: 30 24 224 11 963+

فاكس: 36 10 245 11 963+

www.kotaiba.com

E-mail : dar@kotaiba.com

كتبنا متوفرة على موقع

نيل وفرات.كوم

www.neelwafurat.com

إبراهيم عليه السلام

كاهن التوراة أم نبي القرآن

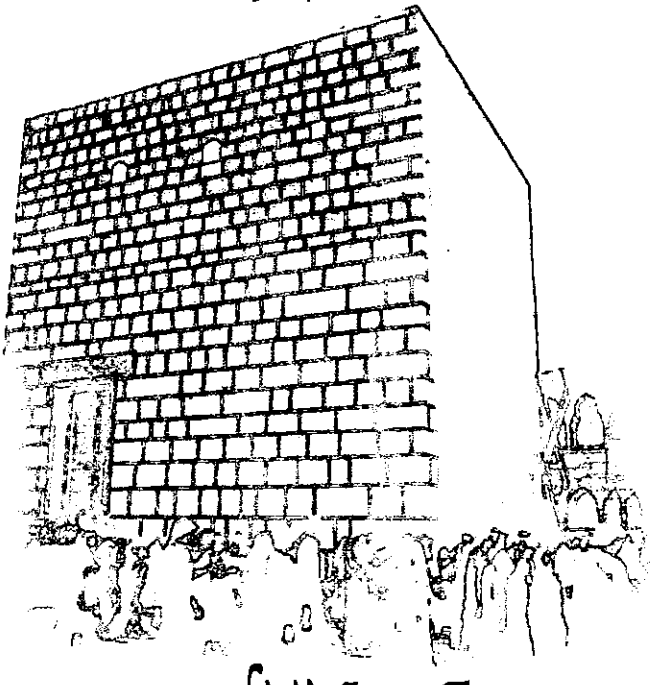

د. جمال البنا

قرطبة

الإهداء

إلى أبناء إبراهيم « عليه السلام » الحقيقيين

محمد وعلي وعبد الله وسعيد وعمر

وفاطمة وعائشة ومريم

إبراهيم عليه السلام

كاهن التوراة أم نبي القرآن

أول دراسة في حقيقة شخصية النبي إبراهيم على ضوء القرآن الكريم مقارنة بما دُوّن من أوهام وخرافات توراتية وبما توصل إليه علم التاريخ وعلم مقارنة الأديان وعلم الآثار.

مقدمة

منذ خمس سنوات وأنا أعيش مع النبي إبراهيم عليه السلام. وكلما فكرت بمشروع الكتابة عن هذا النبي الإمام تراجعتُ رهبةً وحباً واحتراماً، وفي كل مرة أؤجل المشروع وأستدير لمشاريع كتابية جديدة.

وقد أذن الله لي بالحج في عام 2003. وقلت آنذاك: هذه فرصتي لأرى الدافع الأساسي كي أكتب عن هذا العظيم.

كنت في شوق شديد لأرى الكعبة عن قرب. وعندما دخلنا من أحد الأبواب إذا بالكعبة تقف شامخة أمام عيني. فانهمرت الدموع وراح شريط من الخيال يعود بي إلى الوراء البعيد. إلى أربعة آلاف عام. إذا بي أستحضر في روحي النبيّ إبراهيم. وأرى ببصيرتي المتخيلة هذا النبي، وهو يبني قواعد البيت وإلى جانبه إسماعيل عليه السلام يناوله الحجارة والطين.

تخيلت ثيابه وهي ملطخة بالغبار والتراب المجبول. تخيلت لحيته البيضاء وهي غبراء، تخيلت قامته وانحناءة ظهره بعد أن بلغ من العمر عتياً.

ورحت أحسب الساعات والأيام... كم استغرق بناء قواعد البيت. كم ليلة بات إبراهيم عند ابنه إسماعيل وهما يتحادثان ويدعوان الله، ويفكران كيف تكون الدعوة لله. وكيف تكون الدعوة للحج في هذا الوادي الذي كان قفراً قبل معجزة بئر زمزم. مرت اللحظات والساعات والأيام. في كل يوم نذهب إلى الحرم نتعبد ونستغفر ونفكر وأنا أسجل في هذا العقل آلاف الأفكار ريثما يقيِّض الله لنا العودة إلى ديارنا بعد استكمال المناسك وزيارة حفيد إبراهيم، رسول العالمين محمد بن عبدالله ﷺ في طيبة المباركة.

هنا الكعبة. وهنا الطواف. وهنا الحجر الأسود. وهنا مقام إبراهيم. وهنا الصفا والمروة. وهناك عرفة والوقوف والدعاء والنفرة، وهناك المزدلفة ومنى

والرجم والجمرات. وهناك الطريق من منى إلى الحرم والمشعر الحرام والمساجد الخالدة من زمن النبي ﷺ.

إبراهيم عليه السلام يعيش طفولته كأبناء شعبه الكلدانيين في أوركلدان العراق يصطفيه الله وهو فتى. فيرفض الأصنام ويحطمها ويصارع قومه ويصارعونه إلى أن يأذن الله له ويوحي له أن اذهب إلى أرض مباركة وخذ معك ابن أخيك لوط وزوجتك سارة.

وما بين أوركلدان والأرض المباركة قفار وصحارى وقبائل. من أور إلى الشام إلى حلب إلى برزة في ظاهر دمشق ثم المسير إلى أرض فلسطين المباركة. وهناك يختار إبراهيم عليه السلام السكن عند الشعب العربي اليبوسي. الشعب الذي قبل دعوة إبراهيم وتقبله فعاش معه العمر المديد.

شاخ إبراهيم ولم ينجب ولداً حتى ذهب في رحلة إلى مصر وهناك دعا المصريين إلى عقيدة التوحيد فتقبلوه وصاهروه. فمنحوه سيدة من العائلة المالكة اسمها هاجر ورحل بها إلى الخليل، فأنجبت له ولداً كريماً سماه إسماعيل. وأراد الله سبحانه أن يكون لهاجر أعظم الشأن في حياة الشعوب، فألهمه الله سبحانه أن يذهب بها وبابنه إسماعيل من الخليل إلى واد غير زرع عند البيت الحرام.

تركهما هناك وعاد أدراجه إلى الخليل. واختار الله إسماعيل ليكون نبياً ابن نبي. فأجرى على يديه معجزة بئر زمزم بعد أن عانت أمه أشد المعاناة وهي تبحث عن الحياة لتسقي ابنها الرضيع. فسعت سبعة أشواط بين صخرتي الصفا والمروة حتى رأت بعينها نبعاً يتفجر بين قدمي ابنها.

ويكبر إسماعيل وتجاوره قبائل العرب فيصبح الوادي المقفر أهلاً ليمهد الله سبحانه لبناء قواعد البيت والدعوة إلى الحج. ويعود إبراهيم إلى ابنه ليمتحنه الله فيه ويطلب منه أن يطيع أمره ليذبحه فيطيع. لكن الله سبحانه فداه بكبش عظيم. وعادا إلى الوادي ليأمره الله أن يُظهر قواعد البيت. ويأخذان ببنائه حتى يكتمل ويدعوان

الله سبحانه بالقبول وجعل هذه الأرض مهوى القلوب. وأن يبعث فيها رسولاً يكون رحمة للعالمين.

يعود إبراهيم إلى الخليل فيبشره الله بغلام من امرأته سارة، وينجب ابنه إسحاق. ثم يتخذ زوجة كنعانية فتنجب له ستة أولاد. يطول العمر بإبراهيم وتطول دعوته التوحيدية. ويصبح أمة وإماماً يقتدي به الأنبياء وتقتدي بدينه الشعوب، فهو المعروف في العراق وفارس والشام وفلسطين ومصر والحجاز.

إبراهيم عليه السلام عرفناه إماماً وأمة لكنه حسب التوراة والإنجيل مقزم محدود. يستخدمونه وسيلة، ينطقونه بأمور لم يقلها. وينفون عنه بناء قواعد البيت. يغلقون عليه دعوته. فلا دعوة للحج، ولا دعوة للناس، كل الناس إلى تلبية نداء الله للطواف حول الكعبة والوقوف على عرفة ورمي الجمرات. والسعي بين الصفا والمروة. وما يهمهم أن الوعد الإلهي لإبراهيم تحدد بأن يمنحه الأرض المباركة له ولنسله من بعده ميراثاً أبدياً، حتى يحققوا مطامعهم الاستعمارية في أرض فلسطين. وإذا كان وعد الله له حقيقياً، فكيف يحصرون الإرث في إسحاق دون إسماعيل وكيف يحصرونه في نسل يعقوب ويستثنون منه أبناء إسماعيل وأبناء أولاده الستة الذين أنجبتهم زوجته الكنعانية قطورة؟

إن الحسَّ العنصري اليهودي يدفعهم لتشويه النبي إبراهيم ومهمته ودعوته فتارة يدَّعون أنه يهودي. وأخرى يدعون أنه نصراني. والكذبة تكبر ولكنها تفضح نفسها بنفسها. فمتى أنزلت التوراة؟ ومتى أنزل الإنجيل؟ أليس بعد إبراهيم بمئات السنين؟ فأين كانت اليهودية قبل موسى وداود وسليمان، وأين كانت النصرانية قبل عيسى والحواريين؟

إبراهيم عليه السلام عربي كلداني. أصبح أباً وجداً لمجموعة من القبائل المنتشرة من العراق إلى فلسطين إلى الحجاز. صار جداً لبني إسرائيل. وصار جداً لبني إسماعيل وجداً لبني مديان. الأصل واحد لكنهم أرادوا أن يميزوا بين قبيلة وأخرى

فأوجدوا بخيالهم ما يسمى (العبرانيين) وليست العبرانية سوى لهجة من لهجات العربية القديمة. وليس بنو إسرائيل سوى قبيلة من هذه القبائل التي تجوب المنطقة للرعي والتفتيش عن الكلأ والأمان.

إبراهيم لم يكن عنصرياً حتى يميز بين ولد وولد وبين حفيد وحفيد. لقد قُدر له أن ينجب أبناءه من عدة نساء. ومنهم المصرية والكلدانية والكنعانية. أليس ذلك يعني أن إبراهيم صار أمةً جديدة وحّدت الكلداني والكنعاني والمصري والحجازي؟

أما دين إبراهيم فهو الذي اتبعه به أولاده وأحفاده، فهو الإمام الأول لعقيدة التوحيد ذات الأسس والأركان الحنيفية المسلمة..

نادى النبي إبراهيم بها منذ التكليف الإلهي الأول. وراح ينشرها في هذه البقاع الواسعة من حوض الفرات إلى سوريا إلى فلسطين ومصر والحجاز. وتقبلتها القبائل كلها وأقبلت عليها. وأراد أن تكون أنظار هذه القبائل متجهة نحو بيت الله. فأقام قواعده هناك في مكة. لكن بعض أحفاده أُقصوا عنه وعن عقيدته والبيت الذي أقامه. ولعبت أهواء كتبة التوراة لعبتها لتقول إن اليهود ليست لهم علاقة بالكعبة أو الحج؟! وكيف يصح ذلك وأبو الأنبياء دعا لهذا الحج أول من دعا أولاده وأحفاده. لكنه الحقد والحسد والتمييز بين إسحاق وإسماعيل. وهو بذاته الحس العنصري الذي ما عرفه مثل هؤلاء المنحرفين من أتباع اليهودية المخترعة والمنحازة عن دين التوحيد.

ولنتصور كم جنوا على هذا النبي العظيم عندما اعتبر الرئيس ريغن نفسه من أحفاد إبراهيم!! وكم جنوا عليه عندما اعتبر بوش الأب وكذلك ابنه جميع البروتستانت من أتباع هذا النبي الذي ـ حسب زعمهم ـ وعده الله أن تكون أرض كنعان العربية ملكاً لليهود والبروتستانت.

أيُّ كذبة أكبر من هذه الكذبة. وأي صلة بينهم وبين إبراهيم العربي والكلداني؟! ولو كان إبراهيم أنجلوساكسونياً لسلمنا بالأمر. ولو كان فرنسياً أو كندياً لسلمنا بالأمر. فأين لكم من هذه الكذبة التي يسخر منها الجاهل قبل العاقل؟

إبراهيم أبو الأنبياء لو كانت دعوته امتلاك الأرض وطردَ شعوبها منها لانتفت عنه النبوة أساساً. ومسيرته الطويلة دلّتنا على أنه النبي الداعي إلى عقيدة التوحيد أينما حل وحيثما رحل.

ومن يريد الانتساب له من المفترض أن يسير على منهجه ويتبع طريقه. فهل اتبع اليهود منهجه وطريقه؟ هل لبوا دعوته عندما دعا الناس لأداء فريضة الحج. لماذا نحّوا ولده البكر إسماعيل وحرموه من ميراث أبيه إذا كان هناك فعلاً ميراثٌ دنيوي كما يزعمون؟

لماذا لفّقوا عليه كذبة شنيعة عندما قالوا إنه ذهب بامرأته سارة إلى مصر ليتاجر بها وهي عجوز تجاوزت السبعين من عمرها.

حقائق وأباطيل تفرض علينا أن نتوقف عندها لنبيّن بالأدلة القرآنية والتاريخية والتحليلية من هو هذا النبي العظيم. لنقف طويلاً عند أصول دعوته. عند أصول عروبته وعند أصول رحلته الواسعة. وعن بنائه لأول بيت وضع للناس كي يكون رمزاً لعقيدة التوحيد العالمية الإنسانية.

لنتوقف عند أولاده جميعاً وأحفاده. ومن تبع ملته ومن انحاز عنها. نتوقف عند جميع الأنبياء الذين لهم صلة به وأنكرتهم التوراة. ونتوقف عن الحواضر والقرى والمدن التي أنشأها أولاده وأحفاده وأخفتها التوراة ظناً منهم أن الحيلة تنطلي والحس العنصري يسود.

لقد جعلوا من النبي إبراهيم صاحب الوعد بامتلاك أرض فلسطين العربية. وهكذا أرادوه الشخصية المحورية للصراع بين أصحاب الأرض والمحتلين. وأرادوه أن يكون المنفذ لأوامر الرب الخاص بهم. فإلى النبي إبراهيم نسير معاً الكاتب والقارئ في رحلة طويلة شاقة ولكنها تسعى بإذن الله إلى الحقيقة وزهق الباطل، إن الباطل كان زهوقاً.

تمهيد

الرسالات التوحيدية قبل النبي إبراهيم عليه السلام

رسالة النبي نوح

رسالة النبي هود

رسالة النبي صالح

المناطق التي سادت فيها هذه العقائد

كثيرة هي المصادر التي تتناول الأنبياء والعقائد التي سبقت النبي إبراهيم عليه السلام. لكن آيات القرآن الكريم تتناول هذا التاريخ بإشارات محددة وخاصة فيما يتعلق بالنبي **نوح والنبيين هود وصالح**.

وعندما نتصفح التوراة نرى الحديث في سفر التكوين يتناول سلسلة الأنبياء بدءاً بالنبي آدم عليه السلام ثم بالنبي **نوح** ثم بإبراهيم وأولاده وأحفاده ولكنها لا تأتي على ذكر النبيَّن هود وصالح مطلقاً.

وقد أورد ابن خلدون حديثاً عن عاد فقال: لما اتصل ملك عاد وعظم طغيانهم وعتّوهم انتحلوا عبادة الأصنام والأوثان من الحجارة والخشب. فبعث الله إليهم أخاهم هوداً، وعلى ما ذكر المسعودي والطبري هو هود بن عبدالله بن رباح ابن الخلود بن عاد.

وقد عاقبهم الله بأن حبس المطر عنهم ثلاثة أيام ثم بعث عليهم السحب السوداء فقضت عليهم ونجّى الله هوداً.

ويقولون إن ديارهم كانت في صحراء شمال عمان واليمن وقالوا إن بلادهم بأحقاف الرمل بين اليمن وعمان إلى حضرموت والشجر[1].

أما ثمود: فهم بنو ثمود بن كاثر بن إرم وكانت ديارهم بالحجر ووادي القرى فيما بين الحجاز والشام وكانوا ينحتون بيوتهم في الجبال. وقد بعث الله إليهم **النبي صالح** وهو صالح بن آسف بن شالخ بن عبيل بن كاثر بن ثمود. وكانوا أهل كفر وبغي وعبادة أوثان فدعاهم صالح إلى الدين والتوحيد. قال الطبري: فلما جاءهم بذلك كفروا وطلبوا الآيات فخرج بهم إلى هضبة من الأرض فتمخضت عن الناقة ونهاهم أن يتعرضوا لها. وأخبرهم أنهم عاقروها. وحاولوا قتله لكن الله

(1) ابن خلدون. تاريخ ابن خلدون المجلد الثاني ص 20 ـ 21 ـ 32.

نجاه منهم فعقروا الناقة. ولجأ فصيلها (ابن الناقة) إلى الجبل فلم يدركوه وأقبل صالح وقد تخوف عليهم العذاب فلما رآه الفصيل أقبل إليه ورغا ثلاث رغاءات فأنذرهم صالح ثلاثاً وفي صبح الرابعة صعقوا بصيحة من السماء تقطعت بها قلوبهم فأصبحوا جاثمين وهلك جميعهم[1].

ويقول ابن خلدون: وأهل التوراة لا يعرفون شيئاً من أخبار عاد ولا ثمود لأنهم لم يقع لهم ذكر في التوراة ولا لهود ولا لصالح عليهما السلام بل ولا لأحد من العرب العاربة؛ لأن سياق الأخبار في التوراة عن أولئك الأمم إنما هو لمن كان في عمود النسب ما بين موسى وآدم. وليس لأحد من آباء هؤلاء الأجيال ذكر في عمود ذلك النسب فلم يُذكروا فيها[2].

وقد ورد ذكرهم في القرآن الكريم في عدة سور قرآنية ووصف ما كانوا عليه من كفر وضلال.

يقول تعالى في سورة هود: ﴿ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۖ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ ﴿٥٠﴾ يَٰقَوْمِ لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱلَّذِى فَطَرَنِىٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٥١﴾ وَيَٰقَوْمِ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا۟ مُجْرِمِينَ ﴾ (هود: 50 ـ 52).

ويقول تعالى: ﴿ ۞ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۚ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٦٥﴾ قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٦٦﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ لَيْسَ بِى سَفَاهَةٌ وَلَٰكِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٧﴾ أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَأَنَا۠ لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ ﴿٦٨﴾ أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ ۚ وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِى ٱلْخَلْقِ بَصْۜطَةً ۖ فَٱذْكُرُوٓا۟ ءَالَآءَ ٱللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ (الأعراف: 65 ـ 69).

---

(1) ابن خلدون. تاريخ ابن خلدون المجلد الثاني ص 20 ـ 21 ـ 32.

(2) المرجع السابق ص 24.

وما نستنتجه من الآيات الكريمة أن قوم هود خلفوا قوم نوح. وهذا يعني أن النبي هود سبق النبي إبراهيم في الوجود. وقد أشرنا إلى **مكان تواجد قوم هود وهو في صحراء بين عمان واليمن.**

أما عن قوم ثمود: فقال تعالى: ﴿وَٱذْكُرُوٓاْ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ ٱلْجِبَالَ بُيُوتًا فَٱذْكُرُوٓاْ ءَالَآءَ ٱللَّهِ وَلَا تَعْثَوْاْ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ (الأعراف: 74).

وهذه الآية تدل على أن الله استخلف بقوم عاد قوم ثمود الذين بعث فيهم النبي صالح. وتشير الآية إلى أنهم جاؤوا بعد عاد ولا ذكر للنبي إبراهيم في هذا السياق.

وقد أشارت جميع الدراسات أن **ديار قوم صالح كانت ما بين الشام والحجاز**. وقد أشارت السيرة النبوية إلى أن رسول الله ﷺ مر وصحابته بجوار ديار صالح أثناء المسير في غزوة تبوك.

ونستطيع أن نؤكد أن الرسالتين كانتا في المنطقة العربية، واحدة في الجنوب وأخرى في الشمال. وهذه المنطقة ستشهد نبوة إبراهيم عليه السلام. وتشهد أيضاً بناء قواعد البيت الحرام. فالرسالات وُجدت قبل أبي الأنبياء، وإذا كانت التقديرات والدراسات قد أجمعت على أن **النبي نوح وأولاده وأحفاده انتشروا في العراق وما جاورها** فإن المنطقة العربية شهدت الرسالات الأولى واستمرت بإبراهيم وأولاده وأحفاده في نفس المنطقة التي وُجد فيها الأجداد الأولون من نوح إلى أولاده وأحفاده.

عودة إلى نوح عليه السلام وقومه

كان من المفترض أن يسبق الحديث عن النبي نوح وقومه قبل الحديث عن النبيين هود وصالح. ولكن الأمر الذي فرض نفسه هو أن هوداً وصالحاً عليهما السلام لم يُذكرا في التوراة وقد اقتصر ذكرهما على القرآن الكريم. ولما كان منهجنا في

هذا الكتاب أقرب إلى مقارنة الأديان فقد آثرنا إفراد صفحات عن النبي نوح وقومه كما ورد ذكرهم في القرآن الكريم وكما ورد ذكرهم في التوراة.

ولما كان موضوعنا ينصب على دراسة شخصية النبي إبراهيم عليه السلام. فقد اقتصرت دراسة النبي نوح عليه السلام وقومه على الصلة بين نوح وإبراهيم، ومكان استقرار من نجا من الطوفان والعلاقة المكانية والجغرافية بين النبيين وقومهما. ومن ثم العلاقة الدينية التوحيدية بين الرسالتين.

أين استقر نوح ومن نجا معه من الطوفان؟

تتضارب الآراء حول مكان هبوط سفينة نوح. فالنصوص التوراتية تقول إن نوح ومن معه توقفت السفينة فيهم على جبال أراراط الواقعة في هضبة أرمينية.

وتقول بعض الآراء إنها هبطت حسب النص القرآني على جبل الجودي. وهذا الجبل موجود في القدس. والرأي الآخر يقول: إن نوحاً استقر مع من معه في العراق.

إذا رجعنا إلى ما قاله المؤرخون نرى أن أولاد نوح انتشروا في المنطقة ما بين الشام والعراق واليمن.

وعندما يورد ابن خلدون شيئاً عن ذلك الوقت يربط النبي إبراهيم بالنبي نوح ارتباطاً مباشراً فهو حسب ما أورده أحد أحفاد سام بن نوح عليه السلام.

يقول ابن خلدون: واعلم أن نوحاً صلوات الله عليه بلغ عمره يوم الطوفان ستمائة سنة وعاش بعد الطوفان ثلاثمائة سنة وخمسين سنة فكانت جملة ذلك تسعمائة وخمسين سنة، ألف سنة إلا خمسين وهذا نص المصحف الكريم وكذا وقع في التوراة بعينه. ومن الغريب الواقع في التوراة أن عمر إبراهيم كان يوم وفاة نوح ثلاثاً وخمسين سنة لأنه قال: إن أرفخشذ ولد لسام بعد سنتين من الطوفان ولما بلغ خمساً وثلاثين سنة ولد له ابنه شالخ وبعد ثلاثين سنة ولد ابنه عابر وبلغ عابر أربعاً وثلاثين سنة فولد ابنه فالغ وبلغ فالغ ثلاثين سنة فولد له أرغو. وبلغ أرغو سنتين

وثلاثين سنة فولد شاروغ وبلغ شاروغ ثلاثين سنة فولد ناحور وبلغ ناحور تسعاً وعشرين سنة فولد تارح وبلغ تارح خمساً وسبعين سنة فولد إبراهيم وجملة هذه السنين من الطوفان إلى ولادة إبراهيم مائتان وسبع وتسعون سنة وعمر نوح بعد الطوفان ثلاثمائة وخمسون سنة فيكون إبراهيم بعد وفاة نوح ابن ثلاث وخمسين سنة فيكون لقي نوحاً صلوات الله عليهما وخالطه وأخذ عنه وهو على رأي بعضهم أب لجميع الشعوب من بعده فلذلك كان الأب الثالث للخليقة من بعد آدم ونوح صلوات الله عليهم أجمعين[1].

ومن الواضح أن ابن خلدون يستند إلى ما قالته التوراة، ورأينا أن هذا لا يعول عليه كثيراً لأنه مصدر مشكوك في صحته لأنه أُلف زمن البابليين ليس أكثر. والحقيقة أن ظاهر الآيات القرآنية يدلنا على غير ذلك.

فالله سبحانه يقول: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ ٱلطُّوفَانُ وَهُمْ ظَٰلِمُونَ﴾ (العنكبوت: 14).

وهذا يعني أن نوحاً مكث يدعو قومه تسعمائة وخمسين عاماً. ولا ندري كم مكث بعد الطوفان لأن من نجا معه كانوا مؤمنين وهم قلة ولا يعتبرون من قومه الذين أهلكهم الله بالطوفان.

ما يهمنا من قصة نوح عليه السلام في هذا السياق معرفة أين استقرت السفينة وأين انتشر الذين كانوا مع نوح عليه السلام حتى نصل إلى نتيجة تدلنا إما على صلة مباشرة. بين عصر نوح وأولاده وأحفاده مع النبي إبراهيم عليه السلام أو عدم صلة مباشرة فالتوراة تقول إن السفينة توقفت على جبال أراراط في الهضبة الأرمينية. والنص القرآني يقول هبطت على جبل الجودي. وهذا الجبل حسب قول ابن كثير والمفسرين المسلمين يقع في الجزيرة العربية. وبعضهم قال بأن هذا الجبل يقع بجانب مدينة القدس أما الاحتمال الأول فهو بعيد لعدة أسباب:

---

(1) تاريخ ابن خلدون الجزء الثاني ص 34.

1ـ الأول أن أولاد نوح وأحفاده وحسب غالبية المصادر التاريخية انتشروا في الجزيرة العربية والعراق والشام. فإذا كانوا في هضبة أراراط فمن المفترض أن ينتشروا هناك.

2ـ عندما يحدثنا القرآن الكريم عن قومي عاد وثمود يربط التذكير الذي طرحه هود عليه السلام بقوم نوح وليس بقوم غيرهم ويربط النبي صالح التذكير بقوم هود. وهذا يعني أن قوم عاد وقوم ثمود من الأقوام التي انتشرت بعد نوح مباشرة وهم من أحفاده. ومكان تواجدهما هو في منطقة جنوب الجزيرة وما بين الشام والحجاز وهذا يعني أن قوم نوح عليه السلام لم يكونوا خارج دائرة هذه المنطقة.

3ـ حديث القرآن الكريم عن الأنبياء المذكورين فيه، تواجدوا جميعهم في هذه المنطقة وليس في غيرها والنبي نوح لا يمكن أن يكون لوحده من خارج المنطقة.

4ـ عندما يتحدث القرآن الكريم عن التنور الذي فارت منه الحياة مع بدء الطوفان فإنه يعطينا إشارة أثرية من آثار الأقوام الأولى، فالتنور لا يُعرف إلا في المناطق العربية. ويستخدم لخبز العجين. وما زالت بعض القرى في المنطقة العربية تستخدم هذا التنور لتحضير الخبز. وهذا يؤكد أيضاً أن الطوفان لم يكن عامّا بل كان محدوداً في منطقة محددة. ويرى بعض الباحثين أن الطوفان امتد من شرقي ليبيا حتى جبال طوروس الفاصلة بين سوريا وتركيا.

وقال المؤرخون الفرس والهنود أنهم لم يسمعوا ولم يعرفوا أن هناك طوفاناً تم في الأرض.

وقد أورد ابن خلدون قوله: وفي كتاب البدء ونقله ابن سعيد أن أول من ملك الأرض من ولد نوح كنعان بن كوش بن حام فسار من أرض كنعان بالشام إلى أرض بابل فبنى مدينة بابل اثني عشر فرسخاً في مثلها وورث ملكه ابنه النمرود ابن كنعان وعظم سلطانه في الأرض وطال عمره وغلب على أكثر المعمورة وأخذ

بدين الصابئة وخالفه الكلدانيون منهم في التوحيد وأسمائه ومال معهم بنو سام وكان سام قد نزل بشرقي دجلة وكان وصي أبيه في الدين والتوحيد[1].

فمن خلال كلام ابن خلدون نرى النفس التوراتي واضحاً إذ يعتبر كنعان ابن حام وأن كنعان في فلسطين ثم انتقل إلى بابل فعمرها.

وعندما يقول إن سام خالفه بديانة التوحيد. فإن ذلك يعني أن ساماً كان موحداً بينما حام كان فاسقاً أو كافراً.

على كل حال هذا الكلام سيناقش فيما بعد لتثبيت الحقائق ودحض مزاعم التوراة لكن الذي يلفت النظر أن ابن خلدون يقول إن سام نزل بشرقي دجلة.

إذاً فإن أولاد نوح عليه السلام سكنوا الشام والعراق حسب قول ابن خلدون ويرد في مصادر عدة ومنها (العرب واليهود في التاريخ) للدكتور أحمد سوسة أن الكنعانيين أقدم شعب عربي معروف للدارسين استوطن بلاد الشام في الألف الثاني قبل الميلاد وقد أطلق اسم كنعان على المناطق الساحلية والغربية من فلسطين ثم توسع هذا المفهوم ليشمل فلسطين وقسماً كبيراً من سوريا. ويعتبر الفينيقيون من القبائل الكنعانية.

وهذا القول مخالف لما ورد في تاريخ ابن خلدون. لأن الكنعانيين هاجروا من اليمن إلى الشام في الألف الثاني ق.م. وهم أقوام عربية وليس ما يؤكد انتسابهم لحام بل إن المصادر والدراسات اللغوية تشير إلى أن الكنعانيين عرب من اليمن.

على جميع الأحوال فإن الاستنتاجات تقول إن أولاد نوح استقروا في العراق والشام واليمن. ومن هذه المناطق انتشروا مرة أخرى باتجاهات أوسع شملت أقساماً أخرى من المنطقة العربية.

لكنّ الدارسين للهجرات العربية القديمة ومنهم الدكتور أحمد سوسة. يرون أن أقدم الهجرات التي أثبتتها الآثار والتواريخ تمت في الألف الثالث ق.م.

---

(1) تاريخ ابن خلدون الجزء الثاني ص 34.

يرى الدكتور سوسة أن من أقدم الهجرات التي قام بها أهل جزيرة العرب إلى الهلال الخصيب هجرة الجماعات التي توجهت إلى أرض فلسطين في النصف الأول من الألف الثالثة قبل الميلاد حسب أوثق التقديرات وأن المعابد التي وُجدت بعض آثارها في أريحا ومجدو تعود إلى بداية الألف الثالثة ق.م.

ويرى كاتب التوراة أن كنعان هو ابن حام بن نوح وقد ولد له صيدون وحث واليبوسي والأموري والجرجاشي والحوّي والعرقي والسبني والأروادي والصماري والحماتي. وكانت تخوم الكنعاني من صيدون حينما تجيء إلى جوار إلى غزة وحينما تجيء نحو سدوم وعمورة وأدمة وصبوييم إلى لاشع، وهذا ما ورد في سفر التكوين.

وتعتبر بلدة شكيم نابلس العاصمة الطبيعية لبلاد كنعان لموقعها وسط فلسطين ولعبت حاصور العاصمة الشمالية في منطقة الجليل.

ويورد الطبري على قول ابن إسحاق أن النبي إبراهيم وُلد على عهد نمرود بن كنعان بن كوش بن سام. وليس ابن حام.

ولعل الهجرة الثانية الكبرى من شبه الجزيرة العربية هي هجرة العموريين العمالقة وقد هاجروا تقريباً في نفس الوقت الذي هاجر فيه الكنعانيون، واستوطنوا وسط سوريا وأسسوا مملكة ماري الواقعة على الضفة الغربية لنهر الفرات على مسافة 15 كـ م إلى الشمال من البوكمال.

ومن أهم ما خلّده العموريون في تاريخهم القديم تأسيسهم بعد استقرارهم في العراق الإمبراطورية البابلية القديمة التي اشتهرت بملكها السادس حمورابي صاحب الشريعة المشهورة وقد دامت ثلاثة قرون[1].

(1) د. أحمد سوسة. العرب واليهود في التاريخ ص 137.

أما الآراميون فشكلوا الهجرة الثالثة من الجزيرة العربية. وقد استوطنوا في البداية منطقة الفرات الأوسط، ثم استقروا في دمشق وحماه وحلوا محل العموريين والحيثيين في وادي نهر العاصي.

والنبي إبراهيم عليه السلام ينتمي إلى العشائر الآرامية. ومما يدل على أن الآراميين كانوا موجودين في هذه المناطق قبل الألف الثانية قبل الميلاد أن اسم آرام ورد في كتابة مسمارية ترجع إلى الملك الأكدي فرام سين في القرن 23 ق.م.

وقد وُصف النبي يعقوب بالآرامي التائه ووصفت زوجاته بالآراميات وقد وردت الإشارة إليهم في رسائل تل العمارنة في القرنين الخامس والرابع عشر ق.م باسم أخلامو أي الأحلاف.

وقد أطلق على بعض بدو الآراميين الذين كانوا يتنقلون في البادية اسم العبيرو والخبيرو. ويؤكد العلامة كروهمان في بحثه عن أصل العرب علاقة الآراميين مع قبائل الخبيرو والعبيرو فيقول: من المؤكد أن العنصر العربي البدوي في شبه الجزيرة وهو على الأرجح مصطلح مرادف لتسمية آرام. عبيرو وخبيرو وُجد في الأصل في المنطقة التي تمتد بين سوريا وبلاد ما بين النهرين والتي تعد أقدم مركز للعرب المسلمين.

أما هجرة الأكديين فهي أقدم هجرة عربية اتجهت من جنوب الجزيرة العربية إلى ضفاف الفرات استقروا في بداية الأمر على ضفة نهر الفرات اليمنى في البقعة الممتدة بين عانة وهيث وفي القرن الرابع والعشرين أسسوا أول دولة قوية بقيادة سرجون الأكدي. وقد دام حكمها حوالي قرن ونصف.

أما بالنسبة لهجرة قوم النبي إبراهيم من الجزيرة العربية إلى العراق فآراء العلماء تقول أن أسرة النبي إبراهيم جاءت إلى منطقة بابل في حوالي أوائل الألف الثانية قبل الميلاد. وأغلب المصادر تقول: إن بلد إبراهيم في العراق هو مدينة كوثا التي تعتبر مركزاً هاماً للآراميين في العراق منذ أقدم العصور بعد أن هاجروا من

الجزيرة العربية وأخذوا يؤسسون مستوطناتهم على ضفاف الفرات في سوريا وفي العراق[1].

العلاقة بين نوح وإبراهيم عليهما السلام

تختلف الروايات حول نسب إبراهيم عليه السلام وحول التسلسل في آبائه فرواية التوراة تقول إن إبراهيم يعود نسبه إلى نوح.

ويرى ابن خلدون استناداً على التوراة أن الكلدانيين خالفوا كنعان وخالفوا ابنه النمرود في العقيدة. حيث كان الكلدانيون موحدين ومال إليهم بنو سام وكان سام قد نزل بشرقي الدجلة.

ومن سام ولد أرفخشد ثم جاء شالخ ثم عابر. وعابر هو أبو النصرانيين. ثم ورثه من بعده فالغ ثم ملكان ثم جاء ابنه شاروخ ثم ناحور ثم نارح بن ناحور الذي سُمي آزر واستخلص النمرود آزر وقومه على بيت الأصنام. وهذا ما رواه ابن سعيد. وولد لتارح على ما وقع في التوراة ثلاثة من الولد إبراهيم وناحور وهاران ومات هاران في حياة أبيه نارح وترك خلفه ابنه لوطاً.

وتقول التوراة إن نوحاً عليه السلام بلغ عمره يوم الطوفان ستمائة سنة وعاش بعد الطوفان ثلاثمائة وخمسين سنة فكانت جملة ذلك تسعمائة وخمسين سنة ألف سنة إلا خمسين. ومن الغريب أن التوراة تقول كان إبراهيم يوم وفاة نوح ابن ثلاث وخمسين عاماً لأنه قال إن أرفخشد ولد لسام بعد سنتين من الطوفان ولما بلغ خمساً وثلاثين سنة ولد له ابنه شالخ. وبعد ثلاثين سنة ولد ابنه عابر وبلغ عابر أربعاً وثلاثين سنة فولد ابنه فالغ وبلغ فالغ ثلاثين سنة فولد له أرغو وبلغ أرغو ثنتين وثلاثين سنة فولد شاروغ وبلغ شاروغ ثلاثين سنة فولد ناحور وبلغ ناحور تسعاً وعشرين سنة فولد تارح وبلغ تارح خمساً وسبعين سنة فولد إبراهيم. وجملة هذه السنين من

(1) أحمد سوسة. العرب واليهود في التاريخ ص 482.

الطوفان إلى ولادة إبراهيم مائتان وسبع وتسعون سنة. وعمر نوح بعد الطوفان ثلاثمائة وخمسون سنة فيكون إبراهيم بعد وفاة نوح ابن ثلاث وخمسين سنة فيكون لقي نوحاً وخالطه وأخذ عنه. وهو على رأي بعضهم أب لجميع الشعوب بعده فلذلك كان الأب الثالث للخليقة من بعد آدم ونوح صلوات الله عليهم أجمعين[1].

ورواية التوراة ليست صحيحة ولا يقبلها المنطق التاريخي لعدة أسباب:

أولها: لم تشر أية مصادر أخرى غير التوراة إلى نسب إبراهيم والتوراة كمصدر وحيد لا يعوّل عليه.

ثانيها: لقد سبقت أقوام عاد وثمود وجود إبراهيم عليه السلام.

ثالثها: ليس غريباً أن يكون إبراهيم عليه السلام من نسل نوح وأولاده ولكن الغريب وجود هذه الأسماء المخترعة من قبل كاتب التوراة. والغريب الآخر قولهم إن إبراهيم عاصر نوحاً أو كان عمره سبعة وخمسين عاماً عندما توفي نوح عليه السلام.

(1) ابن خلدون. تاريخ ابن خلدون المجلد 2 ص 34.

الفصل الأول

النبي إبراهيم عليه السلام
في الرواية التوراتية

تشكل شخصية إبراهيم عليه السلام محوراً أساسياً من محاور التوراة، حيث تبني على هذه الشخصية عدة قضايا دينية وعرقية وسياسية.

فهو بالنسبة لبني إسرائيل واليهود جدهم الأول. ومن نسله خرج أنبياؤهم جميعهم. وفي نفس الوقت يدعون أن الله وعده ونسله أن يملكه الأرض التي أراه إياها وهي أرض فلسطين.

ولما كانت رواية التوراة تخلط الحقيقة بالخيال فقد آثرت أن أناقش ما ورد فيها خبراً خبراً ومقطعاً مقطعاً حتى ندرك جميعاً مدى ما وقع فيه مؤلف التوراة من تأليف وهمي ليس له علاقة بالواقع التاريخي.

تبدأ التوراة بالحديث عن النبي إبراهيم في منتصف الإصحاح الحادي عشر من سفر التكوين فتقول: وهذه مواليد تارح. ولد تارح أبرام وناحور وهاران وولد هاران لوطاً ومات هاران قبل تارح أبيه في أرض ميلاده في أور الكلدانيين واتخذ إبرام وناحور لأنفسهما امرأتين اسم امرأة إبرام ساراي واسم امرأة ناحور ملكة بنت هاران أبي ملكة وأبي يسكة. وكانت ساراي عاقراً ليس لها ولد. وأخذ تارح إبرام ابنه ولوطا بن هاران ابن ابنه وساراي كنته امرأة إبرام ابنه. فخرجوا معاً من أور الكلدانيين ليذهبوا إلى أرض كنعان فأتوا إلى حاران وأقاموا هناك وكانت أيام تارح مئتين وخمسين سنين ومات تارح في حاران.

المناقشة:

من خلال هذا النص نجد التالي:

1ـ لوط هو ابن أخي إبراهيم هاران.

2ـ ساري امرأة إبراهيم ليست من عائلته.

3ـ امرأة ناحور هي ملكة بنت هاران أي أنها أخت لوط. وابنة أخي ناحور. وهذا يعني أن العم تزوج ابنة أخيه.

4ـ ويبدو أن إبراهيم وأباه وأسرته هم من سكان أور الكلدانيين.

وتقول التوراة: إن والد إبراهيم أخذ أولاده باتجاه أرض كنعان دون ذكر السبب في هذا التوجه. فأتوا إلى حرّان وأقاموا هناك، ثم تقول ومات تارح في حاران.

وفي هذا النص ليس هناك أي ذكر لصلة والد إبراهيم تارح بقوم نوح أو بنسله على الرغم من أن تارح بلغ من العمر مائتين وخمس سنين.

وتشير التوراة إلى أن ساراي كانت عاقراً ولكنها أي التوراة لم تقل أن ملكة بنت هاران كان لها أولاد. ولم تشر لها أنها كانت عاقراً أو غير عاقر.

ولا ندري كم كان عمر إبراهيم عندما مات أبوه تارح.

ولعل أهم ما في النص قول التوراة إن تارح أخذ إبراهيم باتجاه أرض كنعان. فلماذا إلى أرض كنعان وليس إلى أرض غيرها؟

والواقع أن التوراة لا تورد وعداً إلهياً أو ما شابه ذلك ولا تورد سبباً لهذا التوجه كما قلنا.

الإصحاح الثاني عشر

تقول التوراة: (وقال الرب لأبرام اذهب من أرضك ومن عشيرتك ومن بيت أبيك إلى الأرض التي أريك. فأجعلك أمة عظيمة وأباركك وأعظم اسمك وتكون بركة وأبارك مباركيك ولاعنك ألعنه وتتبارك فيك جميع قبائل الأرض. فذهب أبرام كما قال له الرب وذهب معه لوط وكان إبرام ابن خمس وسبعين سنة لما خرج من حاران. فأخذ إبرام ساراي امرأته ولوطاً ابن أخيه وكل مقتنياتهما التي اقتنيا والنفوس التي امتلكا في حاران وخرجوا ليذهبوا إلى أرض كنعان. فأتوا إلى أرض كنعان. فاجتاز أبرام في الأرض إلى مكان شكيم إلى بلوخة مورا. وكان

الكنعانيون حينئذٍ في الأرض. وظهر الرب لأبرام وقال لنسلك أعطي هذه الأرض. فبنى هناك مذبحاً للرب الذي ظهر له. ثم نقل من هناك إلى الجبل شرقي بيت إيل ونصب خيمته وله بيت إيل من المغرب وعاي من المشرق. وبنى هناك مذبحاً للرب ودعا باسم الرب ثم ارتحل أبرام ارتحالاً متوالياً نحو الجنوب) تكوين 12: 1 ـ 9.

مناقشة النص:

نلاحظ أول الأمر أن الرب يخاطب أبرام. دون أي تمهيد. فأبرام هنا رجل كأي رجل. ليس هناك إشارة إلى أنه نبي أو أنه مختار من الله. فهو فجأة يخاطبه لأي سبب لا ندري. فالتوراة لم تخبرنا قبل هذا النص ما منزلة إبراهيم وما صفته ومن هو، سوى أنه ابن تارح. أما صفته الدينية أو النبوية فليس لها أثر على الإطلاق.

تقول التوراة إن أبا أبرام كان ينوي الذهاب إلى أرض كنعان ولكنه مات في حاران فهل أوصاه أبوه أن يذهب إلى تلك الأرض؟ أم أن أبرام أراد أن يتابع الطريق الذي بدأه أبوه. وهل كان القصد منذ البداية التجارة أم الهروب من ظلم الملوك، أم أن عائلة إبراهيم كانت غريبة في بلدها أوركلدان؟ أم أنها أرادت التنقل من مكان إلى آخر بقصد البحث عن الكلأ والمرعى؟

التوراة تقول: إذهب من أرضك ومن عشيرتك ومن بيت أبيك إلى الأرض التي أريك. فأجعلك أمة عظيمة وأباركك وأعظم اسمك وتكون بركة وأبارك مباركيك. ولاعنك ألعنه وتتبارك فيك جميع قبائل الأرض.

فمن الواضح أن الرب يأمر إبرام بالذهاب بعيداً عن أرضه وعشيرته وبيت أبيه إلى أرض أخرى ليجعله أمة عظيمة ويباركه ويعظم اسمه وليباركه وتتبارك به جميع قبائل الأرض.

والسؤال المطروح هو: ألا تجوز مباركة الرب لأبرام في أرضه وبين عشيرته وفي بيت أبيه؟ أم أنها لا تجوز ولن تكون إلا في أرض هوغريب بالنسبة لها.

وفي هذا النص لا ورود لوعد إلهي لأبرام بتملك الأرض التي سوف يريها له والنص يقتصر على قوله الأرض التي أريك.

وعلى أي أساس تتبارك بأبرام جميع قبائل الأرض إن لم يكن نبياً عظيماً أو ذا شأن كبير عند الله سبحانه وتعالى. لكن التوراة لا تورد شيئاً من نبوة إبراهيم ولا تبين شأنه ومكانته.

(في النصف الأول من الألف الثانية ق.م كان الأجداد القدامى للعبرانيين. وهم ينتمون إلى تجمع أكبر هو القبائل السامية الغربية ما زالوا عبارة عن رعاة رحل. إنهم كانوا يجولون مع قطعانهم في البادية ما بين سورية وشبه الجزيرة العربية والسهول الواقعة إلى الشرق والجنوب الشرقي من فلسطين أي في المنطقة التي كانت آنذاك تسمى كنعان. إن سفر التكوين في التوراة الذي حفظ في طيّه الروايات الأسطورية عمن يسمون بالآباء الأولين. إبراهيم وإسحاق ويعقوب يصورهم بمثابة شيوخ بدو نموذجيين كآباء لعوائل بطريركية كبيرة تترحل باستمرار من مكان إلى آخر بحثاً عن المراعي وموارد الحياة لأجل قطعانها)[1].

وتقول التوراة: فأخذ أبرام ساراي امرأته ولوطا ابن أخيه وكل مقتنياتهما التي اقتنيا والنفوس التي امتلكا في حاران.

فأبرام كان زائراً في حاران أو ماراً بها فكيف تقول التوراة وكل مقتنياتهما وكيف تقول والنفوس التي امتلكا في حاران؟ فهل كان لدى إبراهيم عبيدٌ اشتراهم وامتلكهم.

ثم تقول التوراة: واجتاز أبرام في الأرض إلى مكان شكيم إلى بلوطة مورة وكان الكنعانيون حينئذٍ في الأرض.

إذن حسب النص التوراتي أن أول مكان وصل إليه إبراهيم وهو مدينة شكيم أي مدينة نابلس ثم إلى بلوطة مورا حيث كان الكنعانيون حينئذٍ في الأرض. فلماذا

---

(1) م. ريجسكي. أنبياء التوراة والنبوءات التوراتية ترجمة آحو يوسف ص 12.

تقول التوراة أن شكيم أول مكان وصل إليه أبرام في أرض فلسطين على الرغم من أن رحلته تفترض أن يمر بمدن أخرى إذا كان قد نزل من الشمال إلى الجنوب مثل مدينة حاصور وعكا وغيرهما.

وأهم ما في هذا النص اعتراف التوراة بأن الكنعانيين كانوا موجودين حينئذٍ في الأرض.

فهل الكنعانيون كانوا طارئين على هذه الأرض أم أنهم سبقوا النبي إبراهيم في هذا الوجود؟

النص التوراتي يقول إن الله خاطب أبرام قائلاً له: لنسلك أعطي هذه الأرض فالأرض مليئة بسكانها والله يعده أن يمنحه هذه الأرض المسكونة بالكنعانيين.

ولعل السؤال المطروح هو: لماذا لم يعد الله أبرام أن يعطيه أرضاً في أوركلدان وهو أحق بها لأنها بلده الأصلي. لماذا يرحل به الله مسافة لا تقل عن ألفي كيلو متر إلى أرض كنعان ليقول سأمنحك هذه الأرض لك ولنسلك؟

ثم إن إبراهيم عليه السلام عند وعد الله له حسب زعم التوراة لم يكن لديه نسل، ليس له ولد وامرأته كانت عاقراً. فهل أخبر الله إبراهيم بأنه سيكون له نسل وسيُمنح هذه الأرض؟

ويتابع الإصحاح الثاني عشر قوله: وحدث جوع في الأرض فانحدر أبرام إلى مصر ليتغرب هناك لأن الجوع في الأرض كان شديداً. وحدث لما قرب أن يدخل مصر أنه قال لساراي امرأته إني قد علمت أنك امرأة حسنة المنظر فيكون إذا رآك المصريون أنهم يقولون هذه امرأته فيقتلونني ويستبقونك قولي إنك أختي ليكون لي خير بسببك وتحيا نفسي من أجلك.

وكذب التوراة واضح في هذا النص. لأن إبراهيم عليه السلام كان شيخاً كبيراً وحسب المصادر التوراتية كان عمره ثمانين سنة وكان يكبر زوجته سارة بعشر

سنوات أي أن عمرها كان سبعين سنة. فكيف يمكن أن تكون سارة حسنة المنظر يهواها المصريون ويقتلون زوجها لأجل أخذها سبيّة؟

ونلاحظ قول التوراة: قولي إنك أختي ليكون لي خير بسببك وتحيا نفسي من أجلك. فهو يعني أن المصريين بسببها وبسبب جمالها سيمنحون إبراهيم المال والأنعام، وهذا ما يناقض أبسط درجات الكرامة الإنسانية. فكيف يكون الحال مع نبي من أنبياء الله.

وقد أثارت هذه القصة التوراتية الكثير من الباحثين حيث وجدوا التناقض الصارخ بين طبيعة النبوة وهذا الشذوذ.

يقول حنا حنا: وعندما ضاقت الحياة وأسباب العيش مع إبراهيم على حد زعم التوراة حمل سلعته الثمينة والنادرة بجمالها. تلك الزوجة الحيزبون حملها إلى فرعون مصر ليقدمها له متاجراً بجسدها التي تصفه التوراة بالجميل جداً وهو على ما أرى أبشع سلوك ينتهجه الإنسان الشريف.

ويتابع حنا حنا: وبعد أن قدم إبراهيم زوجته لفرعون أغدق هذا الفرعون على إبراهيمنا وأبي الأنبياء خيراً وفيراً ثمناً لهذا السلوك الشريف، وأصبح من ثم إبراهيم غنياً جداً جداً.

ويقول وصنع فرعون إلى أبرام خيراً بسببها وصار له غنم وحمير وبقر وعبيد وإماء وأتن وجمال[1].

فمن خلال نص التوراة الذي يتحدث عن هذه القصة ندرك مسألتين:

الأولى: الكذب والتناقض الصارخ

الثانية: تشويه التوراة للنبي إبراهيم عليه السلام. وهذا التشويه سنراه مع سائر الأنبياء الذين تحدثت عنهم التوراة في أسفار التوراة اللاحقة بعد التكوين. وتتابع

(1) حنا حنا: دراسات توراتية. دار رام. دمشق 2006 ص 362 ـ 363.

التوراة الحديث عن رحلة أبرام بعد أن أكرمه فرعون مصر وأعطاه الكثير من العطاءات.

تقول التوراة: (فصعد أبرام من مصر هو وامرأته وكل ما كان له ولوط معه إلى الجنوب وكان أبرام غنياً جداً في المواشي والفضة والذهب. وسار في رحلاته من الجنوب إلى بيت إيل إلى المكان الذي كانت خيمته فيه في البداءة بين بيت إيل وعاي).

وفي هذا النص عدة تناقضات جغرافية وروائية. فالنص يقول صعد أبرام مصر إلى الجنوب. فهذا النص يوحي صراحة إلى سفر إبراهيم إلى جنوب مصر بمعنى أن رحلته اتجهت نحو النوبة والسودان. لأن الفراعنة كانوا في مصر وخاصة في قسمها الشمالي. فكيف تقول التوراة سار في رحلاته من الجنوب إلى بيت إيل، كيف تقول إنه سافر إلى جنوب مصر ثم تقول سافر من الجنوب إلى بيت إيل التي هي قرب القدس في فلسطين؟

ثم تقول التوراة: ولوط معه: بمعنى أن لوطاً كان معه في رحلته إلى مصر.

فلماذا لم تشر التوراة إلى لوط عندما قالت إن إبراهيم أخذ زوجته وسافر إلى مصر؟ ويبدو أن كاتب التوراة لم يكن متأكداً من أن لوطاً ظل في مدن الدائرة أم أنه رافق إبراهيم في رحلته إلى مصر.

ثم تقول التوراة: وكان أبرام غنياً جداً في المواشي والفضة والذهب.

فهل حقاً كان إبراهيم كذلك؟ أشارت التوراة إلى أن هجرة إبراهيم إلى مصر كانت بسبب الجوع فكيف أصبح بهذه السرعة غنياً بالمواشي والفضة والذهب؟ إذا كان فرعون قد أنعم عليه بالمواشي وببعض قطع من الفضة والذهب فهذا لا يجعله يصبح كما تقول التوراة غنياً جداً.

ثم تقول التوراة ولوط السائر مع أبرام كان له أيضاً غنم وبقر وخيام. ولم تحتملها الأرض أن يسكنا معاً. إذ كانت أملاكهما كثيرة فلم يقدرا أن يسكنا معاً

فحدثت مخاصمة بين رعاة مواشي أبرام ورعاة مواشي لوط. وكان الكنعانيون والفرزيون حينئذٍ ساكنين في الأرض. فقال أبرام للوط لا تكن مخاصمة بيني وبينك وبين رعاتي ورعاتك لأننا نحو إخوان. أليست كل الأرض أمامك. اعتزل عني إن ذهبت شمالاً فأنا يميناً وإن يميناً فأنا شمالاً.

وهنا لابد من إيراد أسئلة عدة حول هذا النص:

1ـ لوط ابن أخي إبراهيم وكان شاباً فمن أين صار لديه غنم وبقر وخيام حتى أن الأرض لم تحتملهما.

2ـ تقول التوراة وكان الكنعانيون والفرزيون حينئذٍ ساكنين في الأرض. وهذا يعني أن هذه الأغنام والأبقار التي تريد الكلأ والمرعى لا تجد مكاناً لها في هذه الأرض لأن السكان الأصليين أولى بمراعيهم وسيمنعون غيرهم من رعيها خاصة إذا كانت الأغنام والأبقار كثيفة العدد. والسؤال المطروح هنا كيف يعدُ اللهُ إبراهيم بأرض لها سكانها.

3ـ وإذا كان الله قد وعد إبراهيم بهذه الأرض فكيف يقول للوط اختر الأرض التي تريد فإن ذهبت شمالاً فأنا سأذهب جنوباً والعكس بالعكس. فلو كان وعد الله كما تنص التوراة صحيحاً لتمسك إبراهيم بالأرض وطرد لوطاً إلى مكان آخر.

وتقول التوراة: فاعتزل الواحد عن الآخر. أبرام سكن في أرض كنعان ولوط سكن في مدن الدائرة ونقل خيامه إلى سدوم وكان أهل سدوم أشراراً وخطأةً لدى الرب جداً. ومرة أخرى تعترف التوراة أن إبراهيم سكن في أرض كنعان التي لها أصحابها.

وقوم لوط كانوا أشراراً وعصاة. وليس هناك إشارة واحدة إلى أن الكنعانيين كانوا كذلك بمعنى أن إبراهيم سكن بين أناس محترمين وليسوا من الأشرار.

وتتابع التوراة قولها: وقال الرب لأبرام بعد اعتزال لـوط عنـه ارفـع عينيـك وانظر من الموضع الذي أنت فيه شمالاً وجنوبـاً وشرقـاً وغربـاً. لأن جميـع الأرض التي أنت ترى لك أعطيها ولنسلك إلى الأبد. وأجعل نسلك كتراب الأرض.

وتتابع قولها: قم امش في الأرض طولهـا وعرضـها لأني لـك أعطيهـا. فنقـل أبرام خيامه وأتى وأقام عند بلوخات ممرا التي في حبرون.

وإذا حاكمنا هذا النص دون النظر إلى تناقضات التوراة واعترافاتها بـأن هـذه الأرض هي أرض الكنعانيين. نرى أن الرب حسب زعـم التـوراة يقـول لإبـراهيم لأن جميع الأرض التي أنت ترى لك أعطيها ولنسلك.

فكم من الممكن أن ترى عينا الإنسان من مساحة الأرض حتى ولو كان ذلك في جميع الاتجاهات. كم من الكيلومترات يمكن يرى.

ثم إن إبراهيم ليس له ولد حتى هـذه اللحظـة. فـإبراهيم لـه زوجـة واحـدة اسمها سارة ولم ينجب فكيف تقول التوراة أعطيها لـك ولنـسلك إلى الأبـد. فـأين نسل إبراهيم ولماذا مات إبراهيم ولم يحصل على الأرض التي تـزعم التـوراة أنـه الله وعده بها؟

ثم إذا افترضنا أن إبراهيم كان يعلم أنه سيأتيه نسل ـ وهذا من المستحيلات ـ فإن النص التوراتي يقول له لك أعطيها ولنسلك. فمـن هـم نـسل إبـراهيم. أليـس إسماعيل ابنه البكر وهذا ما نصت عليه التوراة. فلمَ لا يكون ملك الأرض من حـق هذا الولد الذي استبعدته التوراة كليـاً. ولمـاذا أصرّ كاتـب التـوراة عـلى أن الوعـد ينحصر في إسحاق ويعقوب ونسل يعقوب؟

إبراهيم بعد هذا سينجب إسماعيل ومن ثم إسحاق. وإسحاق ينجـب يعقـوب ويعقوب ينجب الأسباط الإثني عشر. لكن إسماعيل حسب نـص التـوراة ينجـب اثني عشر ولداً، ولهؤلاء الحق في امتلاك الأرض التـي وعـد الله إبـراهيم بتملكّهـا. ولكن الأحداث تقول إن الأرض بقيت بأيدي سـكانها ولم يحـصل تنفيـذ وعـد الله

لإبراهيم. فلا هؤلاء نسله امتلكوا هذه الأرض، لأن الوعد أساساً كاذب وحاشا لله أن يعد نبياً ولا يحقق وعده. لكن التوراة ذات الحس الإسرائيلي الاستيطاني أرادت أن تجعل القضية الاحتلالية الاستعمارية قضية نص ديني مقدس. لا محال من تنفيذه ولو بالقوة ولو بالإبادة. كما فعل الصهاينة المتهودون عندما احتلوا فلسطين وادّعوا أن الله وعدهم بها وهم كاذبون ومزوّرون للحقائق.

وفي الإصحاح الرابع عشر: الفقرة 18: تقول التوراة: وملكي صادق ملك شاليم أخرج خبزاً وخمراً وكان كاهنا لله العلي. وباركه وقال مبارك أبرام من الله العلي مالك السموات والأرض ومبارك الله العلي الذي أسلم أعداءك في يدك فهذه هي المرة الأولى التي تشير فيها التوراة إلى ـ شاليم ـ التي هي القدس وتشير إلى ملكها المدعو ملكي صادق.

وهذا يعني بكل التأويلات والتفسيرات أن لا علاقة بين النبي إبراهيم ومدينة القدس. والعلاقة الوحيدة هي التي وردت من أن ملك المدينة المدعو ملكي صادق بارك إبراهيم باسم الله العلي القدير خالق السموات والأرض..

ويعلق رينهارد لاوت قائلاً: (أما أن ملكي صادق كان أكثر من ملك: أي (كاهناً) للإله العلي فهذا يبرهن على أن الإيمان بالعلي كان منتشراً في أصقاع كثيرة وأن نوعاً من الطقوس كان قد تبلور. وبشخصية ملكي صادق يظهر لنا لأول مرة في الكتاب المقدس بإطلاق كاهن (وتبيّن كلمة صادق أن موقفاً دينياً أخلاقياً معيناً كان مرتبطاً بدين هذا الإله العلي. اطلع إبراهيم دون شك على انتشار وشكل هذا الإيمان بالله.

ويقول: نرى من هنا أن إبراهيم كان مرتبطاً منذ البداية بالإله الأعلى الذي كان يعبد في شمال ما بين النهرين وفي فلسطين أيضاً[1].

---

(1) رينهارد لاوت: إبراهيم وأبناء عهده مع الله ص 105. ترجمة د: غانم هنا خطوات للنشر والتوزيع ط 1 دمشق 2006.

ونستطيع أن نرى من خلال نص التوراة ومن خلال التعليقات أن القدس كان لها ملكها وكاهنها ولها معابدها. وأن اليبوسيين عرفوا مبكراً عبادة الإله الواحد خالق السموات والأرض. وأن إبراهيم عليه السلام ما كان ليتم دعوته لولا وجود الأرض الخصبة لتقبل هذه العقيدة التوحيدية.

ولكن إذا كان هذا هو حال النبي إبراهيم مع ملكي صادق وهو حال طيب. فكيف يعده الرب بتملك هذه الأرض أو الاستيلاء عليها؟

ونلاحظ أيضاً أنه لا يوجد أي تفكير لدى النبي إبراهيم بهذه الأرض. وهذا يدل على أن التوراة تقحم الوعد الإلهي إقحاماً واضحاً. وإبراهيم بريء من هذا الوعد لأن كاتب التوراة أراد أن يفرض الوعد فرضاً دون أي علاقة بين إبراهيم وهذا الوعد الزائف. والدليل هو أنه لم يصدر أي تعليق أو تصدق من قبل إبراهيم رداً على هذا الوعد المفترض.

في الإصحاح الخامس عشر من سفر التكوين تقول التوراة:

(فقال أبرام أيها السيد الرب ماذا تعطيني وأنا ماض عقيماً ومالك بيتي هو أليعازر الدمشقي. وقال أبرام أيضاً: إنك لم تعطني نسلاً وهوذا ابن بيتي وارث لي. فإذا كلام الرب إليه قائلاً: لا يرثك هذا بل الذي يخرج من أحشائك هو يرثك.

وفي نفس الإصحاح يرد: فقال لأبرام اعلم يقينا أن نسلك سيكون غريباً في أرض ليست لهم ويُستَعبدون لهم فيذلونهم أربع مائة سنة. ثم الأمة التي يُستعبدون لها أنا أدينها. وبعد ذلك يخرجون بأملاك جزيلة وأما أنت فتمضي إلى آبائك بسلام وتدفن بشيبة صالحة وفي الجيل الرابع يرجعون إلى ههنا.

ثم يأتي قول التوراة: في ذلك اليوم قطع الرب مع أبرام ميثاقاً قائلاً لنسلك أعطي هذه الأرض من نهر مصر إلى النهر الكبير نهر الفرات. القينيين والقنزيين والقدمونيين والحثيين والفرزيين والرفائيين والأموريين والكنعانيين والجرجاشيين واليبوسيين.

في الفقرة الأولى يشكو إبراهيم ربه لأن ليس له ولد يرثه. فيكلمه الله أن الذي يخرج من أحشائك هو يرثك. وهذا الحكم الإلهي ينطبق على كل من وُلد من صلب إبراهيم والأول الذي وُلد له من صلبه هو إسماعيل. وهذا يعني أن الذي يخرج من أحشائك هو يرثك هو إسماعيل أولاً وليس غيره.

وفي الفقرة الثانية: اعلم أن نسلك سيكون غريباً في أرض ليست لهم.

فإذا كان المقصود أن نسل إبراهيم الذين يسكنون فلسطين من بعده سيكونون غرباء فإن هذا يتناقض مع ميثاق الله مع إبراهيم من أن هذه الأرض ستكون له ولنسله من بعده وإذا كان المقصود أن أرض مصر ستكون أرض غربة لنسله فإن كاتب التوراة الذي دوّن توراته بعد إبراهيم بـ 1500 سنة كان يعرف أخبار بني إسرائيل في مصر واستعباد الفراعنة لهم لمدة طويلة من الزمن. ولكن سذاجته أوقعته في خطأ فاحش إذ قال إنهم يستعبدون أربع مائة سنة والواقع أن بني إسرائيل مكثوا في مصر حوالي 220 سنة لا أكثر، ويقول النص التوراتي: وفي الجيل الرابع يرجعون إلى ههنا.

فمن هو الجيل الرابع وكم عمر الجيل؟ إن المسافة التي تفصل بين إبراهيم والخروج من مصر هي 700 سنة والمسافة بين دخول بني إسرائيل إلى سيناء وتسربهم إلى فلسطين هي أكثر من 80 سنة. فما معنى كلامه في الجيل الرابع؟ إن هذا الكلام لا ينطبق على أي فترة أو زمن. ولا ينطبق على الأحداث التي جرت. ونعتقد أن كاتب التوراة جاهل إلى حد كبير ولم تسعفه مصادره الشفوية لأنها غير موثوقة وغير صحيحة.

ثم تقول الفقرة الثالثة لنسلك أعطي هذه الأرض من نهر مصر إلى النهر الكبير نهر الفرات والواقع أن نسل إبراهيم لم يمتلك هذه الأرض من مصر إلى العراق إلا في زمن الدولة الإسلامية. فإذا كان كلام التوراة يقصد إسماعيل فيكون هذا صحيحاً وإن لم يكن المقصود إسماعيل فإن ذلك يخالف مجريات الأحداث

ومعطيات التاريخ؛ لأنه لم يحدث وأن تملك بنو إسرائيل هذه الأرض ولن يتملكوها لأنها أرض عربية فيها الملايين من سكانها والذين قطنوها منذ فجر التاريخ.

ثم تورد التوراة أسماء قبائل عشر. ولا ندري أهي القبائل العربية التي تسكن ما بين الفرات والنيل ـ وهذا هو سياق التوراة ـ أم أنها تقصد هذه القبائل التي سكنت أرض فلسطين؟

على أية حال فإن قول التوراة أن الرب قطع عهداً مع أبرام بأن يملكه ولنسله الأرض الموجودة ما بين نهر مصر ونهر الفرات فيه من التجديف على الله الكثير. فالله سبحانه لا يقطع عهداً إلا مع الصالحين المؤمنين الداعين إلى الله. فهل كانوا بنو إسرائيل مؤمنين صالحين يدعون إلى عبادة الله أم أنهم وباعتراف توراتهم قتلة الأنبياء والمنحازون كلياً عن عبادة الله إلى عبادة الأوثان والأصنام والموتى؟

ويأتي في الإصحاح السادس عشر: وأما ساراي امرأة أبرام فلم تلد له. وكانت لها جارية مصرية اسمها هاجر فقالت ساراي هوذا الرب أمسكني عن الولادة أدخل على جاريتي لعلي أرزق منها بنين فسمع أبرام لقول ساراي فأخذت ساراي امرأة أبرام هاجر المصرية جاريتها من بعد عشر سنين لإقامة أبرام في أرض كنعان وأعطتها لأبرام رجلها زوجة له فدخل على هاجر فحبلت.

وعند هذا النص وقفات تحتاج لمراجعة التاريخ والتحليل الموضوعي للنصوص.

تقول التوراة إن لساراي جارية اسمها هاجر. والمصدر الوحيد الذي قال إن هاجر كانت جارية لساراي هو التوراة، فهل حقاً كانت هاجر جارية؟

إن التوراة التي كتبها كهنة اليهود أيام بابل أرادوا أن يميزوا بحس عنصري بين سيدة وجارية حتى يبنوا على هذه المقولة ما سيقولونه عن توريث إسحاق دون إسماعيل باعتبار إسماعيل ابن جارية، وابن الجارية لا يرث مع ابن السيدة. وهذا ما سنجده في إصحاحات توراتية قادمة.

والواقع أن هاجر لم تكن جارية لسارة. والمنطق يقول إن النبي إبراهيم لما أدرك أن زوجته لا تنجب تزوج من هاجر علّ الله يمن عليه بولد. وهذا ما حدث فعلاً وإرادة الله شاءت دون علم إبراهيم أن تنجب هاجر النبي إسماعيل ليكون له دور أساسي ومهم في بناء أول بيت لله في الأرض وليكون جد النبي العالمي محمد ﷺ. وهذا ما لم يرق للتوراتيين والمتهودين.

ومن الملاحظ أن النص التوراتي السابق أورد كلمة جارية ثلاث أو أربع مرات ليؤكد أنها جارية. والسياق لا يحتاج لتكرار الكلمة هذه لأن الفكرة واضحة وأشخاص الحدث واضحون. لكن التوراة التي كتبها الكهنة اليهود في السبي البابلي أرادوا أن يكون الحس العنصري سيدهم. فكرروا كلمة جارية لتعلق في الأذهان وتعلق على أنها دون مستوى ساراي.

وترى بعض المصادر أن هاجر أهداها فرعون مصر لإبراهيم كزوجة وليست كجارية ويُقال إن هاجر كانت قريبة فرعون ومن العائلة الحاكمة.

ومن المفارقات العجيبة أن اليهود في كل العصور وحتى هذه اللحظة لا يسمون بناتهم باسم هاجر والسبب هو ذلك الحس العنصري والحقد على أم إسماعيل. النبي الذي كان له الدور الأساسي في بناء البيت الحرام بينما المسلمون يسمون بناتهم بسارة وهاجر دون تفريق لأن المسلمين لا يفرقون بين الأنبياء ومن لهم صلة حسنة بهم.

ونعتقد أن هذا اللقب ـ جارية ـ الذي أطلق على زوجة النبي إبراهيم ليس إلا دساً من قبل كتبة التوراة الذين أرادوا أن يردوا على اضطهاد المصريين لهم ولأجدادهم عندما أذلهم فرعون قبل مجيء النبي موسى عليه السلام. ولأن هاجر حسب قول التوراة مصرية فقد وضحت نية الانتقام المعنوي قبل المادي من المصريين عن طريق الحط من قيمة هاجر المصرية.

وتقول التوراة في الإصحاح السادس عشر من سفر التكوين:

ولما رأت أنها حبلت صغرت مولاتُها في عينيها فقال ساراي لأبرام ظلمي عليك. أنا دفعت جاريتي إلى حضنك. فلما رأت أنها حبلتْ صغرتُ في عينيها. يقضي الرب بيني وبينك فقال أبرام لساراي هوذا جاريتك في يدك. افعلي بها ما يحسن في عينيك. فأذلتها ساراي فهربت من وجهها.

إن قصة التوراة هذه لا تعدو كونها حكاية من حكايات مؤلفي التوراة. ولم يدركوا أن تلفيق هذه القصة فيه إساءة لسارة زوجة النبي إبراهيم وإساءة مباشرة إلى إبراهيم نفسه. فهو يرى زوجته هاجر تحمل وكانت هذه إحدى أهم أمنياته فهل يعقل أن يقول لسارة هذه جاريتك افعلي بها ما يحلو لك. وهل يعقل أن تقوم سارة بإذلال هاجر وهي زوجة نبي؟ أين التربية النبوية من ذلك كله؟

وتقول التوراة: فوجدها ملاك الرب على عين الماء في البرية. على العين التي في طريق شور وقال يا هاجر جارية ساراي من أين أتيت وإلى أين تذهبين؟ فقالت أنا هاربة من وجه مولاتي ساراي. فقال لها ملاك الرب ارجعي إلى مولاتك واخضعي تحت يديها. وقال لها ملاك الرب تكثيراً أكثّر نسلك فلا يعد من الكثرة وقال لها ملاك الرب ها أنت حبلى فتلدين ابناً وتدعين اسمه إسماعيل لأن الرب قد سمع لمذلتك. وإنه يكون إنساناً وحشياً يده على كل واحد ويد كل واحد عليه وأمام جميع إخوته يسكن.

وفي هذا النص عدة مغالطات وعدة مفارقات.

وحسب قول التوراة فإن هاجر تهرب من سيدتها وتتجه إلى مكان اسمه شور في الطريق إلى مصر والأغرب أن ملاك الرب يطلب منها أن ترجع إلى سارة وتخضع لها وتسلمها نفسها وكأنه يوافق على إذلالها وهذا منافٍ للمنطق الديني ومنافٍ لمهمة ملاك الله.

أما بقية النص ففيه عدة أفكار: أولها تكثير نسل هاجر، وثانيها تسمية الجنين الذي في رحمها باسم إسماعيل.

أما الذي يحتاج لتفسير فهو قول التوراة إن إسماعيل يكون وحشياً وأنه أمام جميع إخوته يسكن. فإسماعيل في تلك اللحظة لم يكن له إخوة. وإسحاق جاء بعده بثلاثة عشر عاماً. وهناك حسب قول التوراة قصة تقول إن إبراهيم تزوج من امرأة كنعانية اسمها قطورة وأنجب منها ستة أولاد. وبالمحصلة فإن ملاك الرب في هذه الحادثة يعلم هاجر سراً غيبياً وهو أن أولاداً سيأتون لإبراهيم وأن إسماعيل ونسله سيسكنون أمام جميع إخوتهم. أما كيف فهذا غامض. لأن إسماعيل يسكن في مكة ونسله يتابع سكنه في مكة فما الذي يعنيه قول التوراة أمام جميع إخوته يسكن؟

وتقول التوراة إن إبراهيم عندما ولد ابنه إسماعيل كان ابن ست وثمانين سنة المهم أن التوراة لا تورد هل ذهبت هاجر إلى سيدتها سارة أم لا، والحقيقة هي لم تذهب إلى سارة وظلت بعيدة عنها. وليس هناك أية إشارة في التوراة.

وتبرز في الإصحاح السابع عشر عدة أمور نتابعها فيما يأتي:

تقول التوراة ولما كان أبرام ابن تسع وتسعين سنة ظهر الرب لأبرام وقال له أنا الله القدير. سر أمامي وكن كاملاً فأجعل عهدي بيني وبينك وأكثرك كثيراً جداً فسقط أبرام على وجهه وتكلم الله معه قائلاً أما أنا فهوذا عهدي معك وتكون أبا لجمهور من الأمم فلا يدعى اسمك بعد أبرام بل يكون اسمك إبراهيم لأني أجعلك أبا لجمهور من الأمم وأثمرك كثيراً جداً وأجعلك أمماً وملوك منك يخرجون وأقيم عهدي بيني وبين نسلك من بعدك في أجيالهم عهداً أبدياً لأكون إلهاً لك ولنسلك من بعدك وأعطي لك ولنسلك من بعدك أرض غربتك كل أرض كنعان ملكاً أبدياً وأكون إلههم.

في هذا النص إشارة إلى تغيير اسم أبرام إلى إبراهيم ولم ندر لماذا هذا التغيير؟ أما قولها أجعلك أبا لجمهور من الأمم. فهذا مما لا شك فيه خاصة أن العرب من نسل إسماعيل بلغوا في أعدادهم مبلغاً كبيراً جداً وكان منهم النبي محمد ﷺ. أما قولها أعطي لك ولنسلك من بعدك أرض غربتك أرض كنعان ملكاً أبدياً فهذه

إقحامات واضحة. وهذا الوعد لم يتحقق لإبراهيم لأنه مات دون أن يمتلك أرض كنعان. ثم إن التوراة تقول أرض غربتك، وهذا اعتراف بأن أرض كنعان أرض غربة بالنسبة لإبراهيم ونسله ـ وهذا حسب نص التوراة.

ويجدر بنا أن ننتبه إلى أن التوراة تريد من جانب خفي إقصاء النبي إبراهيم عن المنطقة. وتريد من كلامها هذا أن تقول إن إبراهيم غريب عن المنطقة وتقحم وعد الله له إقحاماً مفضوحاً.

ونحن نرى أن إبراهيم نبي مرسل ورحلاته هي من أجل الدعوة إلى الله الواحد الأحد وليس تنقّله من أجل مكسب أرض أو مال أو ما شابه ذلك من الأمور الدنيوية. وإبراهيم ابن المنطقة العربية. ولولا معرفة أهل أرض كنعان بمكانته لما استقبلوه واحتضنوه وقبلوا دعوته وارتضوا أن يعيش بينهم متنقلاً.

على كل حال النبوة لا تعرف أرض غربة من غيرها. لكن كاتب التوراة يريد أن يلصق بالله وبإبراهيم كلاماً مخادعاً تزييفياً عنصرياً. وأين إبراهيم من هؤلاء الذين كتبوا التوراة وادعوا زوراً وبهتاناً نسبهم إلى هذا النبي.

ونتوقف عند الإصحاح السابع عشر حيث نرى التوراة تقول:

(وقال إبراهيم لله ليت إسماعيل يعيش أمامك فقال الله بل سارة امرأتك تلد لك ابناً وتدعو اسمه إسحاق وأقيم عهدي معه عهداً أبدياً لنسله من بعده وأما إسماعيل فقد سمعت لك فيه. ها أنا أباركه وأثمره وأكثره كثيراً جداً اثني عشر رئيساً يلد وأجعله أمة كبيرة ولكن عهدي أقيمه مع إسحاق الذي تلده لك سارة في هذا الوقت من السنة الآتية) تكوين 17: 18 ـ 21.

فمن خلال هذا النص نرى أن إبراهيم ليس له ولد سوى إسماعيل. ومن حقه أن يقول ليت إسماعيل يعيش أمامك. أي تحت رعايتك وعينيك.

يقول رينهارد لاوت: (في جميع الأحوال وضع إبراهيم كل أمله في إسماعيل بعد الولادة ولنلاحظ أن كافة الأخبار اللاحقة لا تذكر أبداً أنه لم يكمل كلمة الرب

وبالمناسبة بقي إبراهيم على علاقة بهاجر وإسماعيل حتى بعد أن طردا فيما بعد لقد عاشا في فاران (جبال مكة) وإسماعيل وإسحاق هما اللذان يدفنان سوية أباهما وتلمح الرواية أحياناً كثيرة إلى أن إبراهيم كان يحب إسماعيل بشكل خاص ألم يكن بالنسبة إليه الابن الذي طال انتظاره؟ كان إبراهيم يتقدم أكثر فأكثر في السن ولم يكن يستطيع من منظور طبيعي أن يتوقع غيره)[1].

ولنعد إلى مناقشة النص التوراتي الذي تقدم:

وقال إبراهيم لله ليت إسماعيل يعيش أمامك. فقال الله بل سارة امرأتك تلد لك ابناً وتدعو اسمه إسحاق وأقيم عهدي معه عهداً أبدياً لنسله من بعده.

فإبراهيم يدعو ربه أن يحفظ ابنه إسماعيل فيرد الله عليه بأن سارة ستلد له ابناً يدعى إسحاق وهو الذي يقيم معه العهد ومع نسله.

فكأن الله سبحانه يفرق بين ولد وولد. بين نبي ونبي. لماذا يحجب الميثاق عن إسماعيل ويمنح لإسحاق. وما هي القاعدة الإلهية في هذا الميزان. فإسماعيل ولد إبراهيم ومن صلبه وإسحاق الذي سيأتي أيضاً سيكون ولده ومن صلبه، فلماذا يُعطى الميثاق لإسحاق وحده ولا يعطى أيضاً لإسماعيل؟ وهل عدالة الله تقتضي أن يمنح ولدٌ ميثاقاً ويُمنع عن الآخر؟ هل هذه هي العدالة الإلهية؟ حاشا لله أن يكون كذلك. لكن كتبة التوراة ألفوا هذه القصة تأليفاً على الله كي يقولوا أخيراً إن الله أعطى عهده لإسحاق ولنسله من بعده ظانين أنهم يحصرون ذلك بنسل إسحاق وهم يعقوب والأسباط الذين أُطلق عليهم بني إسرائيل فيما بعد.

إننا نلاحظ هذا الإقحام العنصري الواضح على الرغم من أننا نقول: ليس من أي فرق بين إسحاق وإسماعيل فكلاهما نبي. وكل منهما له دوره ورسالته ومكان دعوته.

---

(1) رينهارد لاوت: إبراهيم وأبناء عهده مع الله ص 113.

إن المهمة الأوضح هي مهمة إبراهيم وإسماعيل. فإسماعيل له الدور الأساسي مثله مثل أبيه في بناء أول بيت يعبد فيه الله وهو البيت الحرام. ونعتقد أن القرآن الكريم أوضح هذه المهمة الكبرى. وأبقى على آثارها إلى يومنا هذا وهي الكعبة. صحيح أن إسحاق نبي وله مهمة نشر الدعوة ولكن النص التوراتي وكذلك النص القرآني لا يقرن حياة إسحاق بمهمة كبرى مثل مهمة النبي إسماعيل.

ومن الطبيعي أن يكون إسماعيل هو المرافق لأبيه إبراهيم في بناء البيت الحرام لأنه الأكبر وهو الذي أصبح شاباً حين شرع إبراهيم بإقامة قواعد البيت بينما إسحاق كان صغيراً والفرق في السن بينه وبين أخيه إسماعيل هو ثلاثة عشر عاماً وهذا ليس بالعمر القليل.

وفي هذا الإصحاح أي السابع عشر تذكر التوراة أن الله سبحانه طلب من إبراهيم أن يختن نفسه وابنه إسماعيل وجميع من كان معه من العبيد والخدم الذين يشتغلون عنده وأصبح الختان سنة جارية من يومها إلى هذا اليوم.

ونأتي على الإصحاح الثامن عشر حيث تقول التوراة: إن ثلاثة رجال جاؤوا إلى إبراهيم وأحدهم بشّر سارة بأنها ستحمل. وكان الرجال الثلاثة قد جاؤوا ليعاقبوا أهل سدوم أي قوم لوط.

ويتبين أن هؤلاء الرجال الثلاثة ليسوا سوى ملكين والثالث هو الله يتجسد بهيئة رجل. لننظر ماذا تقول التوراة.

ثم قام الرجال من هناك وتطلعوا نحو سدوم وكان إبراهيم ماشياً معهم ليشيعهم. فقال الرب هل أخفي عن إبراهيم ما أنا فاعله. وقال الرب إن صراخ سدوم وعمورة قد كثر وخطبتهم قد عظمت جداً. أنزل وأرى هل فعلوا بالتمام حسب صراخها الآتي إلي وإلا فأعلم. وانصرف الرجال من هناك وذهبوا نحو سدوم وأما إبراهيم فكان لم يزل قائماً أمام الرب، فتقدم إبراهيم وقال أفتهلك البار مع الأثيم). ويجري حوار طويل بين إبراهيم والرب يترجى فيه إبراهيم ربه أن يقلع عن تدمير قوم لوط. لكن الرب يرفض

فيرسل الملكين إلى سدوم وعمورة ويدمرانها وبقية قصة تدمير قوم لوط تتشابه مع ما ورد في القرآن الكريم، وينقذ الله لوطاً من شر الدمار وتُقتل زوجته. ومن بعدها تغيب شخصية لوط ولم يعد لها أثر سوى ما لفقته التوراة من أن لوط زنا بابنتيه وأنجبتا منه ولدين وهذا من التشويهات التوراتية لأنبياء الله. وحاشا النبي أن يفعل ذلك ولكن التوراة تريد أخيراً أن تقول إن كل من عدا نسل إسحاق هو خائن سافل ولا يستحق سوى الرجم والموت عقاباً.

وسنعود للحديث عن لوط وقومه في سياق حديثنا عن إبراهيم عليه السلام وأحفاده في صفحات لاحقة من هذا الكتاب.

ننتقل مع التوراة إلى الإصحاح العشرين حيث تقول:

وانتقل إبراهيم من هناك إلى أرض الجنوب وسكن بين قادش وشور وتغرب في جوار وقال إبراهيم عن سارة امرأته هي أختي فأرسل أبيمالك ملك جوار وأخذ سارة فجاء الله إلى أبيمالك في حلم الليل وقال له ها أنت ميت من أجل المرأة التي أخذتها فإنها متزوجة ببعل ولكن لم يكن أبيمالك قد اقترب إليها).

ويحدث في القصة ما حدث في قصة سارة مع فرعون عندما قالت التوراة إنه ذهب إلى مصر بسبب الجوع.

ولكن هذه المرة لابد أن نسأل ماذا يريد أبيمالك من سارة وعمرها تجاوز التسعين؟ إن قول التوراة في هذه القصة ليس سوى كذبة كبرى لا يتحملها عقل ولا ضمير.

لننظر إلى الإصحاح الثامن عشر ماذا قالت التوراة:

(وكان إبراهيم وسارة شيخين متقدمين في الأيام.

(فضحكت سارة في باطنها قائلة: أبعد فنائي يكون لي تنعّم وسيدي قد شاخ.

(وفي الإصحاح السابع عشر قالت التوراة (ولما كان إبراهيم ابن تسع وتسعين سنة ظهر الرب لأبرام).

فهذه الأقوال تشير إلى أن سارة كانت عجوزاً هرمة. فما حاجة أبيمالك لها؟ على كل حال هذه قصة تشويه للنبي إبراهيم وتشويه للحقائق غير مقبولة على الإطلاق. والواقع حينما نفتش في الغاية من وراء إيراد هذه القصة الملفقة لا نجد سوى غاية واحدة وهي تشويه الحقيقة لا أقل ولا أكثر.

ويأتي في هذه الإصحاح قول التوراة: فصلى إبراهيم لله فشفى الله أبيمالك وامرأته وجواريه فولدن لأن الرب كان قد أغلق كل رحم لبيت أبيمالك بسبب سارة امرأة إبراهيم فلماذا عاقب الله أبيمالك وأهله ومملكته؟ ماذا فعل؟ حتى أغلق الله أرحام النساء ولماذا أمرض الله أبيمالك. وهل فعل شيئاً يستحق عليه العقوبة. إذا كانت سارة عجوز هرمة لا تستحق أن ينظر إليها كامرأة فهل فعلاً اشتهاها أبيمالك؟ أم أن القصة كلها تلفيق بتلفيق. لتقول التوراة إن سارة مصطفاة من الله. فعلى يديها تحدث المعجزات وغير ذلك؟

ونأتي إلى الإصحاح الحادي والعشرين من سفر التكوين فنراه يقول:

(ورأت سارة ابن هاجر المصرية الذي ولدته لإبراهيم يمزح فقالت لإبراهيم اطرد هذه الجارية وابنها لأن ابن هذه الجارية لا يرث مع ابني إسحاق. فقبح الكلام جداً في عيني إبراهيم لسبب ابنه فقال الله لإبراهيم لا يقبح في عينيك من أجل الغلام ومن أجل جاريتك. في كل ما تقول لك سارة اسمع لقولها لأنه بإسحاق يدعى لك نسل وابن الجارية أيضاً سأجعله أمة لأنه من نسلك) 21: 6 ـ 13.

ففي هذا النص ما هو غريب ومستهجن. سارة ترى إسماعيل يمزح. فجزاء هذا المزاح الطلب من والد إسماعيل وهو زوجها ووالد ابنها إسحاق أنها تطلب طرد إسماعيل وأمه.

ومن المفترض ـ وأعتقد أن هذا حدث فعلاً ـ أن تتقبل سارة مزاح إسماعيل ولا تفرط به. وهي تدرك أن إسماعيل هو السند لابنها الصغير إسحاق.

وإسماعيل كان آنذاك قد تجاوز الثالثة عشرة من عمره. أي أنه فتى مقبل على مرحلة الشباب. ومن المفترض أن خالته سارة تعتز بوجوده، لكن كاتب التوراة يرى أن إسحاق هو وريث والده ولا يحق لإسماعيل أن يرث أباه وكأنه ليس ابنه.

وتقول التوراة: (فقبح الكلام جداً في عيني إبراهيم بسبب ابنه) وهذا الكلام صحيح لأن بكر إبراهيم وسنده في شيخوخته هو إسماعيل وليس إسحاق لأن إسحاق ما يزال طفلاً صغيراً جداً.

والأغرب من هذا كله أن التوراة تقول على لسان الله: فقال الله لإبراهيم لا يقبح في عينيك من أجل الغلام. ثم تقول في كل ما تقول لك سارة اسمع لقولها:

فلماذا يأمره الله أن يسمع قول سارة. أهي أفضل من هاجر أم أنها من عرق متميز غير العرق الذي تنتمي له هاجر؟

وتقول التوراة: لأنه بإسحاق يدعى لك نسل، فهل لا يدعى لإبراهيم نسل بإسماعيل؟ أليس إسماعيل من صلب إبراهيم؟ فهذا الحس التوراتي المقيت والمتناقض والمرفوض عقلياً ودينياً واجتماعياً وهو حس عنصري غريب مفضوح ثم تقول التوراة (فبكر إبراهيم صباحاً وأخذ خبزاً وقربة ماء وأعطاهما لهاجر واضعاً إياهما على كتفها والولد وصرفها) بهذه البساطة يفرط إبراهيم بولده البكر الذي من الممكن أن ينفطر قلبه ويتقطع إذ لا يمكن أن يفعل أب بابنه مثل ما فعل إبراهيم. وهذا التلفيق التوراتي محض افتراء وتشويه للنبي إبراهيم.

وتقول التوراة: (فمضت وتاهت في برية بئر السبع ولما فرغ الماء من القربة طرحت الولد تحت إحدى الأشجار ومضت وجلست مقابله بعيداً نحو رمية قوس لأنها قالت لا أنظر موت الولد فجلست مقابله ورفعت صوتها وبكت فسمع الله صوت الغلام ونادى ملاك الله هاجر من السماء وقال لها مالك يا هاجر. لا تخافي لأن الله قد سمع لصوت الغلام حيث هو قومي احملي الغلام وشدي يدك به لأني سأجعله أمة عظيمة وفتح الله عينيها فأبصرت بئر ماء فذهبت وملأت القربة ماء

وسقت الغلام وكان الله مع الغلام فكبر وسكن في البرية وكان ينمو رامي قوس وسكن في برية فاران وأخذت له أمه زوجة من أرض مصر).

ففي هذا النص عدة نقاط هامة نتوقف عندها:

أولاً: حسب نص التوراة أن إسماعيل لم يكن غلاماً صغيراً فقد كان عمره تجاوز الثالثة عشر.

ثانياً: تقول التوراة إن هاجر تاهت في برية بئر السبع. وفي نفس الوقت تقول وسكن إسماعيل في برية فاران. وفاران هي جبال مكة حسب كل المصادر التاريخية والجغرافية. فكيف انتقل إسماعيل وأمه من برية بئر السبع إلى برية فاران؟ وحسب المصادر الإسلامية فإن إسماعيل كان غلاماً صغيراً عندما أخذته أمه وأبوه إلى وادي مكة وحادثة بئر زمزم تنفي أن هاجر أبصرت بئر ماء.

ثالثاً: تنتقل التوراة بالأحداث بسرعة وخلال أسطر يصبح إسماعيل شاباً وتزوجه أمه بفتاة مصرية.

أما كيف كبر ومن سكن في المنطقة التي كان فيها ثم وكيف تزوج من مصرية. هل أمه جلبت له هذه الزوجة من مصر أم أنه ذهب هو بنفسه إلى مصر ليتزوج؟ كل هذه التفاصيل لا تأتي عليها التوراة. لأن إسماعيل لا يهمها بقدر ما يهم إسحاق.

أما إذا عدنا إلى القرآن الكريم فسنرى كلاماً آخر يرفضه اليهود، وهو كلام الله الحق وهذا ما سندرسه في فصول لاحقة.

وفي الإصحاح الحادي والعشرين تقول التوراة: وغرس إبراهيم أثلاً في بئر سبع ودعا هناك باسم الرب الإله السرمدي وتغرب إبراهيم في أرض الفلسطينيين أياماً كثيرة) 32 ـ 33. وشجر الأثل لم يزرع في بئر السبع وإنما زرع في وادي مكة عندما ذهب إبراهيم بأمر من الله ليبني قواعد البيت. وشجر الأثل هو الذي يتناسب وبيئة وادي مكة وتقول التوراة: وتغرب إبراهيم في أرض الفلسطينيين.

فارض فلسطين أرض غربة بالنسبة له وحسب نص التوراة. فأين هو الوعد الكاذب الذي قالته التوراة؟

وفي الإصحاح الثاني والعشرين. فقال خذ ابنك وحيدك الذي تحبه إسحاق واذهب إلى أرض المريّا وأصعده هناك محرقة على أحد الجبال الذي أقول لك...

وتتحدث التوراة عن قصة ذبح إسحاق إلى أن يُفتدى بكبش من الغنم.

فهذه القصة هي للنبي إسماعيل بكل تأكيد والدليل على ذلك تناقض التوراة نفسها فهي تقول خذ ابنك وحيدك. وإسحاق ليس وحيد إبراهيم بل إن ابنه البكر هو إسماعيل، وظل وحيداً مدة ثلاثة عشر عاماً قبل أن يولد إسحاق.

ثم نلاحظ قولها: الذي تحبه إسحاق. فإسحاق مقحمة إقحاماً واضحاً. وكلمة تحبه لا تقتصر على إسحاق فإسماعيل في الأساس وقبل مجيء إسحاق هو المحبوب لدى إبراهيم ولا أحد ينافسه أو ينازعه هذا الحب.

ثم تقول التوراة إلى أرض المريا. والواقع أن المريا اختلطت على كاتب التوراة فهي في الحقيقة المروة وليست المريا. وهذا يدل على غباء وجهل كاتب التوراة. وتقول التوراة: ثم رجع إبراهيم إلى غلاميه فقاموا وذهبوا معاً إلى بئر السبع وسكن إبراهيم في بئر سبع.

والمقصود بالغلامين إسماعيل وإسحاق فمن أين جاء إبراهيم ليجمع إسماعيل وإسحاق. إسماعيل في جبال فاران. وإسحاق في الخليل. فمن أين اجتمعا وكيف؟ لكن الحقيقة أن إبراهيم كان على صلة بابنه إسماعيل. وإبراهيم يأخذ إسحاق إلى فاران ليلتقيا بإسماعيل ليس أكثر. وبئر سبع ليس لها معنى في هذا السياق. والعلاقة الحقيقية هي بين إبراهيم ووادي مكة الذي سيرفع فيه قواعد البيت.

ويأتي الإصحاح الثالث والعشرون ليقول:

وكانت حياة سارة مئة وسبعاً وعشرين سنة سني حياة سارة. وماتت سارة في قرية أربع التي هي حبرون في أرض كنعان فأتى إبراهيم ليندب سارة ويبكي عليها

وقام إبراهيم من أمام ميته وكلم بني حث قائلاً: أنا غريب ونزيل عندكم أعطوني مُلك قبر معكم لأدفن ميتي من أمامي فأجاب بنو حث إبراهيم قائلين له اسمعنا يا سيدي أنت رئيس من الله بيننا في أفضل قبورنا ادفن ميتك لا يمنع أحد منا قبره عنك حتى لا تدفن ميتك فقام إبراهيم وسجد لشعب الأرض لبني حث. وكلّمهم قائلاً: إن كان في نفوسكم أن أدفن ميتي من أمامي فاسمعوني والتمسوا لي من عِفرون بن صوحر أن يعطيني مغارة الحكفيلة التي له التي في طرف حقله بثمن كامل يعطيني إياها في وسطكم مُلك قبر. وكان يحضرون جالساً بين بني حث فأجاب عفرون الحثي إبراهيم في مسامع بني حث لدى جميع الداخلين باب مدينته قائلاً: لا يا سيدي اسمعني الحقل وهبتك إياه والحفارة التي فيه لك وهبتها لدى عيون بني شعبي وهبتك إياها ادفن ميتك فسجد إبراهيم أمام شعب الأرض وتقول التوراة: أعطيك ثمن الحقل...

وتقول: يا سيدي اسمعني أرض بأربع مئة شاقل فضة ليس بيني وبينك فادفن ميتك. فسمع إبراهيم لعفرون ووزن إبراهيم لعفرون الفضة التي ذكرها في مسامع بني حث أربع مئة شاقل فضة جائزة عند التجار.

وتقول التوراة: وبعد ذلك دفن إبراهيم سارة امرأته في مغارة حقل الحكفيلة أمام ممرا التي هي حبرون في أرض كنعان.

فهذا النص ينفي ما يسمى الوعد الإلهي لإبراهيم بأن تكون أرض كنعان له ولنسله من بعده نلاحظ ماذا تقول التوراة:

- قرية أربع التي هي حبرون أرض كنعان.
- أما ممرا التي هي حبرون في أرض كنعان.
- أنا غريب ونزيل عندكم.
- فقام إبراهيم وسجد لشعب الأرض لبني حث.
- فسجد إبراهيم أمام شعب الأرض.

فوجب الحقل والمغارة التي فيه لإبراهيم مُلك قبر من عند بني حث.

فهذه النصوص تؤكد أن للأرض أصحابها الكنعانيين وأن إبراهيم غريب عن هذه الأرض. وأن الحثيين قبيلة من الكنعانيين.

فكيف يتوافق هذا الاعتراف التوراتي بمقولة التوراة نفسها (لك ولنسلك من بعدك أعطي هذه الأرض) ملكاً أبدياً... فهذا الكلام في جهة والكلام الذي مر قبل قليل في جهة أخرى أين هذا من ذاك؟

لقد أشفق بنو حث على إبراهيم وتجاوبوا معه لأنهم كانوا مؤمنين موحدين وقد اعترفوا بأنه سيد محترم من قبل شعبهم وقد أكرموه ومنحوه الحقل والحفارة لكن التوراة تقول إنه دفع لعفرون أربع مائة قطعة من الفضة ثمن الحقل والحفارة لتقول إن هذا الحقل أصبح ملكاً لإبراهيم لا ينازعه فيه أحد. ويأتون اليوم ليقولوا إن هذا الملك ملك لأبينا إبراهيم ونحن أحق بورثته. وهذا كلام سخيف جداً لأنه ما الرابط بين إبراهيم وهؤلاء المتهودين من يهود الخزر. ثم إذا كان إبراهيم قد امتلك حقلاً هل يعني ذلك أنه امتلك أرض الكنعانيين؟ ما مساحة هذا الحقل؟ هل هو بضعة أمتار أم أنه أرض كنعان كلها؟ إن التوارتيين أشد تناقضاً من كل بني البشر لأنهم جبلوا على التحريف والتزييف والخداع.

يقول رينهارد لاوت: لهذا السبب يجب تفحص مخطوطات الكتاب المقدس. هل لا غش فيها ولا تحريف وهل هي كاملة ولابد من معاملة ما كُتب على يد الربيين بكل حذر وتحفظ[1].

في الإصحاح الرابع والعشرين يرد في التوراة: وشاخ إبراهيم وتقدم في الأيام وبارك الرب إبراهيم في كل شيء وقال إبراهيم لعبده كبير بيته المستولي على كل ما كان له: ضع يدك تحت فخذي فأستحلفك بالرب إله السماء وإله الأرض أن لا تأخذ زوجة لابني من بنات الكنعانيين الذين أنا ساكن بينهم.

---

(1) د. رينهارد لاوت: إبراهيم وأبناء عهده مع الله ص 180.

نلاحظ هذا النص المقيت والمشنَّع. فإبراهيم الذي أكرمه أهل كنعان وسجد لهم لأنهم منحوه مكان قبرٍ ليدفن زوجته سارة فيه يقول لرئيس عبيده أستحلفك أن لا تأخذ لابني زوجة من بنات الكنعانيين. وفي التوراة نفسها تقول إن إبراهيم تزوج من امرأة كنعانية اسمها قاطورة وأنجب منها ستة أولاد. فكيف يُجيز إبراهيم لنفسه الزواج من كنعانية ويحرم ذلك على ولده ثم لماذا لم يطلب من إسماعيل ألاّ يتزوج من غير أقربائه. لماذا سُمح لإسماعيل أن يتزوج مصرية ثم جرهمية؟

تقول التوراة: (وعاد إبراهيم فأخذ زوجة اسمها قطورة فولدت له زمران ويقشان ومدان ومديان ويشباق وشوحا).

وتقول التوراة في الإصحاح الخامس والعشرين: وهذه أيام سنّي حياة إبراهيم التي عاشها مئة وخمسة وسبعون سنة وأسلم إبراهيم روحه ومات بشيبة صالحة شيخاً وشبعان أياماً وانضم إلى قومه. ودفنه إسحاق وإسماعيل ابناه في مغارة الحكفيلة في حقل عفرون بن صوحر الحثي الذي أمام ممرا).

فهذا النص فيه مسألتان مهمتان. المسألة الأولى قول التوراة انضم إلى قومه. فما المقصود بقومه. الواقع ليس لإبراهيم قوم سوى قومه الذين تركهم في أوركلدان وهذا من أخطاء التوراة الواضحة. أما المسألة الثانية فهي قول التوراة: ودفنه إسحاق وإسماعيل ابناه. فهذا اعتراف توراتي بمكانة إسماعيل لدى والده ومكانته مع أخيه إسحاق. ولكن كيف جاء إسماعيل من برية فاران أي من مكة لا أحد يعرف ولا يعرف أحد من الذي أخبر إسماعيل بأن والده مريض وعلى وشك الموت أو أننا نقول ربما كان إبراهيم قد دعا إسماعيل إليه كما هي عادة الآباء والأبناء.

أما قول التوراة: وانضم إلى قومه. (تكوين 25/ 8).

لا شك في أن هذه العبارة تثير استغراب القارئ لأول وهلة ـ إلى قومه ـ أفلا يعني هذا إلى عبدة الأصنام إلى أولئك الذين من المحتمل أن يكون تارح واحداً منهم[1].

(1) المرجع السابق.

إلى هنا تتوقف الرواية التوراتية عن الحديث عن النبي إبراهيم مثلما تتوقف حياته وتتجه التوراة من بعدها إلى الحديث عن إسحاق ونسله يعقوب وعيسو والأسباط ولا يبقى من إبراهيم في التوراة شيء سوى وعد الله له ولنسله بتملك الأرض بموت إبراهيم ولا يمتلك الأرض التي وعده الله بها وسنرى أن إسحاق ويعقوب والأسباط يموتون ولا يمتلكون هذه الأرض. لأن التوراة تلفق على لسان الله وتكذب عليه وتقول إنه وعد. ووعد الله لا يخلف ولكنه هنا يخلف ويخلف مراراً وتكراراً وحاشا لله من ذلك كله.

الفصل الثاني
إبراهيم عليه السلام
في النص القرآني

حَفِل القرآن الكريم بالذكر المتواصل للنبي إبراهيم عليه السلام. فقد ورد ذكره في تسعة وستين موقعاً. وهو يأتي في المرتبة الثانية بعد موسى عليه السلام إذ ذكر النبي موسى في القرآن الكريم 136 مرة. وهناك من الأحداث التي يتكرر ذكرها كثيراً ويتكرر معها ذكر النبي موسى عليه السلام.

لن نتوقف عند تحليل ظاهرة التكرار لأسماء بعض الأنبياء فهذا شأن آخر لا يخص دراستنا ولكن ليكنْ في معلومنا أن القرآن الكريم لم يخص النبي موسى عليه السلام بسورة.

فهناك في القرآن سورة يونس وهود ويوسف وإبراهيم وطه ولقمان ويس وسورة محمد ونوح صلوات الله عليهم وسلامه.

وهناك سورة آل عمران ومريم وقريش وسبأ.

ولكن ليس هناك سورة باسم يعقوب أو إسحاق أو إسماعيل أو موسى أو داود أو سليمان أو هارون أو المسيح عيسى بن مريم عليهم السلام.

فإبراهيم عليه السلام خصصت باسمه سورة وورد ذكره كما قلنا في تسعة وستين مرة. وبعد البحث في دقائق السور القرآنية نرى أن قصة متكاملة يستطيع الإنسان أن يرتب أحداثها حسب آيات القرآن الكريم وفيها من القرائن ما يدل عليها ويدل على تسلسل زمنها المرتبط بالنبي إبراهيم عليه السلام.

فهناك ما يدل على جزء من القصة عندما كان إبراهيم فتىً. وهناك جزء يدل على كيفية إيمانه ونبوته. ومن ثم هجرته إلى الأرض المباركة. ثم هبة الله له بإسماعيل وإسحاق. وهناك جزء يتحدث عن علاقته بلوط. وهناك أجزاء تتحدث عن رفعه لقواعد البيت. وهناك أجزاء تتحدث عن سلوكه ومنزلته والأنبياء الذين من نسله. وهنا لابد أن نسير مع هذه الآيات مع قرائنها الدالة على الزمن والحدث والتاريخ والشخصية.

ولابد أن نقارن ذلك مع ما ورد في نصوص التوراة لنبين الحق من الباطل. ولابد أيضاً من مقارنة ذلك بمعطيات التاريخ والجغرافيا والدراسات الموثوقة الموثّقة.

زمن النبي إبراهيم عليه السلام

من الطبيعي أن لا يتحدث القرآن عن كل الأزمان والأوقات بأرقامها. فهو كتاب منزل من الله ليس للتاريخ وحده أو الجغرافيا أو الحساب. إنه كتاب عقيدة وتشريع بالدرجة الأولى.

لكن هذا الكتاب العظيم يعطينا مفاتيح التاريخ والجغرافيا وعلم النفس وكثيرٍ من العلوم التي اكتشفها وقال عنها العصر الحديث.

يقول تعالى: ﴿ أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَقَوْمِ إِبْرَاهِيمَ وَأَصْحَابِ مَدْيَنَ وَالْمُؤْتَفِكَاتِ ﴾(التوبة: 70).

فهذه الآية ترشدنا إلى أن أقواماً سبق وجودها قوم إبراهيم عليه السلام ومنها قوم نوح وعاد وثمود وأن أقواماً لحقت زمنياً قوم إبراهيم. ومنهم أصحاب مدين والمؤتفكات وأصحاب بني إسرائيل.

لقد أورد الله سبحانه قصة النبي نوح والطوفان بشكل واضح. وبين ماذا كان عليه قومه من عقيدة فاسدة وسلوك فاسد. ويحدثنا القرآن الكريم عن قوم عاد وقوم ثمود، وتبين لنا بعض الآيات ماذا كان عليه هذان القومان من الجبروت والقوة والطغيان فقوم عاد بنوا مدينة إرم ذات العماد التي لم يُر مثلها في البلاد. أما قوم صالح وهم قوم ثمود فقد تحدث عنهم القرآن بشكل مفصل أيضاً.

وقد أظهرت الدراسات والتفاسير والسير الأماكن التي يفترض أن هذه الأقوام قد سكنتها.

فسفينة نوح عليه السلام هبطت على جبل الجودي. فإذا كان الجودي جبلاً موجوداً في شمال العراق فإن من كان معه انتشروا في المنطقة وخاصة في العراق. التي سنرى أن إبراهيم ولد فيها وعاش طفولته وشبابه بين ثناياها.

وإذا كان هذا الجبل موجوداً في جنوب الجزيرة العربية فليس ذلك غريباً إذ أن قوم عاد وُجدوا في إرم ذات العماد. وإرم حسب المصادر الآثارية موجودة على الطرف الشمالي الفاصل بين الحجاز وعُمان واليمن.

وإذا كان الجودي موجوداً في القدس فليس غريباً أن نرى قوم ثمود يسكنون الأحقاف وهي منطقة تقع بين الجزيرة العربية والأردن.

على كل حال فإن القرآن لم يشر إلى مكان تواجد نوح عليه السلام. ولكن يبدو من خلال آيات القرآن الكريم التي ربطت بين نوح والأقوام التي جاءت بعده كعاد وثمود وقوم إبراهيم تدل على أنه لم يكن هو وقومه بعيدين عن المنطقة.

يقول تعالى: ﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ۚ قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ ...﴾ (الأعراف: 65).

ثم يقول تعالى: ﴿وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَصْطَةً ۖ فَاذْكُرُوا آلَاءَ اللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ (الأعراف: 69).

إذاً فإنّ قوم هود كانوا يعرفون ما حل بقوم نوح. فالله سبحانه استخلفهم من بعدهم وهذا يؤكد أنهم لم يكونوا بعيدين عنهم تاريخياً وجغرافياً. فإذا كان قوم هود قد تواجدوا في الأحقاف فإن قوم نوح لم يكونوا بعيدين عن هذه المنطقة.

ونعتقد أن هذه الأقوام. أي قوم نوح وعاد وثمود وقوم إبراهيم كانوا متواجدين في إطار إقليمي واحد. يعلمون ما حل ببعضهم بعضاً. ولعل الفواصل الزمنية ليست كبيرة بينهم.

وقد ربط القرآن الكريم أقوام نوح وهود وصالح ـ أي عاد وثمود ببعضها في عدة آيات قرآنية ليؤكد تقاربها زمنياً وجغرافياً.

فقال تعالى: ﴿أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ﴾ (التوبة: 70).

وقال تعالى: ﴿وَيَا قَوْمِ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِي أَنْ يُصِيبَكُمْ مِثْلُ مَا أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ﴾ (هود: 89).

ويقول تعالى: ﴿ وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودُ ﴾ (الحج: 42).

ويقول تعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَابُ الرَّسِّ وَثَمُودُ ﴾ (ق: 12).

ويقول تعالى: ﴿ مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِن بَعْدِهِمْ ﴾(غافر: 31).

فهذه الأقوام الثلاثة سبقت قوم إبراهيم عليه السلام. وهناك آيات عديدة تؤكد أن إبراهيم وقومه كانوا على علم بما جرى لتلك الأقوام.

وتجدر الملاحظة هنا أن التوراة لم تأت على ذكر قوم عاد أو قوم ثمود وفي سبيل الاستنتاج ليس أكثر أن التوراة تغافلت عن قصد الحديث عن هذين القومين. لأنهما لم يتصلا بإبراهيم أو لأنهما سبقا قوم إبراهيم. ولما كان المؤرخون يقولون إن عاداً وثمود هم العرب البائدة حسب تقسيماتهم للعرب. والتوراة بشكل عام لا تعترف على نبوات خارج نطاق السلسلة الإبراهيمية.

وقد يعترض قائل ليقول إذا لم تأت التوراة على ذكر عاد وثمود فلماذا جاءت على ذكر نوح وأولاده؟

الواقع أنها ذكرت قوم نوح معتمدة على تدعيم مقولة السلسلة البشرية المنتقاة، فنوح والدسام وسام أبو العبرانيين الذين جاء منهم إبراهيم حسب ما يتصورون. لذلك كان لابد من وجود هذه السلسلة لذلك ذكروا نوحاً وأولاده، قبل الحديث عن إبراهيم.

لقد أورد الإخباريون العرب ذكر أسماء عدد من القبائل العربية في شبه جزيرة العرب كانت لها حضارة قديمة ترجع إلى ما قبل الميلاد وقد ورد ذكر بعضها في القرآن الكريم ويقول الرواة إن هذه القبائل العربية هي من ضمن الطبقة الأولى.

ويتفق الإخباريون أن أقدم القبائل العربية هي: عاد وثمود ومعين وسبأ والعمالقة وطسم وجديس وأميم وعبيل وجرهم الأولى وحضورا.

ومن المتفق عليه أن جميع قبائل العرب البائدة هذه هي من أولاد إرم بن سام بن نوح وكانت موجودة حتى عهد إبراهيم عليه السلام الذي هو منها بصفته من القبائل الآرامية وقد سموا بذلك لرسوخهم في العروبة[1].

وقد ذكر المسعودي عن الأرمان أنهم سموا بذلك لأن عاداً لما هلكت قبل ثمود إرم فلما هلكت ثمود قيل لبقايا إرم إرمان[2].

وبصف ابن خلدون في مقدمته العرب العاربة والعرب البائدة باعتبارهما مصطلحين لمعنى واحد فيقول: إن العرب العاربة شعوب كثيرة وهم عاد وثمود وطسم وجديس وأميم وعبيل وعبد ضخم وجرهم وحضرموت وحضور والسلفات. وسمي هذا الجيل العرب العاربة[3].

وقحطان هو يقطان الذي ورد اسمه في التوراة وهو يقطان بن عابر بن شالح بن أرفكشاد بن سام بن نوح. وعلى ذلك فالقحطانيون هم أقدم عهداً من قوم موسى عليه السلام[4]. لذلك كله عندما تأتي آيات القرآن الكريم على ذكر هذه الأقوام خاصة عاد وثمود وتربطهما بمن جاء بعدهما وهم قوم إبراهيم فإن ذلك يدل على أن منطقة الجزيرة العربية هي مهد هذه الأقوام وقوم إبراهيم من الكلدانيين كانوا قد استوطنوا العراق بدءاً من الألف الثالثة ق.م وتماماً بعد أن هلكت أقوام عاد وثمود وما شابهها من الأقوام. ونعتقد أن عقيدة التوحيد التي نادى بها الأنبياء لم تكن منفصلة عن علم النبي إبراهيم بها. فهو موحد مثله مثل نوح وهود وصالح.

يقول تعالى: ﴿وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِۦ لَإِبْرَٰهِيمَ﴾ (الصافات: 83).

---

(1) أحمد سوسة. العرب واليهود في التاريخ ص 266 ـ 267.

(2) المسعودي. مروج الذهب ط دار الأندلس 1965 خ ا ص 3 ـ 52.

(3) ابن خلدون. المقدمة. جـ 2 طبعة بولاق سنة 1282هـ.

(4) أحمد سوسة ص 267 سبق ذكره.

وتأتي هذه الآية مباشرة بعد الحديث عن نوح عليه السلام. إذ يقول تعالى: ﴿سَلَٰمٌ عَلَىٰ نُوحٍ فِي ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٩﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٠﴾ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨١﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا ٱلْءَاخَرِينَ ﴿٨٢﴾ ۞ وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِۦ لَإِبْرَٰهِيمَ﴾ (الصافات: 79 ـ 83).

فإذاً دين إبراهيم هو دين نوح ودين النبيين هود وصالح.

من هم قوم إبراهيم؟

لم يسمّ القرآن الكريم قوم إبراهيم إنما تحدث عن وثنيتهم وعقائدهم وعاداتهم. وهناك بعض الآيات القرآنية التي تشير سلفاً إلى أن إبراهيم قد نجّاه الله ولوطاً إلى الأرض التي بارك الله فيها وهي أرض فلسطين. أما من أين جاء فلم يسم القرآن البلد الذي جاء منه.

لكن بعض الآيات التي تحدثت عن عبادة قوم إبراهيم تشير إلى أن معتقدات هؤلاء هي وثنية كانوا يعبدون الأصنام ولهم معابدهم. وآيات أخرى تشير إلى أهم العبادات التي كان عليها قومه وهي عبادة الشمس والقمر والكواكب.

والمتفق عليه بين المؤرخين والدارسين أن هذه العبادات كانت منتشرة في اليمن والعراق وبعض أجزاء بلاد الشام.

وعندما نراجع نصوص التوراة نرى أن إبراهيم كان كلدانياً والكلدانيون كانوا يعيشون في بابل وبعض المناطق الأخرى في العراق. وتسمي التوراة بلد النبي إبراهيم بأوركلدان وهم قبائل عربية يعود أصلها إلى الآراميين أي نسبة إلى إرم بن سام بن نوح. ربما يكون قول التوراة صحيحاً وربما قد يكون غير صحيح. ولكن المؤرخين والدارسين رجعوا إلى دراسة معنى اسم إبراهيم وإلى عبادة قومه والآثار الإخبارية عن سيرته وما تبقى من آثار مادية في العراق قالوا إن إبراهيم كان من الكلدانيين أي أنه كان عربياً من العرب الذين هاجروا من اليمن إلى بلاد الرافدين في الألف الثالث ق.م.

وهنا لابد من الإشارة إلى مسألتين:

1 ـ هل كان إبراهيم سامياً أم عربياً؟

2 ـ وهل كان قومه من الساميين أم العرب؟

الواقع أن التوراة وحدها انفردت بالقول أن سام هو ولد نوح لـذلك أطلـق على من انحدر من سام اسم الشعوب السامية.

لكن الباحثين الكبار أمثال الدكتور جواد علي وهو مـؤرخ لا يُبـارى رفـضوا مصطلح (سامي وشعوب سامية) وقال: سـأطلق لفظـة عـرب عـلى جميـع سـكان الجزيرة بغض النظر عن الزمان الذي عاشوا فيه والمكـان الـذي وجـدوا فيـه سـواء أكانوا سكنوا في الأقسام الشمالية أم في الأقسام الوسطى مـن جزيـرة العـرب أم في الأقسام الجنوبية منها. فكل هؤلاء في نظري عـرب وعـرب علـم لقوميـة خاصـة. ولعلني لا أكون مخطئاً أو مبالغاً إذا قلت إن الوقـت قـد حـان لاسـتبدال مـصطلح (سامي) و(سامية) بعربي وعربية فقد رأينا أن التسمية مصطنعة تقـوم عـلى أسـاس التقارب في اللهجات وعلى أساس فكرة الأنساب الواردة في التوراة وهـي فكـرة لا تستند عـلى أسـس علميـة وإنـما قامـت عـلى بواعـث عاطفيـة عـلى أسـاس حـب الإسرائيليين أو بغضهم لمن عرفوا من الشعوب. أما مصطلحنا العرب الذي يقابـل السامية فهو أقرب إلى العلم ففي العرب لهجات ولغات كـما بـين الـسامية لهجـات ولغات وليس ببعيد ولا بغريب عن المنطق والعلم أن نعـد الـسامية عربيـة لكونهـا ظهرت في جزيرة العرب[1].

لقد أكدت الدراسات التاريخية أن قوم إبراهيم هـم مـن العـرب الكلـدانيين وأن عصر النبي إبراهيم هـو عـصر القـرن التاسـع عـشر قبـل الميلاد. وقـد حـدد المسعودي الفترة الممتدة بين عهد إبراهيم الخليل وبين عهـد خـروج موسـى علـيهما السلام من مصر بخمس مئة وسبع وستين سنة وقد توصل العلـماء إلى تحديـد زمـن الخروج بالقرن الثالث عشر ق.م.

---

(1) د. جواد علي تاريخ العرب قبل الإسلام ج 2 ص 288 ـ 287.

ويتفق المؤرخون على أن مولد النبي إبراهيم كان في العراق وبعضهم قال إنه كان في أور كلدان والآخرون قالوا إن مولده كان في مدينة أوروك (الورقاء) ومصادر أخرى تقول إن مدينة كوثا كانت مسقط رأسه. وفيها طرح في النار. وأطلال مدينة كوثا موجودة إلى الآن وتسمى تل إبراهيم وإلى جانب التل مزار يعرف بمقام إبراهيم[1].

وإذا عدنا إلى آيات القرآن الكريم نرى بعض الحيثيات الدالة على عقيدة قومه ومعابدهم.

يقول تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ ءَازَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا ءَالِهَةً﴾ (الأنعام: 74).

ويقول تعالى: ﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ رَءَا كَوْكَبًا قَالَ هَٰذَا رَبِّى فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلْءَافِلِينَ ﴿٧٦﴾ فَلَمَّا رَءَا ٱلْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَٰذَا رَبِّى فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِى رَبِّى لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٧٧﴾ فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَٰذَا رَبِّى هَٰذَآ أَكْبَرُ فَلَمَّآ أَفَلَتْ قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ﴾ (الأنعام: 76 ـ 78).

إذاً فقوم إبراهيم وثنيون. والمظاهر الثلاثة التي رآها إبراهيم. وهي الكوكب والقمر والشمس هي مظاهر عبادة قومه. إذ كانوا يعبدون الشمس والقمر وكوكب المريخ الذي يظهر بلونه الأحمر الذي يظهر ويختفي.

من الواضح أن إبراهيم مكث ليلة كاملة وهو يفكر في الخالق. فرأى المريح أولاً ثم رأى القمر ثانياً وظل ينتظر فإذا بالقمر يختفي وتظهر الشمس لتضيء الدنيا. لذلك كانت هذه المظاهر الكونية قد خدعت قومه ولكنه بحسّه الإيماني أدرك أن الله ليس من صفاته الظهور والاختفاء بل من صفات الله عدم التحوّل والاختفاء أو التبدل. وليست الشمس والقمر والمريخ إلا من مظاهر خلق الله.

إن هذه العبادة الثلاثية كانت موجودة لدى الكلدانيين وقد دلت عليها الآثار التي وُجدت في بابل وكوثا وعدد من المدن المتواجدة في بلاد الرافدين.

---

(1) د. أحمد سوسة. العرب واليهود في التاريخ ص 431.

وإذا تتبعنا الآيات الكريمة التي تناولت بالحديث إبراهيم عليه السلام. وجدنا أن أولى الآيات تتحدث عن كونه فتى تمرد على عبادة الأوثان التي كان عليها أبوه وقومه.

يقول تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ ءَازَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا ءَالِهَةً﴾ (الأنعام: 74).

ويقول تعالى: ﴿قَالُوا۟ سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُۥٓ إِبْرَٰهِيمُ﴾ (الأنبياء: 60).

من هنا كانت البداية فإبراهيم عليه السلام فتى ما راقه أن يرى أباه يصنع التماثيل لأصنام يعبدها قومه. فعقله لم يحتمل أن يرى هذا الجهل والتخلف فسأل أباه مستنكراً أتتخذ أصناماً آلهة؟

ويظهر تماماً أن إبراهيم أراد أن يثبت يقينه وإيمانه فذهب إلى العراء وراح يراقب الكون علّه يرى ربه أو يلمس شيئاً يدله عليه.

فإذا به يرى الكوكب والقمر والشمس ويوقن أن الله ليس هذه الأشياء الآفلة إنما الله يحسه المؤمن بقلبه وعقله ويدل على وجوده المخلوقات الكونية جميعها عند ذلك اتخذ إبراهيم قراراً خطيراً وهو تحطيم أصنام قومه.

لننظر إلى آيات القرآن الكريم كيف تسلسلت الأحداث من خلالها:

يقول تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِۦ عَٰلِمِينَ ﴿٥١﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِىٓ أَنتُمْ لَهَا عَٰكِفُونَ ﴿٥٢﴾ قَالُوا۟ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا لَهَا عَٰبِدِينَ ﴿٥٣﴾ قَالَ لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٥٤﴾ قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا بِٱلْحَقِّ أَمْ أَنتَ مِنَ ٱللَّٰعِبِينَ ﴿٥٥﴾ قَالَ بَل رَّبُّكُمْ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلَّذِى فَطَرَهُنَّ وَأَنَا۠ عَلَىٰ ذَٰلِكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٥٦﴾ وَتَٱللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَٰمَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّوا۟ مُدْبِرِينَ ﴿٥٧﴾ فَجَعَلَهُمْ جُذَٰذًا إِلَّا كَبِيرًا لَّهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ ﴿٥٨﴾ قَالُوا۟ مَن فَعَلَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَآ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٩﴾ قَالُوا۟ سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُۥٓ إِبْرَٰهِيمُ ﴿٦٠﴾ قَالُوا۟ فَأْتُوا۟ بِهِۦ عَلَىٰٓ أَعْيُنِ ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ ﴿٦١﴾ قَالُوٓا۟ ءَأَنتَ فَعَلْتَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَا يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴿٦٢﴾ قَالَ بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا فَسْـَٔلُوهُمْ إِن كَانُوا۟ يَنطِقُونَ ﴿٦٣﴾ فَرَجَعُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ فَقَالُوٓا۟ إِنَّكُمْ أَنتُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٦٤﴾ ثُمَّ نُكِسُوا۟ عَلَىٰ

رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَٰؤُلَاءِ يَنطِقُونَ ﴿٦٥﴾ قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْئًا وَلَا يَضُرُّكُمْ ﴿٦٦﴾ أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾ قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ ﴿٦٨﴾ قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ ﴿٦٩﴾ وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَخْسَرِينَ ﴾ (الأنبياء: 51 ـ 70).

وتوضح الآيات الكريمة أن الله سبحانه منح إبراهيم رشداً واستقامة وإيماناً. ويأخذ إبراهيم بحوار أبيه وقومه فما هذه التماثيل التي يعكفون على عبادتها. وكان جوابهم. إن آباءهم كانوا يعبدونها. وهم على سيرة آبائهم. وهذا يعني أنهم في غاية الجهل والتعصب للآباء والأجداد دون تحكيم العقل. لذلك قال لهم لقد كنتم أنتم وآباؤكم في ضلال واضح مبين لقد تعجبوا من قوله واتهامه لهم أنهم في ضلال فقالوا له ساخرين: أجئتنا بالحق أم أنك تمزح فأجابهم إن ربكم ليس هذه الأصنام بل ربكم هو رب العالمين خالق السماوات والأرض وأنا بإيماني ويقيني شاهد على ذلك.

ويضمر إبراهيم في نفسه تحطيم هذه الأصنام ويضمر تحدياً عملياً. وعندما سنحت له الفرصة حمل معولاً ودخل معبدهم وراح يحطم الأصنام واحداً بعد الآخر وأبقى على كبير هذه الأصنام وذهب دون أن يراه أحد.

وعندما جاؤوا في اليوم التالي وجدوا أن كارثة حلت بمعبدهم وأصنامهم فتساءلوا عمن فعل ذلك. فقال أحدهم سمعنا فتى يذكرهم يقال له إبراهيم. فجلبوه وجرى حوار بينه وبينهم، وقال له بسخرية: إن كبير الأصنام غضب على الأصنام وحطمهم فأدهشوا وكادوا يتراجعون لولا أن كهنتهم أدركوا أنهم لا ينطقون وتأكدوا من أن إبراهيم هو الذي حطمهم لاسيما بعد أن بين لهم أن هذه الأصنام لا تستطيع الدفاع عن نفسها فكيف تضر وتنفع.

عندئذٍ قرروا إحراق إبراهيم. فأشعلوا النار في الحطب وألقوا إبراهيم بها فنصره الله وأفقد النار خاصية الحرق وأمرها الله أن تكون برداً وسلاماً وخرج إبراهيم من النار دون أن تحرقه فذهلوا مرة أخرى.

وهيأ له ربه أن يغادر قومه لأنهم لم يؤمنوا بدينه وكان أبوه مشركاً وعدواً لله فهجره إبراهيم وهجرهم.

ولكي يكون إبراهيم باراً بوالده رغم عناده حاول معه أن يهتدي فوعده أبوه وعداً غامضاً، لكنه تبين أن أباه لم يؤمن وكان قد استغفر له بناء على وعده الذي وعده إياه فلما تبين إبراهيم أن أباه عدو لله تركه وهاجر تنفيذاً لأمر ربه.

هذه الأحداث بدءاً بتحطيم الأصنام وانتهاءً بالهجرة لم تأت التوراة على ذكرها مطلقاً وعندما نراجع نصوص التوراة نرى أنها تقول هاجر إبراهيم مع أبيه باتجاه حرّان وليس هناك بين إبراهيم وأبيه أي مشكلة عقدية أو اجتماعية.

أما لماذا: فإن الجواب يكون كالتالي:

إن التوراة لا يهمها الناحية العقدية مطلقاً لذلك لم تشر إلى عبادة قوم إبراهيم وأبيه ثم إنها لا تريد أن تبرز أي خلاف بين إبراهيم أبيه لأنها تحاول أن تجعل النسب الإبراهيمي نقياً. فلا يجوز حسب رأيها أن يكون أبو إبراهيم كافراً ويكون إبراهيم مؤمناً. ثم هي لم تأت على ذكر الصراع العقدي بين إبراهيم وقومه وأبيه لتقول بالتالي إن إبراهيم ترك قومه بإرادته أو بوحي من الله إنقاذاً له من شرهم إنما تريد أن تقول إن هجرته جاءت تلبية لربه حيث سيمنحه أرضاً غير أرض قومه. لذلك جعلت أباه يرافقه في الهجرة وهذا كذب وادعاء.

لأن الله سبحانه بعد الآيات التي أوردناها يردفها بقوله: ﴿ وَنَجَّيْنَٰهُ وَلُوطًا إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا لِلْعَٰلَمِينَ ﴾ (الأنبياء: 71).

وعندما هاجر بأمر ربه أشار القرآن الكريم إلى لوط عليه السلام رفيقاً له لأنه آمن به وبعقيدته ولم يشر القرآن الكريم إلى زوجته سارة على عكس ما قالت التوراة.

أما المحطة الثانية التي استوقفتنا في آيات القرآن الكريم فهي:

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِى حَآجَّ إِبْرَٰهِـۧمَ فِى رَبِّهِۦٓ أَنْ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ ﴾ (البقرة: 258).

﴿ إِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّىَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ﴾ (البقرة: 258).

﴿قَالَ أَنَا أُحْيِۦ وَأُمِيتُ ۖ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِى بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ﴾ (البقرة: 258).

﴿فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ (البقرة: 258).

لقد حدثنا القرآن الكريم عن هذه القصة كدرس وعبرة لكنه لم يأت على ذكر هذا الرجل الذي آتاه الله الملك ولم يأت على ذكر اسمه وذكر المملكة التي كان يحكمها.

لقد وقع بعض المفسرين في خطأ موضوعي تاريخي وهو أن حرق إبراهيم بالنار تم بعد الجدال بينه وبين الذي آتاه الله الملك.

والواقع أن القصة التي وردت عن جدال إبراهيم وقومه ثم تحطيمه لأصنامهم هي غير القصة الواردة هنا، وهي مرحلة لاحقة.

والواقع أن التوراة لا تأتي على ذكر هذه القصة لا من قريب ولا من بعيد.

ويرى بعض المفسرين ومنهم ابن كثير رحمه الله أن النمرود هو الملك الذي جاء له إبراهيم.

يقول ابن كثير في البداية والنهاية: (قال المفسرون وغيرهم من علماء النسب والأخبار: وهذا الملك هو ملك بابل واسمه النمرود بن كنعان بن كوش بن سام بن نوح. قاله مجاهد.

وقال غيره نمرود بن فالح بن غابر بن صالح بن أرفخشد بن سام بن نوح.

وقد ذكر معمر بن زيد بن أسلم أن النمرود كان عنده طعام وكان الناس يفدون إليه للميرة فوفد إبراهيم في جملة من وفد للميرة فكانت بينهما هذه المناظرة ولم يعط إبراهيم من الطعام كما أعطى الناس بل خرج وليس معه شيء من الطعام. إلى آخر القصة[1].

(1) ابن كثير البداية والنهاية المجلد الأول الجزء الأول ص 141 ـ 142. دار الكتب العلمية ط 1 1994.

أما التوراة فتأتي على ذكر نمرود بقولها:

وبنو حام كوش ومصرايم وفوط وكنعان. وبنو كوش سبا وحويلة وسبتة ورعمة وسبنكا وبنو رعمة شبا ودان. وكوش ولد نمرود الذي ابتدأ يكون جباراً في الأرض الذي كان جبار صيد أمام الرب لذلك يقال كنمرود جبار صيد أمام الرب. وكان ابتداء مملكته بابل وأرك وأكّد وكلته من أرض شنعار. من تلك الأرض خرج آشور وبني نينوى ورحو بوت عَيرَ وكالح ورسن بين نينوى وكالح. هي المدينة الكبيرة) (تكوين: 10 ـ 6 ـ 13).

وأكثر المفسرين المسلمين يعتمدون على هذه الرواية حين يتحدثون عن نمرود.

وليس هناك من مصدر واحد لا يعتمد على هذه الرواية.

وهنا لا بد أن نتوقف عند نقطتين. الأولى تتناول الحديث عن الرجل الذي آتاه الله الملك وحاجّ إبراهيم. والنقطة الثانية هي مناقشة رواية التوراة.

فتسلسل الآيات القرآنية يدلنا على أن إبراهيم عليه السلام بعد أن أُلقي في النار خرج بإذن الله سالماً وأردف سبحانه آية بعد القصة تقول: ﴿ وَنَجَّيْنَٰهُ وَلُوطًا إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا لِلْعَٰلَمِينَ ﴾ (الأنبياء: 71).

وهذا يعني أن العلاقة بين إبراهيم وقومه انتهت عند هذه النقطة ولا ذكر لهذا الملك الذي حاجج إبراهيم في سياق هذه القصة.

والأرجح أن النمرود كان ملكاً على حرّان على الحدود العراقية السورية التركية وليس ملكاً على بابل. وما يزال بعض الآثار في تلك المنطقة تشير إلى وجود النمرود فيها إذ يوجد الآن في تلك المنطقة قلعة أو أطلال قلعة ومدينة تسمى باسم نمرود وفي نفس المنطقة يوجد مقام أو عدة مقامات للنبي إبراهيم.

وتقديرنا هو أن إبراهيم عليه السلام عندما ترك قومه ولبى نداء ربه بالهجرة إلى الأرض المباركة لابد أنه قد مرّ بحرّان وهي طريق القوافل الرسمي بين العراق

والشام في الشمال. وهناك سمع النمرود وحاشيته بنبوة إبراهيم وقصته مع قومه فاستدعاه وجادله. ثم تابع إبراهيم مسيرته الطويلة في سورية حتى وصل أخيراً إلى أرض كنعان (الأرض المباركة).

ولم يذكر نمرود في مصادر التاريخ على أنه ملك من ملوك بابل.

أما رواية التوراة فإن الجانب الإقصائي واضح فيها حيث تقول إن نمرود يعود بنسبه إلى حام. بينما الحاميون وحسب رواية التوراة هم المصريون والكوشيون والفوطيون. وهم سكان أفريقيا السوداء. فكيف يكون نمرود حامياً بينما هو موجود في أراضي أحفاد سام أي في الجزيرة العربية والعراق والشام. وقولها كان ابتداء مملكته بابل وأكّد فهذا كلام غير صحيح لأن بابل وأكد. كانت من أوائل المدن التي بناها الأكّاديون العرب المهاجرون من جنوب الجزيرة العربية إلى شمالها أي إلى العراق.

على أية حال لم تأت التوراة على ذكر علاقة ما بين نمرود والنبي إبراهيم مطلقاً. والمهم لدى التوراة أن نمرود هو ابن كنعان وحسب روايتها فإن كنعان من العرق الحامي وليس من العرق السامي العربي. وهذا يخالف منطق التاريخ والجغرافيا والأنساب. وهم يريدون من وراء ذلك قضية سياسية عرقية وهي أن الكنعانيين باعتبارهم أصحاب أرض فلسطين مغضوبون من الله ومن جدهم نوح لذلك يجب أن يُبادوا أو يُطردوا من أرض فلسطين. تقول التوراة: (فقال ملعون كنعان عبد العبيد يكون لإخوته وقال مبارك الرب إله سام وليكن كنعان عبداً لهم) (تكوين 9: 25 ـ 27).

فنلاحظ كيف تُبنى الحكايات في التوراة على حس عنصري خرافي.

وتبدأ قصة النبي إبراهيم مع الأرض المباركة بدءاً من الحديث عن مرافقة لوط له فقال تعالى: ﴿ وَنَجَّيْنَٰهُ وَلُوطًا إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا لِلْعَٰلَمِينَ ﴾.

ويقول تعالى: ﴿فَـَٔامَنَ لَهُۥ لُوطٌ وَقَالَ إِنِّى مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّىٓ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ (العنكبوت: 26).

ولم يأتِ القرآن على ذكر زوجته أكانت معه أم لم تكن بينما التوراة تورد أنها كانت معه في رحلته.

رحلة النبي إبراهيم إلى الأرض المباركة

من الطبيعي أن لا نجد تفصيلات لقصة رحلة النبي إبراهيم من بلده العراق إلى الأرض المباركة فلسطين في القرآن الكريم لأنه ليس كتاب تاريخ على عكس التوراة التي ألّف أسفارها عزرا وكهنة اليهود في بابل. لذلك لابد من العودة إلى المصادر التاريخية التي تحدثت عن هذه المرحلة.

يقول الدكتور أحمد سوسة أن الخبراء يتفقون على أن النبي إبراهيم سلك طريق الفرات الأيمن في رحلته من أور إلى حران. وهي نفس الطريق التي كانت تسلكها القوافل. فيكون قد قطع في هذه الرحلة 900 ك م بين أور وحران فمر أولاً بمدينة ماري العربية وهي عاصمة العموريين الذين ظهرت منهم السلالة البابلية الأولى والملك حمورابي الشهير وقد كانت هذه المدينة آنذاك تتمتع بأوج ازدهارها ثم ذهب منها إلى حاران (حرّان الحالية) وبعد ذلك غادر حران متوجهاً إلى دمشق بطريق تدمر ومنها إلى فلسطين قاطعاً مسافة 960 ك م. أخرى بين حرّان وكنعان. وبذلك يكون إبراهيم عليه السلام قد قطع مسافات شاسعة من الجزيرة العربية محتكاً بمدنها وقراها وسكانها ورؤساء عشائرها[1].

وإذا رجعنا إلى القرآن الكريم وجدنا الآية التي تقول: ﴿وَنَجَّيْنَـٰهُ وَلُوطًا إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِى بَـٰرَكْنَا فِيهَا لِلْعَـٰلَمِينَ﴾.

فإبراهيم سار من بلده إلى الأرض المباركة برعاية إلهية. ولولا هذه الرعاية لكان قد تعرض في هذه الرحلة إلى مشاكل كثيرة منها الصد والعناد والكفر

(1) د. أحمد سوسة. العرب واليهود في التاريخ ص 488.

الذي سيلاقيه من الأقوام التي مر بأراضيها. والواقع أن القرآن الكريم وكذلك التوراة لم يرد فيهما أنه تعرض لمثل هذه المشاكل في هذه الرحلة الطويلة التي استغرقت أشهراً وقد قطع فيها حوالي 1860 ك م ومر خلالها بمدن متحضرة وقرى ومضارب خيام.

يقول الدكتور سوسة: ففي سيرته هذه تتجلى لنا أبين التجلي الرسالة الروحية والإنسانية التي كان يحملها معه أينما حل. وفي سيرته هذه تبرز الرابطة القوية التي تربط العالم العربي بعضه ببعض بوشائج الثقافة واللغة والتراث الصحراوي الباعث على النبوغ والتسامي في سماء الروحانيات التي انبثقت منها النبوة العربية السامية التي تصل الخالق بالمخلوق. فكان والحالة هذه رسولاً حاملاً علم العروبة بين وادي الرافدين ووادي النيل)[1].

ويقول رينهارد لاوت: (لا شك في أن الأمر الذي أتى على إبراهيم بأن يغادر بلده كان بمثابة امتحان له إنه يترك أرضاً متحضرة ليذهب إلى أرض بربرية غير أن هذا الأمر كان في أساس أمل كبير أيضاً، أمل بأنه سيستطيع خدمة رب السماء وهو بعيد عن عبادة كثرة الآلهة فإذاً كان إبراهيم لم يعد يريد خدمة تلك الآلهة)[2].

ولكن يبدو أنه غاب عن ذهن رينهارد لاوت أن الله بأمره وعلمه نجّى إبراهيم واختار الأرض المباركة لتكون ملجأً له ويبدو أن هذه الأرض ستستقبله وتحضنه وترضى بعقيدة توحيدية هي أقرب إلى نفوس أهلها وأرواحهم.

ولنفكر قليلاً في هذه الاختبار. ولنسأل لماذا لم يختر الله سبحانه أرضاً أخرى غير أرض بيت المقدس أي الأرض المباركة. لمَ لمْ يختر حلب أو دمشق أو مصر لمَ لمْ يختر الحجاز مثلاً وجواب ذلك يدل عليه القرآن الكريم.

يقول تعالى: ﴿إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِى بَـٰرَكْنَا فِيهَا لِلْعَـٰلَمِينَ﴾.

---

(1) د. أحمد سوسة العرب واليهود في التاريخ ص 489.

(2) رينهارد لاوت: إبراهيم وأبناء عهده مع الله ص 74.

ويقول تعالى: ﴿مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَـٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ﴾.

فمباركة الله لهذه الأرض سابقة حتى على وجود النبي إبراهيم نفسه. وقد اختار سبحانه المسجد الأقصى ليكون محطة إسراء النبي ﷺ ومحطة المعراج.

وهذا الاختبار قديم قدم الخلق الأول. وقد ورد حديث عن رسول الله ﷺ.

في صحيح البخاري يقول: حدثنا موسى بن إسماعيل حدثنا عبد الواحد حدثنا الأعمش حدثنا التيمي عن أبيه قال سمعت أبا ذر رضي الله عنه قال: قلت يا رسول الله أي مسجد وضع في الأرض أول؟ قال: المسجد الحرام. قال: قلت ثم أي؟ قال: المسجد الأقصى قلت كم كان بينهما قال: أربعون سنة. ثم أينما أدركتك الصلاة بعدُ فصلّهِ فإن الفضل فيه[1].

فإذا كان البيت الحرام قد بني حسب المصادر الإسلامية منذ بدء الخلق وهناك رواية تقول إن الملائكة هي التي بنت البيت الحرام. ورواية أخرى تقول إن النبي آدم عليه السلام بعد نزوله من عرفات هو وزوجه أُمر ببناء الكعبة. ورواية ثالثة تقول إن شيث ابن النبي آدم هو من عمر المسجد الأقصى.

ما نقصد له أن الأرض المباركة باركها الله منذ القدم قبل وجود النبي إبراهيم عليه السلام. واختارها الله لتكون أرضَ نجاة لأسباب كثيرة منها أنها أرض مباركة ومنها ما يخص أسرار الله سبحانه وتعالى ولا يعرف البشر عنها شيئاً.

لم يصف القرآن الكريم رحلة النبي إبراهيم لكنّ أحداثاً وقعت معه ومع زوجته ومع النبي لوط تدل على أنه فعلاً وصل إلى الأرض المباركة.

لقد ذكر الله سبحانه إيمان لوط وقرنه بإبراهيم. لكنه لم يذكر أن زوجته كانت ترافقه وعلى هذا فقد قالت المصادر التوراتية والمصادر الإسلامية إن لوطاً هو ابن أخ النبي إبراهيم. أما سارة فلا نعرف عنها إلا أنها زوجة إبراهيم تحدث عنها القرآن فيما بعد. وخاصة عندما بُشرت بالحمل. حتى أن اسمها ذكرته التوراة دون غيرها.

---

(1) صحيح البخاري المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية 1971.

وحسب نص التوراة وغيره فإن سارة اتخذها إبراهيم زوجة بعد أن ذهب إلى حرّان وهذا أقرب إلى الصواب من قولهم أنها كانت أخته أو ابنة أخيه.

فصل جديد في حياة النبي إبراهيم عليه السلام

لاشك أن انتقال النبي إبراهيم إلى الأرض المباركة يشكل منعطفاً حاسماً في حياته إذ انتقل من جوّ وثني إلى جوّ توحيدي على الأغلب. وفي هذا الانتقال جرت أحداث حاسمة في حياة هذا النبي. منها ظهور النبي إسماعيل. ثم البشرى بأن زوجته سوف تنجب ولداً بإذن الله. وفيه أيضاً حدث حدثٌ عظيم وهو خسف الله لقوم لوط الذين ذهب لهدايتهم ولكنهم ظلوا على شذوذهم وفسادهم.

وإذا ربطنا الحدث الذي جرى لقوم لوط مع ما جاء في القرآن الكريم أدركنا أن أول الأمور والأحداث البارزة في حياة النبي إبراهيم في الأرض المباركة هي التالية:

يقول تعالى: ﴿ وَلَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ قَالُوا۟ سَلَٰمًا ۖ قَالَ سَلَٰمٌ ۖ فَمَا لَبِثَ أَن جَآءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ ﴿٦٩﴾ فَلَمَّا رَأَىٰٓ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً ۚ قَالُوا۟ لَا تَخَفْ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٠﴾ وَٱمْرَأَتُهُۥ قَآئِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَٰهَا بِإِسْحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسْحَٰقَ يَعْقُوبَ ﴿٧١﴾ قَالَتْ يَٰوَيْلَتَىٰٓ ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٌ وَهَٰذَا بَعْلِى شَيْخًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عَجِيبٌ ﴿٧٢﴾ قَالُوٓا۟ أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ ۖ رَحْمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيْكُمْ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ ۚ إِنَّهُۥ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ ﴿٧٣﴾ فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَٰهِيمَ ٱلرَّوْعُ وَجَآءَتْهُ ٱلْبُشْرَىٰ يُجَٰدِلُنَا فِى قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٤﴾ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّٰهٌ مُّنِيبٌ ﴿٧٥﴾ يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَآ ۖ إِنَّهُۥ قَدْ جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَ ۖ وَإِنَّهُمْ ءَاتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ ﴾ (هود: 69 ـ 76).

إذاً نحن هنا مع حدث وإنذار بحدث آخر. الحدث الأول: البشرى بحمل زوجة إبراهيم والإنذار يخص قوم لوط.

فالآية الأولى يقول تعالى إن رسله جاءت إبراهيم لتبشره بغلام فسلموا عليه فرد السلام ولشدة كرمه ظن أنهم ضيوف فذهب وأتى بعجل سمين وذبحه وقدم لحمه بعد أن أنضجه لهم.

ولما تنبه النبي إبراهيم إلى أنهم لا يأكلون ولا تمتد أيديهم إلى اللحم أدرك أنهم ليسوا بشراً فخاف خوفاً شديداً فقالوا له لا تخف إنا نحن رسل ربك جئنا لقوم لوط. وفي تلك اللحظة ضحكت امرأته وهي واقفة تسمع فبشروها بغلام فما صدقت فقالت كيف يتم ذلك وأنا عجوز وبعلي شيخ فأجابوها بأن هذا هو أمر من الله وهذا الأمر رحمة من الله سبحانه وتعالى وبركة على آل إبراهيم.

ثم اطمأن النبي إبراهيم وذهب عنه الخوف وراح يجادل الملائكة بأمر قوم لوط ويترجاهم أن لا يُدمروا لكن الملائكة قالت له: إن أمر الله قد تم ولا رادّ له وقد طلبوا منه أن يعرض عن هذا الأمر لأنه لن يغير أمر الله.

وقد دلت الآية إن إبراهيم لحليم أواه منيب على أنه صاحب حكم كبير فهو لا يُريد أن يعاقب قوم لوط فربما يهتدون. ولكن أمر الله وعلمه ليس كعلم البشر حتى لو كانوا من الأنبياء.

وهنا يجدر بنا أن نتوقف عند مقارنة النص التوراتي بالنص القرآني لنتبين الفروق الكبيرة.

فالتوراة تقول عن الرسل إنهم كانوا ثلاثة ولكنّ واحداً منهم كان الله قد تجسّد وخاطب النبي إبراهيم.

تقول التوراة (ثم قام الرجال من هناك وتطلعوا نحو سدوم وكان إبراهيم ماشياً معهم ليشيّعهم فقال الرب هل أخفي عن إبراهيم ما أنا فاعله... أنزل وأرى هل فعلوا بالتمام حسب صراخها الآتي إلي وإلاّ فأعلم... وأما إبراهيم فكان لم يزل قائماً أمام الرب فتقدم إبراهيم وقال أفتهلك البار مع الأثيم) التكوين. ويجري حوار طوال بين الرب وإبراهيم.

ففي هذه النص تخريف ووثنية لأنه يجسد الله كرجل حسب زعم التوراة.

وفي النص التوراتي تقول إن الرجال أكلوا وشبعوا من لحم العجل الذي ذبحه إبراهيم بينما النص القرآني يقول إن أيديهم لم تمتد إلى الأكل. فأوجس إبراهيم خيفة.

والواقع كما هو معروف بأن الملائكة أجسام نورانية لا تأكل ولا تشرب ولو كانت تأكل مثلما زعمت التوراة فإنها ستخرج الغائط وحاشا أن تكون الملائكة مثل ما قالت التوراة لأن الله خلقها من نور ولا تنطبق طبيعة خلقها على طبيعة خلق البشر.

وقد ذُكرت هذه القصة أكثر من مرة في القرآن الكريم:

يقول تعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ قَالُوٓاْ إِنَّا مُهْلِكُوٓاْ أَهْلِ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ إِنَّ أَهْلَهَا كَانُواْ ظَٰلِمِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطًا قَالُواْ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَن فِيهَا لَنُنَجِّيَنَّهُۥ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ﴾ (العنكبوت: 31 ـ 32).

ويقول تعالى: ﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْمُكْرَمِينَ ﴿٢٤﴾ إِذْ دَخَلُواْ عَلَيْهِ فَقَالُواْ سَلَٰمًا قَالَ سَلَٰمٌ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ ﴿٢٥﴾ فَرَاغَ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ فَجَآءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ ﴿٢٦﴾ فَقَرَّبَهُۥٓ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴿٢٧﴾ فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُواْ لَا تَخَفْ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٍ ﴿٢٨﴾ فَأَقْبَلَتِ ٱمْرَأَتُهُۥ فِى صَرَّةٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ ﴿٢٩﴾ قَالُواْ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٠﴾ قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٣١﴾ قَالُوٓاْ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ ﴿٣٢﴾ لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن طِينٍ ﴿٣٣﴾ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ﴾ (الذاريات: 24 ـ 34).

ويقول تعالى: ﴿وَنَبِّئْهُمْ عَن ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٥١﴾ إِذْ دَخَلُواْ عَلَيْهِ فَقَالُواْ سَلَٰمًا قَالَ إِنَّا مِنكُمْ وَجِلُونَ ﴿٥٢﴾ قَالُواْ لَا تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٍ ﴿٥٣﴾ قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِى عَلَىٰٓ أَن مَّسَّنِىَ ٱلْكِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ ﴿٥٤﴾ قَالُواْ بَشَّرْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْقَٰنِطِينَ ﴿٥٥﴾ قَالَ وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِۦٓ إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ ﴿٥٦﴾ قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٥٧﴾ قَالُوٓاْ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ﴾ (سورة الحجر: 51 ـ 58).

فإذا قرأنا هذه المواقف تكتحل صورة هذا الحدث تكاملاً واضحاً. ولعل تكرار القصة في مضمونها الواحد وتفصيلاتها المختلفة هو ما يجعلها تتكامل هذا التكامل.

متى وُلد إسماعيل عليه السلام؟

وردت قصة البشرى لزوجة النبي إبراهيم وقصة الملائكة الذين جاؤوا ليدمروا قوم لوط ومن الملاحظ أننا لم نر أي وجود لإسماعيل عليه السلام في هذه الحوادث. فأين كان إسماعيل في هذه الأثناء. ومتى وُلد ومتى شبّ وما هي مجريات الأحداث التي تخصه باعتباره ابن النبي إبراهيم البكر لقد رأينا أن التوراة تتحدث عن زوج إبراهيم هاجر وحملها بإسماعيل ثم ولادتها وتقول التوراة إن ولادة إسماعيل جاءت قبل إسحاق بثلاثة عشر عاماً. وأن النبي إبراهيم لبى أوامر زوجته بطرد هاجر وابنها إلى منطقة تسمى بئر سبع وقد حدث ذلك مرتين حسب نص التوراة، وتقول التوراة إن إسماعيل سكن في برية فاران وبرية فاران هي مكة وما حولها. لكن التوراة لا تقول إن فاران هي منطقة مكة لتبعد قصة رفع قواعد البيت من قبل إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام.

ولنا أن نتوقف مع آيات القرآن الكريم التي تتحدث عن إبراهيم وإسماعيل فهي تخبرنا ما لم تخبرنا به التوراة.

لعل أول الآيات في هذا السياق قوله سبحانه: ﴿وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴿٩٩﴾ رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١٠٠﴾ فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ ﴿١٠١﴾ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَىٰ فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَىٰ ۚ قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ۖ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ ﴿١٠٢﴾ فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ ﴿١٠٣﴾ وَنَادَيْنَاهُ أَن يَا إِبْرَاهِيمُ ﴿١٠٤﴾ قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا ۚ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿١٠٥﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ ﴿١٠٦﴾ وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ ﴿١٠٧﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ ﴿١٠٨﴾ سَلَامٌ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ ﴿١٠٩﴾ كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿١١٠﴾ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ ﴿١١١﴾ وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ﴾ (الصافات: 99 ـ 112).

من الواضح أن إبراهيم عليه السلام ترك قومه وذهب إلى الأرض المباركة ودعا ربه أن يهبه من الصالحين أولاداً. فاستجاب الله له ووهب له إسماعيل. ثم بعد مدة وهب الله له إسحاق.

ويبين ذلك الآية الكريمة: ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى وَهَبَ لِى عَلَى ٱلْكِبَرِ إِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ ﴾(إبراهيم: 39).

وقد اختصرت الآيات الكريمة من سورة الصافات قصة النبي إبراهيم مع ابنه إسماعيل.

دعا الله أن يهبه من الصالحين.

فبشره الله بغلام حليم.

لما بلغ معه السعي في البيت الحرام قال له إني أرى في المنام أني أذبحك أجابه ابنه الحليم افعل ما تؤمر.

فلما بدأ بفعل الذبح فداه الله بكبش عظيم بعد أن خاطبه الوحي بأنك صدقت الرؤيا وبعد حادثة الرؤيا والنية بذبح ابنه إسماعيل قال تعالى: ﴿ وَبَشَّرْنَٰهُ بِإِسْحَٰقَ نَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾.

ويتضح أن إسماعيل هو بكر النبي إبراهيم وأن الرؤيا والنية بالذبح تمت مع فتى يعرف كيف يجيب أباه. بمعنى أن إسماعيل كان واعياً ولم يكن إسحاق عليه السلام قد وُلد بعد.

القرآن الكريم لم يأت على ذكر وضع إسماعيل مفصلاً. فالنبي إبراهيم يقول حسب النص القرآني: ﴿رَّبَّنَآ إِنِّىٓ أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِى بِوَادٍ غَيْرِ ذِى زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ ٱلْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجْعَلْ أَفْـِٔدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهْوِىٓ إِلَيْهِمْ وَٱرْزُقْهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ﴿٣٧﴾ رَبَّنَآ إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِى وَمَا نُعْلِنُ ۗ وَمَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴿٣٨﴾ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى وَهَبَ لِى عَلَى ٱلْكِبَرِ إِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ ۚ إِنَّ رَبِّى لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ﴿٣٩﴾ رَبِّ ٱجْعَلْنِى مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ وَمِن ذُرِّيَّتِى ۚ رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَآءِ ﴾ (إبراهيم: 37ـ39).

ولم يأت القرآن على ذكر زوجة النبي إبراهيم سارة التي دفعت بهاجر بعيداً عنها مع ابنها إسماعيل ولم تذكر أن إبراهيم سمع لسارة وحقق رغبتها بطردها مع ابنها.

ومن الطبيعي أن نتوقف هنا عند مسائل:

1ـ تلفيق التوراة أن إسحاق هو الذبيح

2ـ تلفيق التوراة بأن المكان الذي وضع فيه إسماعيل هو غير وادي مكة

3ـ إنكار اليهود لبناء الكعبة ووادي مكة وكل ما يلحق بالحج

4ـ عدم ذكر مكانة أم إسماعيل حيث اعتبروها جارية لسيدتها سارة.

بينما ما يزال المسلمون يسعون بين الصفا والمروة سيراً على سنة أولى من نفذها أم إسماعيل.

والمؤكد أن إسماعيل هو الذبيح وذلك لِما نصّت عليه آيات القرآن الكريم.

فالآيات في سورة الصافات والتي مرت معنا قبل صفحات تدل على أن إسماعيل هو الذبيح ﴿ فَبَشَّرْنَٰهُ بِغُلَٰمٍ حَلِيمٍ ﴿١٠١﴾ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعْىَ قَالَ يَٰبُنَىَّ إِنِّىٓ أَرَىٰ فِى ٱلْمَنَامِ أَنِّىٓ أَذْبَحُكَ ﴾.

وهذا البيان جاء بعد دعاء إبراهيم عليه السلام ﴿ رَبِّ هَبْ لِى مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾ وهذا يدل على أن إبراهيم لم يكن لديه أولاد قطعاً.

والدليل الآخر هو الآية الكريمة التي جاءت بعد إيراد القصة: ﴿ وَبَشَّرْنَٰهُ بِإِسْحَٰقَ نَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾.

فالبشرى بإسحاق جاءت بعد قصة الذبيح وهو إسماعيل.

يقول ابن عباس: (ثم لما أمر بعد هذا كله بذبح ولده هذا الذي قد أفرده عن أمر ربه وهو بكره ووحيده الذي ليس له غيره أجاب ربه وامتثل أمره وسارع إلى طاعته ثم عرض ذلك على ولده ليكون أطيب لقلبه وأهون عليه من أن يأخذه قسراً ويذبحه قهراً. فبادر الغلام الحليم سر والده الخليل إبراهيم فقال يا أبت افعل ما تؤمر ستجدني إن شاء الله من الصابرين). ولما هم بذبحه نودي من الله عز وجل أن يا إبراهيم قد صدقت الرؤيا، أي قد حصل المقصود من اختبارك وطاعتك ومبادرتك إلى أمر ربك).

قال مجاهد: فذبحه (الكبش) بمنى وقال عبيد بن عمير ذبح بالمقام.

ويقول ابن كثير: ومن قال إنه إسحاق إنما هو من الإسرائيليات وكتابهم فيه تحريف ولا سيما هاهنا قطعاً لا محيد عنه. فإن عندهم أن الله أمر إبراهيم أن يذبح ابنه الوحيد وفي نسخة من المعرّبة (التوراة) أن بكره إسحاق. وإسحاق هاهنا مقحمة مكذوبة مفتراة لأنه ليس الوحيد ولا البكر. ذاك إسماعيل وإنما حملهم على هذا حسد العرب فإن إسماعيل أبو العرب الذين يسكنون الحجاز الذين منهم رسول الله ﷺ وإسحاق والد يعقوب وهو إسرائيل الذي ينتسبون إليه فأرادوا أن يجروا هذا الشرف إليهم فحرفوا كلام الله وزادوا فيه وهم قوم بهت ولم يقروا أن الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء وما أحسن ما استدل محمد بن كعب القرظي على أنه إسماعيل وليس بإسحاق من قوله فبشرناه بإسحاق ومن وراء إسحاق يعقوب قال فكيف تقع البشارة بإسحاق وأنه سيولد له يعقوب ثم يؤمر بذبح إسحاق وهو صغير قبل أن يولد له، لا يكون لأنه يناقض البشارة المتقدمة[1].

النبي إبراهيم وبناء الكعبة

من الواضح في القرآن الكريم أن مهمة النبي إبراهيم الأساسية هي رفع قواعد البيت الحرام في مكة.

ومن الواضح أيضاً أنه عندما وضع زوجته وابنه إسماعيل بوادٍ غير زرع عند بيت الله المحرم. كان قد أوحيَ له باختيار هذا المكان. ولم يكن هذا عملاً عفوياً إذ كان من الممكن أن يضع زوجته وابنه في أي مكان آخر لو كان القصد إبعادهما عن سارة كما تقول التوراة.

ومن الواضح في الآيات الكريمة أن إبراهيم عليه السلام كان يعرف مسبقاً وعن طريق الوحي أن هذا الوادي ـ أي وادي مكة ـ يحوي البيت الحرام الذي كما قيل قد بنته الملائكة أو بناه أبو البشر آدم عليه السلام.

---

(1) ابن كثير: البداية والنهاية المجلد الأول ص 149 ـ 150.

يقول تعالى: ﴿رَّبَّنَآ إِنِّيٓ أَسۡكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيۡرِ ذِي زَرۡعٍ عِندَ بَيۡتِكَ ٱلۡمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ (إبراهيم: 37).

على أية حال فإن المصادر جميعها الدينية وحتى التاريخية تشير إلى أن النبي إبراهيم توجه بأمر من الله من الأرض المباركة باتجاه وادي مكة. ومن المفترض أن تستغرق الرحلة عشرات الأيام.

ومن المفترض أيضاً أن النبي إبراهيم الذي هاجر بأمر ربه من العراق إلى الشام إلى الخليل خبر المنطقة تماماً وعرف قبائلها العربية المنتشرة فيها. والرحلة من الخليل إلى الجنوب تستدعي المرور من جوار البحر الميت ثم تتجه جنوباً إلى يثرب ومن ثم إلى مكة.

ومن الطبيعي والمنطقي وحسب نص القرآن ونص التوراة كان يعرف النبي إبراهيم مكان قوم لوط وهو البحر الميت وهو أيضاً ليس بعيداً عن الخليل. والطريق إلى مكة سيكون على طرق القوافل القديمة وعلى الأغلب هو الطريق الساحلي بالنسبة للبحر الأحمر.

وعندما نراجع آيات القرآن الكريم ندرك أن النبي إبراهيم لم يؤمر برفع قواعد البيت إلا بعد أن أصبح ابنه إسماعيل شاباً يستطيع معاونته في نقل الحجارة والأتربة التي سترفع منها قواعد البيت.

وإذا عدنا إلى بعض ما قالته التوراة وإذا ربطنا الأحداث من خلال آيات القرآن الكريم ندرك أن إسحاق عليه السلام كان قد وُلد عندما ذهب النبي إبراهيم إلى وادي مكة لإقامة قواعد البيت، إذ أن الفرق بين إسماعيل وإسحاق هو ثلاثة عشر عاماً وإسماعيل يبدو لنا شاباً حين عاون والده في إقامة قواعد البيت الحرام.

على ذلك نستنتج أن سارة زوجة النبي إبراهيم كانت على علم بذهاب زوجها إلى وادي مكة وعلى علم بما كلفه به الله من إقامة قواعد البيت العتيق.

إذ أن غيابه الطويل في هذه الرحلة إلى مكة ثم عودته إلى الخليل لابد أن يكون معروفاً ومدرَكاً من قبل زوجته.

ونعتقد أن إسحاق عليه السلام عندما كبر وصار يعي علاقته بأبيه الشيخ أصبح يعرف أيضاً أن أباه قد بنى بيتاً لله في وادي مكة وأن الحج إلى هذا البيت كان قد أقِر. ولابد مستقبلاً من أن يذهب إسحاق ويعقوب وبقية الأنبياء لتأدية فريضة الحج التي سُنت من الله سبحانه وأول من نفذها هو أبو الأنبياء إبراهيم عليه السلام.

كيف تعرف النبي إبراهيم على أساسات البيت الحرام وخاصة الكعبة؟

لم يرد في القرآن الكريم كيفية تعرّف النبي إبراهيم على أساسات الكعبة وإنما ورد ذلك في أحاديث المصطفى ﷺ.

قبل أن نجيب عن هذا السؤال لابد من القول إن إبراهيم عليه السلام كان يعرف أنه وضع من ذريته عند بيت الله المحرم. وأن نبع زمزم هو في مكان قريب جداً من هذا البيت وهذه طبعاً حكمة إلهية فالكعبة لا تبعد عن بئر زمزم سوى خمسة عشر متراً ولكن تحديد أساسيات هذا البيت أو الكعبة لم يتم بجهد إبراهيم عليه السلام.

وهنا لابد من العودة إلى أحاديث الرسول ﷺ. وروايات الرواة المسلمين الثقات الذين تناولوا هذه المسألة.

يقول تعالى: ﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ﴾ (الحج: 26).

ويقول تعالى: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ﴾ (آل عمران: 96).

يورد ابن كثير رحمه الله قوله: من ذلك ما قال السدي لما أمر الله إبراهيم وإسماعيل أن يبنيا البيت ثم لم يدريا أين مكانه حتى بعث الله ريحاً يقال لها الحجوج لها جناحان ورأس في صورة حية فكنست لهما ما حول الكعبة على أساس البيت الأول واتّبعاها بالمعاول يحفران حتى وضعا الأساس وذلك حين يقول تعالى: (وإذ بوأنا لإبراهيم مكان البيت. فلما بلغا القواعد بنيا الركن قال إبراهيم لإسماعيل يا بني اطلب لي حجراً حسناً أضعه ههنا قال يا أبت إني كسلان لعب قال علي ذلك فانطلق وجاءه جبريل بالحجر الأسود)[1].

(1) ابن كثير: البداية والنهاية ص 155 جـ 1.

ويقول تعالى: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾(البقرة: 127)، فإبراهيم وإسماعيل في غاية الإخلاص والطاعة لله عز وجل وهما يسألان من الله السميع العليم أن يتقبل منهما ما هما فيه من الطاعة العظيمة والسعي المشكور ﴿رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ (البقرة: 128).

والمقصود أن الخليل بنى أشرف المساجد في أشرف البقاع في واد غير ذي زرع ودعا لأهلها بالبركة وأن يرزقوا من الثمرات مع قلة المياه وعدم الأشجار والزرع والثمار وأن يجعله حرماً محرماً وأمناً محتماً فاستجاب الله له.

وينتهي النبي إبراهيم وابنه النبي إسماعيل من بناء الكعبة ويصبح البيت الحرام أول بيت وضع للناس ليرمز إلى عبادة الله الواحد دون سواه.

نداء إبراهيم لحج بيت الله الحرام

لقد بَنى النبي إبراهيم الكعبة ليتوجه الناس جميعاً إليها ليعبروا عن توجههم لله سبحانه. وقد بينت آيات القرآن الكريم عدة أمور تتعلق بهذا الفرض الإلهي. فبناء الكعبة له غاية وهدف، وهدفه إقامة شعيرة الحج.

يقول تعالى: ﴿وَأَذِّن فِى ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴿٢٧﴾ لِّيَشْهَدُوا۟ مَنَٰفِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ فِىٓ أَيَّامٍ مَّعْلُومَٰتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَٰمِ ۖ فَكُلُوا۟ مِنْهَا وَأَطْعِمُوا۟ ٱلْبَآئِسَ ٱلْفَقِيرَ ﴿٢٨﴾ ثُمَّ لْيَقْضُوا۟ تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا۟ نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُوا۟ بِٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ﴾ (الحج: 27 ـ 29).

ويقول تعالى: ﴿وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا﴾.

وتدل الآيات الكريمة أن أول من أدى فريضة الحج هو النبي إبراهيم وابنه النبي إسماعيل. إذ يدل على ذلك أن الله سبحانه وعن طريق وحيه علمهما مناسك الحج وقد أدوها.

ومن خلال الآيات الكريمة نرى أن النبي إبراهيم بعد أن أتم بناء الكعبة وبعد أن أدى فريضة الحج ودعا الله دعاءه الطويل لم يبق أمر مهم في حياته. إذ أن النبي إبراهيم قد بلغ غايته الكبرى. وعاد إلى سكنه في الخليل وظل إسماعيل في مكة مع أمه حيث كانت مهمته متابعة المسيرة التوحيدية والدعوة إلى الله سبحانه.

في آيات الله تنقطع أخبار النبي إبراهيم العملية وتبقى الآيات الأخرى التي تتحدث عن عقيدته وأبنائه ومن جاء بعده من الأنبياء من الذين يعود أصلهم إليه وهنا نتوقف طويلاً عند بعض الآيات المتحدثة عن النبي إبراهيم أو ترتبط به ارتباطاً وثيقاً.

أول بيت وضع للناس

يقول تعالى: ﴿ إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ ﴾ (آل عمران: 96).

ولننظر كيف جاءت هذه الآية وفي أي سياق:

﴿ إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ ﴾ (آل عمران: 96).

﴿ فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ ۖ وَمَن دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا ۗ وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ۚ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ ﴾ (آل عمران: 97).

﴿ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا تَعْمَلُونَ ﴾ (آل عمران: 98).

﴿ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ تَبْغُونَهَا عِوَجًا وَأَنتُمْ شُهَدَاءُ ۗ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ (آل عمران: 99).

إن الآيات صريحة واضحة، فأول بيت وضع للناس هو البيت الحرام وليس أي بيت آخر وقد أنكرت التوراة ذلك وكذلك أنكر اليهود. ولم يعترفوا بأن النبي إبراهيم هو من أقام قواعد البيت الحرام وأول من دعا الناس للحج.

وتدعي التوراة ويدعي اليهود أن أول بيت وضع لله هو المعبد الذي ينسبون بناءه للنبي سليمان وهو الذي يطلقون عليه اسم الهيكل.

وقد سمي البيت الحرام البيت العتيق لأنه الأقدم من بين معابد الدنيا.

يقول تعالى: ﴿ ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ ﴾ (الحج: 29).

ويقول تعالى: ﴿ لَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ إِلَىٰ أَجَلٍ مُسَمًّى ثُمَّ مَحِلُّهَا إِلَى الْبَيْتِ الْعَتِيقِ ﴾ (الحج: 33).

ولا شك أن اختيار الله سبحانه لمكة لتكون مهوى قلوب الناس هو اختيار إلهي ليس للبشر يد فيه. فهو اختيار يشابه اختيار الله لأنبيائه ورسله ولأوليائه يبعثهم الله للناس ليبلغوا رسالة السماء إلى الأرض وينشروا الهداية والتوحيد.

أما حول اختيار الله سبحانه لمكة وللكعبة تحديداً فترد روايات وأحاديث كثيرة تبين أهميتها وفضلها بالنسبة للأرض. ومن ثم ارتباطها بالأنبياء منذ آدم عليه السلام وحتى خاتم الأنبياء محمد ﷺ. ومن هذه الأخبار والروايات ما يُرجع الكعبة إلى ما قبل تاريخ البشرية على الأرض ومنها ما هو مستند على أحاديث رسول الله ﷺ.

1 ـ نُقل عن سعيد بن المسيب عن كعب الأحبار وهو من اليهود الذين أسلموا ولديهم علم التوراة والأولين، قال: كانت الكعبة غثاء على الماء قبل أن يخلق الله عز وجل السماوات والأرض بأربعين سنة ومنها دُحيت الأرض.

2 ـ نقل عن هشام بن حميد قال سمعت مجاهداً يقول: خلق الله عز وجل هذا البيت قبل أن يخلق شيئاً من الأرضين.

3 ـ عن ابن عباس أنه قال لما كان العرش على الماء قبل أن يخلق السموات والأرض بعث الله تعالى ريحاً هفافة فصفقت الماء فأبرزت عن خشفة (حجارة) (أو أكمة لاطية بالأرض) في موضع هذا البيت كأنها قبة فدحا الله الأرضين من تحتها فحادت ثم مادت فأوتدها الله تعالى بالجبال فكان أول جبل فيها أبو قبيس فلذلك سُميت أم القرى.

4ـ وعن مجاهد قال: لقد خلق الله عز وجل موضع هذا البيت قبل أن يخلق شيئاً من الأرض بألفي سنة وإن قواعده لفي الأرض السابعة السفلى[1].

وأورد بعضهم روايات وأحاديث بعضها نسب إلى النبي ﷺ. ومنها أن الملائكة تزور الكعبة. وقد أورد وهب بن منبه عن ابن عباس أن جبريل عليه السلام وقف على رسول الله ﷺ وعليه عصابة حمراء قد علاها الغبار فقال له رسول الله ﷺ ما هذا الغبار أرى على عصابتك أيها الروح الأمين قال: إني زرت البيت فازدحمت الملائكة على الركن فهذا الغبار الذي ترى مما تثير أجنحتها[2].

5ـ ورواية أخرى عن عبد الرزاق وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم من طريق معمر عن قتادة قال وضع الله البيت الحرام مع آدم حين أهبط الله آدم إلى الأرض.

6ـ وفي رواية عن أبي المليح أنه قال: كان أبو هريرة يقول: حج آدم عليه السلام فقضى المناسك فلما حج قال يا رب إن لكل عامل أجراً قال الله تعالى أما أنت يا آدم فقد غفرت لك وأما ذريتك فمن جاء منهم هذا البيت فباء بذنبه غفرت له فحج آدم عليه السلام فاستقبلته الملائكة بالردم فقال بر حجك يا آدم قد حججنا هذا البيت قبلك بألفي عام قال فما كنتم تقولون حوله قالوا كنا نقول سبحان الله والحمدلله ولا إله إلا الله والله أكبر قال: فكان آدم عليه السلام إذا طاف بالبيت يقول هؤلاء الكلمات. وكان طواف آدم عليه السلام سبعة أسابيع بالليل وخمسة أسابيع في النهار[3].

ومن الجدير ذكره أن بناء هذا البيت كان للناس كافة دون استثناء وهو مبارك من الله وهدى للعالمين يهتدي به البشر إلى عقيدة التوحيد وفيه علامات وأمكنة

---

(1) نقلاً عن كتاب الدر المنثور في التفسير المأثور للسيوطي ص 228 الجزء 1.

(2) المصدر السابق.

(3) نقلاً عن كتاب أخبار مكة، الأزرقي ص 42.

مقدسة منها مقام إبراهيم ثم إن كل من يدخله يدخله آمناً لا يخاف على ماله ولا على نفسه.

وإضافة لهذه الروايات فإن الآيات الكريمة التي لحقت بناءه تدل على أمور كثيرة أهمها أن هذا البيت له المكانة الأولى والمنزلة الفضلى بين دور العبادة في العالم أجمع.

لذلك كله كان أمر الله سبحانه لإبراهيم برفع قواعد البيت الحرام. فالبيت أعظم معبد يرمز إلى ديانة التوحيد والنبي إبراهيم إمام الأنبياء وأبوهم فاقترنا معاً ليظلا مرتبطين ارتباطاً أبدياً حتى يرث الله الأرض وما عليها.

الآثار الباقية من إبراهيم عليه السلام

حاول اليهود وخاصة المعاصرون منهم أن يثبتوا أن الهيكل المزعوم قد بُني عليه أو على أنقاض المسجد الأقصى وما زالوا يفتشون عن آثار تدل عليه دون جدوى وحين حاول علماء الآثار أن يتتبعوا مسيرة حياة إبراهيم من خلال علم الآثار لم يتوصلوا إلى نتائج حاسمة.

وظلت نظرياتهم أقرب إلى الافتراضات منها إلى الجزم والتأكيد.

بينما يصرح القرآن الكريم بأن آثاراً ما تزال شاهدة على بناء إبراهيم للكعبة فقال تعالى: ﴿ إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ ﴿٩٦﴾ فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ ﴾ (آل عمران: 96).

فالبيت نفسه والكعبة المشرفة هو أول شاهد حي وأكبر أثر من آثار النبي إبراهيم وعبر كافة العصور التي مرت على سكان الجزيرة العربية كان الناس يعرفون أن من بنى هذه الكعبة هو النبي إبراهيم عليه السلام. وقد تحدثنا عن قدم هذا البيت في صفحات سابقة ومن آثاره أيضاً مقامه المسمى مقام إبراهيم. وكل حاج يرى هذا المقام وإذا نظر من الزجاج يرى أثر قوم النبي إبراهيم موجوداً حتى يومنا هذا والمسلمون بعد الطواف يصلون بحيث يجعلون هذا المقام أمامهم.

ومن الآثار أيضاً بئر زمزم الذي ليس له شبيه في منطقة مكة كلها. فالبيت الحرام موجود في وادٍ غير زرع وهذا النبع الذي لم يتوقف تدفق مائه أكبر شاهد على أثر من آثار إسماعيل وأمه وأبيه النبي إبراهيم عليه السلام.

ومن الآثار أيضاً السعي بين الصفا والمروة. وهذا السعي بدأته أم إسماعيل وزوجة النبي إبراهيم وظلت هذه السنة جارية تؤدى إلى يومنا هذا.

وإضافة لذلك كله أيضاً الرجم في العقبات الثلاث فهي سنة سنها النبي إبراهيم وما تزال قائمة حتى يومنا هذا.

فأين آثار الهيكل المزعوم. وأين هذا من قول اليهود إن الهيكل أقدم بيت وضع في الأرض لقد رأينا الآيات القرآنية مؤكدة للواقع، فالآثار ما تزال باقية تدل على أن من بنى الكعبة هو إبراهيم عليه السلام.

وها نحن نرى كافة علماء الآثار حتى اليهود منهم يشككون فيما قالته التوراة عن النبي إبراهيم (يقول الدكتور إسرائيل فنكلشتاين: إن استخدام ورقة التواريخ لا يقدم أي مساعدة في المسألة كما أخفقت جميع المحاولات اللاحقة سواء من قبل دي فو. لوضع قصص الآباء في العصر البرونزي المتوسط 2000 ـ 1550 ق.م أو من قبل العالمين الأمريكيين سبايزر وجوردون لوضعها في خلفية تعود للقرن الخامس عشر ق.م.

ويقول: مشروع البحث كله أنتج ما يشبه الحلقة المفرغة. النظريات العلمية حول عهد الآباء تغيرت بشكل متواصل طبقاً للاكتشافات من منتصف الألفية الثالثة ق.م إلى أواخر الألفية الثالثة إلى أوائل الألفية الثانية إلى أوائل العصر الحديدي، دلل العالم التوراتي الألماني بوليوس فيلهاوزن على أن قصص الآباء في كلا المصدرين اليهودي والإيلوهيمي إنما عكست مخاوف الحكم الإسرائيلي الملكي المتأخر التي تم إسقاطها على حياة الآباء الأسطوريين في ماضٍ أسطوري بشكل كبير. وبناءً عليه يجب النظر إلى القصص التوراتية كأساطير وطنية لا يزيد أساسها

التاريخي على الأساس التاريخي لأسفار أوديسوس في ملحمة هوميروس أو قصة تأسيس إينياس لمدينة روما في ملحمة فيرجيل[1].

وتقول كاترين كانون: إن الزمن الطويل الذي انقضى على الحوادث قبل تدوينها يجعل من المتعذر اعتبارها سجلاً تاريخياً. وقد بحث النقاد الأدبيون والمشتغلون في دراسة النصوص وكيفية تفسيرها. ومن المتفق عليه بصورة عامة أن الذي قام بتحرير سفر التكوين في القرن العاشر ق.م حاول أن يجمع في قصة واحدة الحكايات الشائعة بين القبائل والمجموعات التي اجتمعت فيما بعد لتكون شعب (إسرائيل) وكثير من المختصين يتفقون على أنها قبائل متفرقة ومن الأرجح أن تكون إحداها قبيلة إبراهيم وإسحاق. وقبيلة يعقوب قبيلة أخرى وقد تم فيما بعد إيجاد صلة قرابة بينهما. ولعل عائلة إبراهيم هي من أعالي بلاد ما بين النهرين وعائلة يعقوب من شرقي الأردن.

وتقول: ولكن من الواضح تماماً أن مجموعات الآباء وقبائلهم كانت دخيلة على فلسطين[2].

الدعوة للحج لكافة الناس

بعد أن أتم النبي إبراهيم وابنه إسماعيل بناء قواعد البيت أمره الله سبحانه أن يدعو الناس للحج إلى هذا البيت.

فقال تعالى: ﴿ وَأَذِّن فِي ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ ﴾ (الحج: 27).

ويقول تعالى: ﴿ وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ﴾ (آل عمران: 97).

وحول هذه الدعوة الإبراهيمية تستوقفنا عدة أمور:

1ـ من هو النبي إبراهيم حتى يأمره الله سبحانه بأن يدعو الناس لتأدية فريضة الحج.

---

(1) إسرائيل فنكلشتاين وينل أشر سيلبرمان. التوراة اليهودية مكشوفة على حقيقتها ترجمة سعد رستم ص 66 دار صفحات للدراسات والنشر ط 1 2007.

(2) كاتلين كانون: الكتاب المقدس والمكتشفات الآثارية الحديثة ص 39 ترجمة شوقي شعث. سليم زيد دار الجليل 1990.

2 ـ الدعوة للحج ليست مقتصرة على أمة دون أمة فهي دعوة لكل الناس.

3 ـ هل لبى الأنبياء دعوة إبراهيم للحج باعتبار كل نبي جاء من بعده هو من نسله.

4 ـ ما هي صفة البيت الحرام كما دعا إبراهيم عليه السلام.

ماذا قال القرآن الكريم عن النبي إبراهيم؟

يقول تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحًا وَءَالَ إِبْرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمْرَٰنَ ﴾ (آل عمران: 33).

ويقول تعالى: ﴿ وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبْرَٰهِيمَ خَلِيلًا ﴾ (النساء: 125).

ويقول تعالى: ﴿ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ﴾ (النساء: 163).

ويقول تعالى: ﴿ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا ﴾ (النحل: 120).

ويقول تعالى: ﴿ وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ إِبْرَٰهِيمَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا ﴾ (مريم: 41).

وقال تعالى: ﴿ قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ ﴾ (الممتحنة: 4).

وقال تعالى: ﴿ إِنَّ هَٰذَا لَفِى ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ ﴿١٨﴾ صُحُفِ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ ﴾ (الأعلى: 19).

وقال تعالى: ﴿ قَالَ إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ۖ قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِى ﴾ البقرة 124.

وهناك آيات أخريات ترتبط بالنبي إبراهيم وستأتي في سياق آخر.

ومن خلال هذه الآيات الكريمات ندرك أن النبي إبراهيم نبي مرسل من الله سبحانه وقد اصطفاه الله مثلما اصطفى نوحاً وآدم وآل عمران. وقد اتخذه الله خليلاً. وأوحى إليه وأنزل عليه صحفاً وجعله إماماً يقتدى به وأمة قانتاً لله وجعل الله فيه أسوة حسنة يُقتدى بها.

لهذه السمات والصفات اختاره الله سبحانه ليكون النبي الذي يُكَلَّف برفع قواعد البيت ويُكلَّف أيضاً بدعوة الناس جميعاً للحج. فقبل أن يظهر اليهود ومن اتبعوا عقيدة المسيح وقبل أن تظهر كثير من العقائد. فرض الله الحج على من استطاع إليه سبيلاً وكانت الدعوة عن طريق إبراهيم الذي اصطفاه الله مسبقاً ليكون أباً للأنبياء وإماماً يُقتدى به.

اختاره الله سبحانه لهذه المهمات بسبب العديد من الصفات التي منحه الله إياها. واختار البيت الحرام في قلب جزيرة العرب لتكون مركز توجه الموحدين لعبادة الله الواحد. وبذلك تكامل الأمر بالرجل النبي الإمام وبالبيت الأول الذي بُني ليرمز لعبادة التوحيد. أما دعوة الناس للحج. فإننا نرى أن الدعوة لم توجه لفئة دون فئة فقد كانت لعامة الناس. وهذه حكمة إلهية واضحة، فقبل أن يُخلق موسى عليه السلام وقبل أن تُنزل التوراة وكذلك الإنجيل أراد الله سبحانه أن تكون فريضة الحج لكل الناس ولكل من يقول أنا أؤمن بالله. فهي موجودة قبل وجود اليهودية وقبل وجود النصرانية وهي حجة على كل من يدّعي انتسابه إلى هذا النبي العظيم إبراهيم عليه السلام.

القرآن الكريم يقول وأذن في الناس بالحج. وأي الناس كانوا موجودين آنذاك أليست الدعوة مفتوحة على كل الأزمان والأوقات. أليست مفتوحة لجميع الناس الذين سيأتون بعد إبراهيم، أليست لكل مسلم ولكل يهودي ولكل نصراني ولكل إنسان على وجه الأرض.

هذه الدعوة للحج ليست دعوة منفصلة عن الدعوة لدين الله الواحد وهو دين الإسلام الذي اختاره الله لجميع أنبيائه واختاره الله دستوراً متكاملاً لبني البشرية. وقال تعالى ولله على الناس حج البيت. فلم يقل على المسلمين من أتباع الرسول محمد ﷺ ولم يقل على اليهود أو النصارى أو المجوس بل قال على الناس. وإبراهيم عليه السلام نبي الجميع ودعوته للجميع.

فإذا كان التوراتيون يدعون أنهم ينتسبون إلى إبراهيم وإسحاق ويعقوب فالأولى بهم أن يلبوا دعوة جدهم النبي إبراهيم وتلبية دعوته تعني تلبية الدعوة لدين الإسلام ولمحمد ﷺ. وتعني أيضاً الدعوة للتخلي عن اليهودية العنصرية والعودة إلى الأصول التوحيدية التي نادى بها إبراهيم وأولاده وأحفاده.

وإذا كان اليهود يُنكرون على إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام بناء الكعبة والدعوة إلى الحج فإنهم يتغافلون ويتجاهلون أن الأنبياء الذين جاؤوا من نسل

إبراهيم كانوا الأولى بتلبية نداء أبيهم إبراهيم فجميع هؤلاء حجوا ولبوا نداء الله عن طريق النبي إبراهيم. فإذا أنكر اليهود أن الأنبياء حجّوا فإنهم يحاولون بذلك الانتقاص من عقيدتهم. فإذا كان الناس يلبون الدعوة للحج منذ إبراهيم حتى الآن فالأوْلى أن يلبي الدعوة أبناؤه وأحفاده وكل من جاء من نسله من الأنبياء. وهذا ما سنبحثه في صفحات قادمة ونثبت أن الأنبياء جميعاً قد حجوا ولبوا نداء أبي الأنبياء.

وتستوقفنا بعض الآيات التي تتمم الحديث عن النبي إبراهيم والبيت الحرام لتتكامل صورة التوحّد بين البناء المادي والبناء الديني والروحي لهذا البيت المقدس.

يقول تعالى: ﴿وَعَهِدْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْعَٰكِفِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ﴾.

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا بَلَدًا ءَامِنًا وَٱرْزُقْ أَهْلَهُۥ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ مَنْ ءَامَنَ مِنْهُم بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۖ قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُۥ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُۥٓ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلنَّارِ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾.

ويقول تعالى: ﴿رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾.

ويقول تعالى: ﴿رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ﴾.

ويقول تعالى: ﴿رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾.

فنلاحظ أن إعمار البيت أو رفع قواعده ظُلل بظلالات عقدية وروحية ونفسية فالبيت يجب أن يطّهر دوماً لمن يطوف حوله ولمن يعتكف فيه ويركع ويسجد لذلك طلب الله سبحانه من إبراهيم وإسماعيل تطهير هذا البيت.

ثم ظلّله بظلال أخرى من خلال دعائه أن يكون هذا البلد الحرام آمناً وأن يرزق أهله المؤمنين بالله وأنبيائه ثم من خلال دعائهما ربنا تقبل منا.

ثم قالا ربنا واجعلنا مسلمين ومن ذريتنا أمة مسلمة. فاستجاب الله لهما في نفسيهما وفي بعض ذريتهما وليس كلها. إذ قال من ذريتنا.

وختم الدعاء بقولهما ربنا وابعث فيهم رسولاً منهم.. وكان أن بُعث محمد ﷺ من قلب تلك الأمة التي هي من ذريتهما يتلو آيات القرآن المبين ويعلم أبناء الأمة الكتاب والحكمة ويزكيهم بالطهارة الروحية والجسدية والنفسية.

عقيدة إبراهيم في القرآن الكريم

عندما نراجع نصوص سفر التكوين التوراتي لا تتضح عقيدة النبي إبراهيم بشكلها الشمولي الواضح المعالم. وحسب هذا النص فإن التوراة لا تطلق عليه اسم نبي مطلقاً إذ تركز على قولها تراءى الله له وكلمة الرب وما إلى ذلك. من عهود ومواثيق جرت بين الله وهذا النبي الكريم.

وعندما نعود إلى آيات القرآن الكريم نرى تسلسلاً واضحاً وتأكيداً واضحاً على عقيدة النبي إبراهيم. فهي عقيدة التوحيد التي يطلق عليه الحنيفية. والتي اتبعها النبي محمد ﷺ.

ولم تأتِ عقيدته عفوية بل عقيدة انطلقت عقلياً وقلبياً. إذ هيأ الله سبحانه لعقله أن يفكر في ملكوت السموات والأرض ويرى مخلوقات الله المتنوعة ليوقن أن الله واحد. وليطمئن قلبه ويوقن فقد هيأ الله له أساليب عدة تريه معجزات ربه حتى أصبح من الموقنين.

ومنذ البداية تصرح آيات القرآن الكريم بأن إبراهيم نبيٌ من أنبياء الله سبحانه وتعالى وطالما أنه نبي فلا بد أن يتصف بصفات محددة يحددها القرآن الكريم صريحة في الآيات لقد اصطفى الله إبراهيم مثلما اصطفى آدم ونوحاً. وقد أشار القرآن الكريم إلى ملة إبراهيم الحنيفية وأوحى الله له وأنزل عليه صحفاً.

يقول تعالى: ﴿وَٱتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا﴾ (النساء: 125).

ويقول تعالى: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا﴾ (النحل: 125).

وقال تعالى: ﴿ ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ﴾ (النحل: 123).

وقال تعالى: ﴿ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ ﴾ (الحج: 78).

إذاً فإن الآيات تشير إلى ملة إبراهيم فقد كان حنيفياً وطلب من المسلمين أن يتبعوا هذا الطريق. لكن آيات أخريات تشير إلى الإسلام الذي يعني تسليم الإنسان قلبه وروحه وعقيدته لله سبحانه وتعالى:

يقول تعالى: ﴿ رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً ﴾ (البقرة: 128).

وهذا ما يجعل العقيدة الإبراهيمية الحنيفية المسلمة. المنحازة عن عبادة الأصنام إلى عبادة الله الواحد.

يقول تعالى: ﴿ إِذْ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسْلِمْ ۖ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ (البقرة: 131).

وهذه العقيدة التي تمتع بها إبراهيم وصى بها أولاده من الأنبياء وجاء ذلك بصريح العبارة في قوله تعالى: ﴿ وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَٰبَنِىَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾ (البقرة: 132).

وهذا يخالف كلياً ما جاءت به التوراة. إذ اتهمت يعقوب بالوثنية وبمصارعة ربه واتهمت إبراهيم بوضع رُجم من الحجارة شاهدة على علاقته بالله وهذا شيء من الوثنية ولا يمت بصلة إلى عقيدة التوحيد.

ولنلاحظ قوله تعالى: ﴿ قَالُوا۟ نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ ﴾ (البقرة: 133).

وقوله تعالى: ﴿ قُولُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ ﴾ (البقرة: 136).

وقوله تعالى: ﴿ قُلْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴾ (آل عمران: 84).

وتشير آيات الكتاب المبين إلى أن الله أوصى لإبراهيم فقال تعالى: ﴿ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ﴾ (النساء: 163).

والوحي الخاص بالرجال يتخصص بالأنبياء فإبراهيم نبي مسلم حنيفي موحى إليه.

ويقول تعالى: ﴿رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا ٱلْبَلَدَ ءَامِنًا وَٱجْنُبْنِى وَبَنِىَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ﴾ (إبراهيم: 35).

والواقع إن النبي إبراهيم دعا بهذا الدعاء لأنه خبر قومه عندما حاربهم وحطم أصنامهم وفي نفس الوقت قال وبنيّ. وكان دعاؤه لأولاده. فكان إسماعيل وإسحاق ويعقوب وكذلك يوسف والنبي محمد صلى الله عليهم جميعاً وبقية الأنبياء قد ساروا على دينه وملته بينما انحرف بنو إسرائيل عن هؤلاء الأنبياء وعبدوا الأصنام بل وعبدوا آلهة الشعوب الأخرى كما عرفنا من خلال التوراة المؤلفة من قبل عزرا والأحبار. وجميعنا يذكر كيف عبد بنو إسرائيل العجل وهم في سيناء وكيف انحرفوا عن كتاب موسى عليه السلام وفسدوا وفسقوا حتى أن موسى عليه السلام قال: (رب لا أملك إلا نفسي وأخي فافرق بيننا وبين القوم الفاسقين).

وبعد أن عرفنا من خلال آيات القرآن الكريم عقيدة النبي إبراهيم لا بد أن نقول إنه كان إماماً للجميع وعلى الجميع أن يتبعوا عقيدته وألا ينحرفوا عنها.

لقد حاول اليهود أن ينسبوا لأنفسهم عقيدة النبي إبراهيم وقالوا إنه كان يهودياً وكذلك ادعى بعض النصارى القول بذلك فرد عليهم القرآن الكريم بحجة دامغة وذلك في قوله: ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تُحَآجُّونَ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمَآ أُنزِلَتِ ٱلتَّوْرَىٰةُ وَٱلْإِنجِيلُ إِلَّا مِنۢ بَعْدِهِۦٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٥﴾ هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ حَٰجَجْتُمْ فِيمَا لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَآجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ (آل عمران: 65 ـ 66).

ثم يقول تعالى: ﴿مَا كَانَ إِبْرَٰهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ (آل عمران: 67).

ثم يقول تعالى: ﴿إِنَّ أَوْلَى ٱلنَّاسِ بِإِبْرَٰهِيمَ لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ وَهَٰذَا ٱلنَّبِىُّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ (آل عمران: 68).

إذاً فالقاعدة العقيدية واضحة إن أولى الناس بالانتساب إلى النبي إبراهيم الذين اتبعوه. والنبي محمد ﷺ هو أولى الناس بإبراهيم والذين آمنوا مع النبي محمد ﷺ وآمنوا برسالته.

فالذين اتبعوا إبراهيم عقيدياً هم الحنفاء المسلمون، والذين انحرفوا عن اتباعه هم هؤلاء من اليهود وغيرهم من الذين يدّعون الانتساب إليه زوراً وبهتاناً.

ولو كان إبراهيم يهودياً أو نصرانياً لانتفت عالمية دعوته. واليهودية اختراع منحرف عن دين موسى عليه السلام فكيف لا تكون انحرافاً عن دين أبي الأنبياء إبراهيم عليه السلام؟ إنهم يريدون أن يحصروا إبراهيم في هذا الدين اليهودي العنصري بينما اختاره الله إماماً وأمةً وأباً لأنبياء الله من بعده. ولعل الغاية السياسية كانت وما زالت هدفهم الأساسي حيث يدعون كذباً وبهتاناً أن الله وعد إبراهيم أن يملكه الأرض المباركة. وتناسوا عن قصد نبوته ودعوته ونسوا بناء للكعبة أو تناسوا وأهملوا الحديث عن ولده البكر إسماعيل الذي هو نبي مثله مثل بقية الأنبياء.

الفصل الثالث

هل لبّى الأنبياء دعوة أبيهم إبراهيم للحج؟

هذا السؤال يُطرح أحياناً وأحياناً أخرى لا يجرؤ بعض علمائنا على الخوض فيه. وأعتقد أن عدم الجرأة في الخوض فيه راجع إلى كون القرآن الكريم لم يصرح أن الأنبياء أدوا فريضة الحج. ونسي الناس مسألة مهمة جداً وهي أن إبراهيم عليه السلام أبو الأنبياء الذين جاؤوا من بعده. وعندما دعا للحج فقد دعا الناس جميعاً وأصبح الحج فرضاً على كل إنسان. وليس من المعقول أن لا يلبي أبناؤه وأحفاده وأحفاد أحفاده هذا النداء ويقوموا بتأدية فرض الحج.

ومع ذلك فهناك بعض الإشارات التي وردت في القرآن الكريم وفي نص التوراة فإبراهيم عليه السلام عندما دعا للحج كان له من الأولاد إسماعيل وإسحاق. وقد عرفنا دور إسماعيل في بناء البيت ومن المؤكد أنه أدى مناسك الحج مع والده وهذا ما نصت عليه الآية الكريمة.

وعندما عاد إبراهيم عليه السلام إلى الجليل لابد أن ابنه إسحاق سأله عن غيابه وعن البيت الذي رفع قواعده. ولابد أن إبراهيم قد بلغ ابنه إسحاق دعوته للحج ونعتقد أن إسحاق إن عاجلاً أو آجلاً لبى النداء وذهب إلى الحج وأدى فريضته ونعتقد أن إسحاق بدوره بلغ الدعوة لأولاده وأحفاده يعقوب وعيسو والأسباط ويوسف.

وقد ورد في البداية والنهاية النص التالي:

قال الحافظ أبو يعلى حدثنا سفيان بن وكيع حدثنا أبي عن زمعة هو ابن أبي صالح عن سلمة بن وهرام عن عكرمة عن ابن عباس قال: حج رسول الله ﷺ فلما أتى وادي عسفان قال: يا أبا بكر أي واد هذا قال: وادي عسفان قال: لقد مر بهذا الوادي نوح وهود وإبراهيم على بكرات (الفتيّة من الإبل) لهم حمر خطمهم (كل ما وضع في أنف البعير ليقتاد به) الليف أزرهم العباء وأرديتهم النمار يحجون البيت العتيق[1].

(1) ابن كثير: البداية والنهاية ص 118 مجلد أول.

فهذا الحديث خص به الأنبياء الأوائل نوح وهود وإبراهيم. وهو يشير إلى حجهم. فنوح وهود حجا إلى البيت الحرام في عهده الأول قبل أن يتهدم وتضيع معالمه. وإبراهيم عليه السلام حج البيت بعد أن بنى قواعده. وهذا استنتاج مستند إلى التسلسل التاريخي والتسلسل القرآني في قصص الأنبياء.

وقد ذُكر أيضاً في البداية والنهاية: قال الإمام أحمد حدثنا هشام حدثنا داود ابن أبي هند عن أبي العالية عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ مر بوادي الأزرق فقال: أي واد هذا؟ قالوا: وادي الأزرق قال: كأني أنظر إلى موسى وهو هابط من الثنية وله جؤار (دعاء) إلى الله عز وجل بالتلبية حتى أتى على ثنيةِ هرشاءَ فقال: أي ثنية هذه قالوا هذه ثنية هرشاء قال: كأني أنظر إلى يونس بن متى على ناقة حمراء عليه جبة من صوف خطام ناقته خلبه قال هشام يعني ليفا وهو يلبي. أخرجه مسلم من طريق داود بن أبي هندبة[1].

وعن ابن عباس مرفوعاً: إن موسى حج على ثور أحمر وهذا غريب جداً[2].

وجاء في نص التوراة سفر صموئيل الأول الإصحاح الخامس والعشرين ما يلي:

ومات صموئيل فاجتمع جميع إسرائيل وندبوه ودفنوه في بيته في الرامة وقام داود ونزل إلى برية فاران.

ومن المعروف أن برية فاران هي برية مكة وهذا حسب كافة المصادر. حتى أن التوراة أوردت في سفر التكوين أن إسماعيل سكن في برية فاران.

وعلى ذلك نسأل لماذا ذهب النبي داود إلى برية فاران فاراً من وجه شاؤول؟ لقد ضاقت الدنيا على النبي داود فما وجد إلا أن يلجأ إلى أحفاد أحفاد عمه إسماعيل باعتبار أن داود ينتسب إلى يهود ابن النبي يعقوب والنبي يعقوب هو ابن أخ إسماعيل. بمعنى أن إسماعيل عم يعقوب والد يهودا جد داود عليهم السلام فنعتقد

---

(1) ابن كثير: البداية والنهاية ص 275 ـ 267 المجلد الأول.

(2) ابن كثير: البداية والنهاية.

أنه ذهب إلى برية فاران ليؤدي فريضة الحج وليتعرف على أقربائه القدامى من بني إسماعيل بن إبراهيم عليه السلام. وليس يعقل أن يذهب داود وهو من أنبياء الله إلى برية فاران ولا يحج ويلبي نداء جده إبراهيم عليه السلام.

ردّ على رينهارد لاوت

هل كان بناء الكعبة السابق على ظهور الإسلام كنيسة مسيحية؟

تحت عنوان بيت الله من كتاب الباحث الألماني المعروف رينهارد لاوت والمسمى (إبراهيم وأبناء عهده مع الله) وتحديداً بدءاً من الصفحة 191 ـ 252.

يذكر الكاتب أن البناء السابق للكعبة قبل ظهور الإسلام كان كنيسة مسيحية عربية ويرى لاوت أن هذا ما يثبته المؤرخ الأزرقي صاحب كتاب تاريخ مكة[1].

ويقول (كان حائط الحجر الحالي أساس حينة كنيسة يقع أمامها محراب الكنيسة الذي يتفرع منه صحن الكنيسة ووجدت في داخل الكنيسة كما يخبرنا الأزرقي صور للملائكة ولإبراهيم والأنبياء وكذلك رسوم أشجار وخصوصاً ليسوع ومريم. وقد يكون البابان قد وضعا في نهاية صحن الكنيسة كي يستطيع الموعظون الذين لا يحق لهم المشاركة في الممارسات المقدسة نفسها أن يدخلوا أو يخرجوا دون أن يطؤوا محراب الكنيسة).

فإذا كان الحجر هو الجزء المنحني من هذه الكنيسة فلابد من أن يكون له سرداب من تحته فيه قبور كما كانت العادة السائدة في ذلك الزمن. وفي هذا المكان بالذات يرقد جسما هاجر وإسماعيل وذلك حسب الاعتقاد الإسلامي أيضاً. إذاً توجد هنا ذخائر هذين القديسين اللذين شُيدت الكنيسة تكريماً لهما بشكل خاص.

ويقول لاوت: (لنقارن الآن ما ورد أعلاه مع ما ورد في حوليات الأزرقي عن مدينة مكة ابتداءً من يوم فتحها على أيدي المسلمين بشكل خاص (فلما كان يوم

---

(1) الأزرقي. محمد: أخبار مكة وما جاء فيها من آثار دار الأندلس بيروت 1978 مجلد 11 ص 165.

فتح مكة دخل رسول الله البيت فأرسل الفضل بن العباس بن عبد المطلب فجاء بماء زمزم ثم أمر بثوب فبلّ بالماء وأمر بطمس تلك الصور فطمست وقال: ووضع كفّيه على صورة عيسى بن مريم وأمه عليهما السلام. وقال امحوا جميع الصور إلا ما تحت يدي فرفع يده عن صورة عيسى بن مريم وأمه).

وقد أمر محمد في وقت لاحق أن يبقى على حاله وهو الشكل الذي عليه اليوم وهناك أيضاً أمر مهم أيضاً في هذا السياق وهو أن النبي في الأشهر السبعة عشر من هجرته إلى المدينة كان لا يزال يرفع القبلة باتجاه أورشليم ولم ترفع القبلة باتجاه الكعبة إلا فيما بعد وكذلك حل يوم الجمعة أيضاً محل السبت اليهودي أو بالأحرى الأحد المسيحي.

إذاً تقوم الكعبة الإسلامية على أساس كنيسة مسيحية ولا شك في أن هذه الكنيسة بدورها كانت مبنية على موقع مقدس بالنسبة لذرية إسماعيل، وبحسب القرآن أن إبراهيم قد وصل مكة في إحدى رحلاته مع ابنه إسماعيل وأقام فيها هيكلاً لله أمر غير مستبعد كما يؤكد ذلك مراراً علماء القرآن. كانت مكة تجمعاً سكنياً آرامياً في أقصى أطراف البلاد الآرامية أو كانت تحوي داخلها مجموعة من الآراميين[1].

إلى هنا ينتهي القسم الأول من حديث الباحث الألماني رينهارد لاوت بشأن ما كان عليه البيت الحرام.

نقول رداً على ما قاله:

إن تصوره بأن كنيسة ما كانت موجودة في البيت الحرام ضرب من الخيال والمستحيل وضرب من الجهل المطبق بالتاريخ. فمن ناحية أولى لم ينفرد مصدر من المصادر الموثوقة وغير الموثوقة بالقول بأن هناك كنيسة كانت موجودة بعد انتشار المسيحية. والأزرقي لا ينفرد بالحديث عن تاريخ مكة. فهناك عشرات الباحثين

(1) رينهارد لاوت: إبراهيم وأبناء عهده مع الله ص 192 ـ 193 ـ 194.

والمؤرخين الذين تناولوا بالدراسة الجزيرة العربية ومنها الحجاز ولم يخطر ببالهم او يتصوروا أن هذا البيت الحرام كان كنيسة.

ومن ناحية ثانية فإن جميع المصادر التي أرخت لشبه الجزيرة العربية تقول إن المسيحية أساساً لم تنتشر في مكة وإنما انتشرت في بعض أجزاء نجران وفي بعض مناطق جنوب بلاد الشام. وقد ورد أن بعض الأفراد المعدودين على أصابع كف اليد كانوا ممن تنصر وعاش في مكة.

ومن ناحية ثالثة: عندما يستعرض المؤرخون تاريخ مكة قبل الإسلام وخاصة الفترة الفاصلة بين المسيح عليه السلام والبعثة الإسلامية يؤكدون بكل الطرق ومن خلال الوقائع أن مكة امتلأت بالأصنام وكان كل صنم يخص قبيلة عربية وقد بلغ عدد الأصنام حول الكعبة أكثر من ثلاثمائة وخمسين صنماً.

من ناحية رابعة: يبدو أن رينهارد جاهل تماماً بأن الأمر الإلهي ببناء قواعد البيت من خلال إبراهيم وإسماعيل لم يكن أمراً بشرياً مزاجياً إنما هو من اختصاص الله سبحانه وتعالى. ودعوة إبراهيم للناس للحج هي دعوة لكل البشرية فهل وُجدت الكنيسة كي يحج الناس إليها مع العلم أن المسيحية ليست عقيدة عالمية بالأساس. وليس لها حج بالمعنى العقيدي. إنما لها بعض الطقوس المتعلقة بكنيسة القيامة وكنيسة المهد وغيرهما.

وإذا كان رينهارد يعتقد أن شكل بناء الكعبة هو شكل كنيسة وأن قبري إسماعيل وهاجر موجودان تحت ما يسمى حجر إسماعيل وهذا مما درج عليه المسيحيون في بناء كنائسهم. فلماذا لا يكون الأمر على عكس ذلك تماماً أي أن بناء الكنائس الشرقية في أساسه مأخوذ من طراز بناء الكعبة. وكان عليه أن يدرك أن أول بيت وضع للناس هو الذي في مكة ولم يسبقه بناء مقدس لا في العقيدة التوراتية ولا في العقيدة النصرانية.

ورينهارد حسب حسّه المسيحي يرى أن إسماعيل قديس وأمه قديسة. وهذه التعابير ليس لها وجود في قاموس الإسلام. فإسماعيل نبي مرسل وأمه كبقية الأمهات لكنها مباركة بما صبرت وآمنت بالله الواحد.

لقد اعتبر الإنجيل زكريا ويحيى قديسين ولكن القرآن الكريم قال كلمته الفصل بأنهما نبيان مرسلان. والفرق شاسع بين نبي يوحي الله له وبين قديس أراد بسلوكه الأخلاقي الجيد أن يكون مثلاً أعلى للناس. إذاً لا غرابة أن يقول عن إسماعيل بأنه قديس وليس نبياً.

ويقول لاوت إن النبي ﷺ عندما فتح مكة أمر بإزالة الرسوم الموجودة على جدرانها الداخلية وأبقى على صورة للمسيح ولمريم ولا ندري من أين جاء بهذه القصة ففي صحيح البخاري في كتاب بدء الخلق ورد الحديث التالي:

حدثنا إبراهيم بن موسى أخبرنا هشام عن معمر عن أيوب عن عكرمة عن ابن عباس رضي الله عنهما أن النبي ﷺ لما رأى الصور في البيت لم يدخل حتى أمر بها فمحيت ورأى إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام بأيديهما الأزلام فقال قاتلهم الله والله إن استقسما بالأزلام قط[1].

وحتى لو وجدت صورة لمريم فلا يمكن أن يأمر النبي ﷺ بطمس صورة النبي إبراهيم ويُبقي على صورة مريم. وقد قال رسول الله ﷺ إن الملائكة لا تدخل بيتاً فيه صورة.

ثم يرى رينهارد أن ما يدل على أن هذا البيت الحرام كان كنيسة في فترة من الفترات قوله إن الرسول ﷺ كان يتوجه إلى القدس في صلاته لمدة سبعة عشر شهراً ثم حول قبلته نحو البيت الحرام. بمعنى أنه كان يكره التوجه للبيت الحرام باعتباره كان كنيسة. فمن الواضح أن رينهارد جاهل بمجريات الأحداث التي تخص الرسول ﷺ وتخص البيت الحرام.

---

(1) صحيح البخاري كتاب بدء الخلق المجلد 5 رقم الحديث 2997.

فالنبي عليه الصلاة والسلام كان يتوجه إلى بيت المقدس وكان يضع بينه وبين اتجاه بيت المقدس البيت الحرام هذا بالنسبة لمكة ووجوده فيها. لكنه عندما توجه إلى بيت المقدس من المدينة كان يرغب أن يستبدل القبلة وكان دائماً يتأمل نزول الوحي بهذا الخصوص على الرغم من أن المسجد الحرام آنذاك كان يعج بالأصنام.

وقد رأينا وصف هذه الحالة في آيات الله إذ يقول تعالى:

﴿ سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَ ٱلنَّاسِ مَا وَلَّىٰهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ ٱلَّتِى كَانُوا۟ عَلَيْهَا ۚ قُل لِّلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ ۚ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٤٢﴾ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ۗ وَمَا جَعَلْنَا ٱلْقِبْلَةَ ٱلَّتِى كُنتَ عَلَيْهَآ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ ۚ وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ ۗ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤٣﴾ قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِى ٱلسَّمَآءِ ۖ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَىٰهَا ۚ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۚ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ ۗ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٤٤﴾ وَلَئِنْ أَتَيْتَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ بِكُلِّ ءَايَةٍ مَّا تَبِعُوا۟ قِبْلَتَكَ ۚ وَمَآ أَنتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ ۚ وَمَا بَعْضُهُم بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ ۚ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ ۙ إِنَّكَ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٤٥﴾ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ ۖ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ (البقرة: 142 ـ 146).

فهل قرأ رينهارد هذه الآية حتى يحجم عن أقواله ويقلب كل تفكيره وتخيلاته حول هذه المسائل.

وإذا كان رينهارد لاوت قد انفرد من بين الباحثين الغربيين بتناول مكة وتاريخها بهذا الحس الكنسي فإن باحثين غربيين آخرين وهم الأكثرية لا يقولون بما قاله لاوت ولم يخطر ببال أحد منهم أن يقول إن الكعبة كانت كنيسة. وقد رأيت كتاباً بعنوان حكام مكة للباحث الفرنسي جيرالد دوغوري قدم فيه بمقدمة طويلة لم

يشر فيها ولا في الكتاب إلى ما ظنه لاوت وتصوره حول كنيسة مقامة في مكة وفي الكعبة تحديداً. ومثل هذا الكتاب كتب عديدة. ومنها الكثير الذي ينكر أساساً ذهاب إبراهيم وإسماعيل إلى وادي مكة مسايرة للمقولة التوراتية اليهودية.

هاجر وسارة بطاقتا تعريف!

شغلت قصة زوجتي النبي إبراهيم مساحة واسعة من كتاب التوراة. وقد أوردنا في الباب الأول من الكتاب النصوص التوراتية التي تحدثت عن هاتين الزوجتين وعرفنا أن التوراة أطلقت عليهما اسمين وهما سارة التي كانت ساراي. وهاجر وأدركنا أن ما ألصقته التوراة بالمرأتين من تشنيعات واتهامات ليس سوى إهانة للنبي إبراهيم وتشنيع على شخصيته وغبوته التي لا تعترف بها التوراة.

وحتى تتوضح صورة هاتين الزوجتين وقفنا هذه الوقفة لنوضح موقفنا الإسلامي القرآني منهما.

القرآن الكريم لم يورد اسمي سارة وهاجر واقتصرت التسمية في كتاب التوراة.

القرآن الكريم ذكر قصة البشرى لزوجة النبي إبراهيم بأنها ستحمل وتلد إنساناً مباركاً وهو إسحاق.

القرآن الكريم لم يأت على ذكر أم إسماعيل إنما جاء ذكر الصفا والمروة.

ومن خلال النص القرآني: نرى أن الله سبحانه أورد الحديث عن زوجة إبراهيم دون أن يمدحها أو يذمها. والقصة جاءت توصيفاً لحدث ما وهو حدث معجز أي حملها بعد أن كبرت وشاخت.

وإذا أردنا أن نرى القصة متكاملة فعلينا الرجوع إلى نص التوراة التفصيلي في سفر التكوين وإلى الأحاديث الصحيحة المنسوبة لرسول الله ﷺ وقد تحدثنا عن هذا الموضوع أثناء مناقشتنا للنص التوراتي في القسم الأول من الكتاب.

ونستنتج بالتالي رأياً هو أبعد عن نص التوراتي التشويهي.

سارة زوجة النبي إبراهيم أكرمها الله وأكرم زوجها بمولود معجزة بعد أن كانت قد شاخت وهي في الأساس كانت عاقراً.

هاجر زوجة النبي إبراهيم أكرمها الله وأكرم زوجها بأن أنجبت ولداً حلياً شارك أباه في بناء أول بيت مقدس في الأرض ومن نسله جاء رسول الله ﷺ. وأكرمها الله بأنّ سعيها بين الصفا والمروة أصبح شعيرة للمسلمين الذين يقصدون الحج والعمرة من ذلك التاريخ وحتى يومنا هذا وإلى أن يرث الله الأرض وما عليها.

والله سبحانه يضع حكمته أينما يشاء ويختار لكل عبد من عباده كرامة تناسبه فهذه أم النبي إسحاق وهذه أم النبي إسماعيل كل منهما أكرمها الله بأمر خاص بها.

وفي المقياس الإسلامي لا فضل لهذه على تلك كما تدّعي التوراة. فكلاهما أمتين لله ولا سيدة ولا جارية كما تدعي التوراة. فكلاهما زوجة للنبي إبراهيم وكلاهما أنجبتا نبيين هما إسماعيل وإسحاق.

وفي هذا السياق يحضرنا بعض ما قاله الدارسون المتخصصون بشخصية النبي إبراهيم وبأولاده وزوجتيه:

رينهارد لاوت: يقول مثلاً في تحليله على ضوء تفسير ما جاء في سفر التكوين التوراتي: (لقد أرادت سارة أن تسيطر داخل جماعة المدعوين كأميرة من أميرات الوثنيين أما هاجر فقبلت بتواضع إرادة الله. حتى بعد أن طردت. ولنلاحظ أن الله أثناء ظهوره الثاني قال لها إنه سمع صراخ إسماعيل وليس صراخها ولكن هي التي يجب أن تقوده من يده. كان إسماعيل ما يزال يافعاً فيستطيع الله أن يتكلم معه كلاماً كثير المعاني. لكنه كان يتكلم عنه مع هاجر وهو قلق عليه شديد القلق كان وعده يصدق بحق إسماعيل ابن الوعد.

إن الله لم يقل في أي من ظهوراته إن على إسماعيل ونسله أن يخدم إسحاق ونسله وهذا علينا أن نأخذه في عين الاعتبار أيضاً[1].

(1) رينهارد لاوت. إبراهيم وأبناء عهده مع الله ص 353.

إبراهيم أبو الأنبياء

تتفق التوراة مع القرآن الكريم على أن النبي إبراهيم عليه السلام هو والد الأنبياء الذين جاؤوا من بعده باستثناء لوط الذي تقول المصادر إنه ابن أخي إبراهيم عليهما السلام.

وقد عرفنا من خلال الصفحات السابقة أن الله وهب للنبي إبراهيم ولدين أولهما وهو بكره إسماعيل عليه السلام وثانيهما النبي إسحاق عليه السلام ومن خلال الآيات الكريمات نتبين أن الله وهب له إسحاق ويعقوب على التتالي. فيعقوب هو ابن إسحاق. ويعقوب والد الأسباط ومنهم النبي يوسف عليه السلام.

وإذا دققنا في الآيات القرآنية نجد أنها أوردت أسماء عدد من الأنبياء الذين من ذرية النبي إبراهيم.

يقول تعالى: ﴿ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ أَنعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ مِن ذُرِّيَّةِ آدَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْرَائِيلَ ﴾ (مريم: 58).

ويقول تعالى: ﴿ رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ ﴾ (البقرة: 128).

ويقول تعالى: ﴿ وَمِن ذُرِّيَّتِهِ دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَارُونَ ﴾ (الأنعام: 84).

ويقول تعالى: ﴿ وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ ﴾ (العنكبوت: 27).

ويقول تعالى: ﴿ وَبَارَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَىٰ إِسْحَاقَ ۚ وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ مُبِينٌ ﴾ (الصافات: 113).

ويقول تعالى: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَاهِيمَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ ﴾ (الحديد: 26).

ويقول تعالى: ﴿ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴾ (آل عمران: 33).

﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۖ كُلًّا هَدَيْنَا ۚ وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ ۖ وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٤﴾ وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلْيَاسَ ۖ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٥﴾ وَإِسْمَٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا ۚ وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ (الأنعام: 84 ـ 86).

فمن خلال الآيات الكريمة السابقة نستخلص أن من ذرية إبراهيم عدد كبير من الأنبياء وجميعهم جاؤوا من بعده ومن ذريته.

لكن الآيات الكريمة تشير أن النبيين من ذرية آدم وهذا أمر حتمي لأن آدم أول مخلوق آدمي عاقل خلقه الله. وهو أول نبي بعث على وجه الأرض.

ولكن الآية تؤكد التبعيض وليس الكل. فقال تعالى من ذرية آدم ومن الطبيعي أن الله اصطفى بعض ذرية آدم ليكونوا أنبياء. وكذلك قوله تعالى (ممن حملنا مع نوح) فالتبعيض وارد هنا فمن الذين حُملوا مع نوح جاء بعض النبيين، وليس كل الذين حُملوا مع نوح كانوا أنبياء وليس كل من حُملوا معه خلّفوا أنبياء.

ومن الأنبياء الذين جاؤوا من ذرية نوح النبي هود والنبي صالح وهما ليسا من أحفاد إبراهيم أو من ذريته. والتوراة لا تأتي على ذكر هود وصالح. إنما هي تتحدث عن نوح وتقفز إلى إبراهيم مباشرة بعد الحديث عن أولاد نوح المفترضين مثل سام وحام ويافث وهم ليسوا من الأنبياء.

وحسب التسلسل التاريخي فإننا نستطيع أن نتعرف على تاريخ الأنبياء من حيث قربه وبعده عن زمن النبي إبراهيم.

فالقرآن الكريم يشير أولاً إلى أن الابن الأكبر لإبراهيم هو إسماعيل والابن الثاني هو إسحاق.

وتدل الآية الكريمة ـ ووهبنا له إسحاق يعقوب ـ أن يعقوب ابن إسحاق وأنه وُلد في حياة النبي إبراهيم.

وتقول التوراة إن يعقوب كان أحد اثنين توأم. فقد وُلد أخوه عيسو ثم وُلد هو من بطن واحد. لكن التوراة ترى أن يعقوب جاء بعد عيسو. لكن القرآن الكريم يورد اسم يعقوب على أنه نبي ولا يورد شيئاً عن أخيه بينما التوراة تساوي بين الاثنين. ولا تأتي على ذكر نبوة يعقوب.

وحسب التسلسل التاريخي فإن يعقوب ينجب أولاداً كثراً تقول التوراة إنهم اثنا عشر رجلاً وكان أصغرهم يوسفُ وأخوه وهما من أم واحدة اسمها راحيل حسب ما تورد التوراة.

ومن هؤلاء الإثني عشر واحد هو يوسف بينما البقية ليسوا من الأنبياء لكن هؤلاء الأولاد ينجبون ويتكاثرون ويخرج من أبنائهم وأحفادهم أنبياء وأول هؤلاء من بعد يوسف. موسى وهارون. وتنسبهم التوراة إلى ولد من أولاد يعقوب وهو المدعو لاوي. وجدّ لاوي هو إسحاق ووالد جده هو إبراهيم عليه السلام ومن ذرية إبراهيم عليه السلام داود وسليمان. وحسب التسلسل الذي تورد التوراة فإن داود يعود بنسبه من جهة أبيه إلى ولد يعقوب المدعو يهودا. ومن الطبيعي أن سليمان يعود بنسبه إلى يهودا أيضاً. وجد يهودا هو إسحاق ووالد جده إبراهيم عليه السلام.

وتورد الآية الكريم اسم أيوب كواحد من أحفاد النبي إبراهيم. ولكن من هو والد النبي أيوب؟

النبي أيوب ليس من أحفاد يعقوب حسب نص التوراة فكيف تعرف نسبه العائد إلى النبي إبراهيم عليه السلام.

إن أكثر الروايات تؤكد أن أيوب هو من أحفاد عيسو الابن البكر لإسحاق عليه السلام. فقال ابن إسحاق: هو أيوب بن موص بن زارح بن العيص (عيسو) بن إسحاق بن إبراهيم الخليل.

وحكى ابن عساكر أن أمه بنت لوط عليه السلام. وقد نص القرآن على أن أيوب من الأنبياء الذين أوحى الله إليهم.

فقال تعالى: ﴿إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ﴾ (النساء: 163).

وقيل في زوجته أنها ليّا بنت يعقوب وقيل رحمة بنت أفرائيم بن يوسف وقيل هي منشا بنت يوسف بنت يعقوب.

وكانت الأرض التي عاش بها هي البثيئة من أرض حوران. ولم تورد التوراة تفصيلاً لاسمه وقد قالت: (كان رجل في أرض عَوصَ اسمه أيوب).

ويقول قاموس الكتاب المقدس: كان أيوب يقيم بالقرب من الصحراء في زمن كان يقوم فيه الكلدانيون بغزوات في الغرب وقد ذكره أحد الأنبياء التوراة وهو حزقيال في سفر حزقيال الإصحاح 14: 14 و16 و20.

والأمر المستغرب أن التوراة تورد له سفراً على الرغم من أنها لا تهتم إلا بنسل يعقوب ولا تهتم بنسل عيصو أخيه. ولكن عندما نقرأ في سفره فإننا نجد رجلاً لا يصح أن يكون نبياً. إذ فيه من التجديف على الله ما يقزز النفس. وحاشا لنبي من الأنبياء أن يكون مثل ما قالت التوراة.

وبالمحصلة فإن أيوب يعود بأصله إلى عيسو أو العيص. وهو ابن إسحاق ابن النبي إبراهيم عليه السلام.

يبقى أن نقول أن العيص أو عيسو حسب قول التوراة لم يكن متزوجاً أي امرأة من بني إسرائيل وإنما تزوج أولاً من كنعانية ثم تزوج من أبناء عمومته من نسل إسماعيل ولا ندري هل كانت أم النبي أيوب من الكنعانيين أم من الإسماعيليين أم من بني إسرائيل.

ومن ذرية النبي إبراهيم حسب نص الآية القرآنية زكريا ويحيى وعيسى والياس واليسع ويونس ولوط.

أما لوط فحسب جميع المصادر هو ابن أخ النبي إبراهيم آمن به وهاجر معه إلى الأرض المباركة وقد ضُم اسم لوط إلى بقية الأنبياء الذين أنجبهم النبي إبراهيم

على سبيل أن لوط ابن أخيه وفي العموم هم من ذرية واحدة. أما إلياس فهو نبي مرسل ويعيده النسابون والمؤرخون وكذلك بعض إشارات التوراة فيقولون هو إلياس التشبي ويقال ابن ياسين بن فنخاص بن أليعازر بن هارون وقيل إلياس بن أليعازر بن العازر بن هارون بن عمران. وقد جرت له قصة طويلة بالتوراة مع الملك الإسرائيلي آخاب بن عمري. وكان زمنه بعد موت النبي سليمان وانقسام أسباط بني إسرائيل.

لم تورد كتب التفاسير نسب النبي يونس إنما قالت هو يونس بن متى وذكرت أنه بعث لأهل نينوى بالقرب من الموصل.

وقد أوردت التوراة اسم يونس تحت اسم يونان وأوردت قصة الحوت. وتقول إن له سفراً باسمه وهو حسب قولها: كان يونان النبي بن أمتاي من سبط زبولون وزبولون هو أبناء يعقوب وهذا يعني أن يونس من ذرية النبي إبراهيم عليه السلام.

أما أليسع. فهو الأسباط بن عدي بن شوتلم بن أفراثيم بسن يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم عليهم السلام ويقال إنه ابن عم إلياس عليهما السلام.

أما زكريا، فهو حسب البداية والنهاية زكريا بن برخيا ويقال زكريا بن لدن بن سلم بن صدوق بن حشبان بن داود بن سليمان بن مسلم بن صديقه بن برخيا بن بلعاطة بن ناحور بن سلوم بن بهناشاط بن آبيا من بني رحبعام بن سليمان بن داود ويعود بنسبه إلى يهود أحد أولاد النبي يعقوب عليه السلام. ومن هنا نعلم أيضاً نسب يحيى ابنه فهو نفس النسب.

أما المسيح عليه السلام فيعود بنسبه من ناحية أمه إلى داود عليه السلام وداود يعود بنسبه إلى يهودا وهو أحد أولاد النبي يعقوب عليه السلام.

ويبقى حديثٌ عن النبي شعيب عليه السلام. فالقرآن لم يذكره من بين ذرية النبي إبراهيم عليه السلام. وهذا ما أشكل لدى بعض الدارسين. والسبب أن هناك أقوالاً ترى

أن شعيباً يعود بنسبه إلى مَدْين ابن النبي إبراهيم عليه السلام بمعنى جده من ناحية أبيه وبعضهم قال إن شعيباً عليه السلام آمن بإبراهيم مع لوط وهاجر معه وهذا يعني أنه ليس من نسله.

والواقع أن مسألة قد نتوقف عندها. ويمكن أن تكون أقرب إلى الواقع.

وهي أن إبراهيم تزوج من امرأة ثالثة كما تقول التوراة وأنجب منها ستة أولاد وقد ذكرت أسماءهم ومن بينهم مديان ومدين. وقد سميت قرية مدين الوارد ذكرها في القرآن الكريم على اسم مدين ابن النبي إبراهيم. وشعيب كما أورد ابن كثير هو ابن مدين.

فإذا كان كذلك فلماذا لم يرد اسم شعيب من بين الأنبياء الذين من ذرية إبراهيم؟ قد يكون السبب أن إسماعيل نبي وإسحاق نبي لكن مدين لم يكن نبياً فاعتبر شعيب من ذرية مدين دون ذكر مدين في القرآن الكريم على أنه ابن النبي إبراهيم. على أية حال فهناك قول بأن قوم شعيب كانوا أقرب زمناً من قوم لوط.

وقد قال ابن عساكر أن جدته أو أمه هي بنت لوط وكان ممن آمن بإبراهيم وهاجر معه وذكر وهب بن منبه أن شعيباً ممن آمن بإبراهيم يوم أحرق بالنار وهاجر معه إلى الشام فتزوج من ابنة لوط. وقد ذكر ذلك ابن قتيبة، وفي هذا كله نظر والله أعلم[1].

والدليل أن قوم شعيب كانوا الأقرب زمناً من قوم لوط قول الله تعالى:

﴿وَيَٰقَوْمِ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِيٓ أَن يُصِيبَكُم مِّثْلُ مَآ أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَٰلِحٍ ۚ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنكُم بِبَعِيدٍ﴾ (هود).

وكان أهل مَدين عرباً يسكنون مدين وهي أرض من منطقة معان من أطراف الشام مما يلي ناحية الحجاز قريباً من بحيرة لوط (البحر الميت).

---

(1) ابن كثير: البداية والنهاية.

والواقع أن الآية الكريمة تدل أن النبي شعيب جاء قبل موسى بأكثر من ستمائة سنة وأن القول بأن موسى صاهره ليس صحيحاً وإنما صاهر موسى رجلاً عجوزاً صالحاً من أهل مدين بعد أن نجّى الله المؤمنين وأهلك الكافرين من مدين ويقال أن الأنبياء من العرب هم هود وصالح وشعيب والنبي محمد ﷺ وكان بعض السلف يسمون شعيباً خطيب الأنبياء يعني لفصاحته وعلو عبارته وبلاغته في دعوة قومه إلى الإيمان برسالته.

والواقع لم يكن قوم لوط بعيدين عن قوم شعيب لا بالمكان ولا بالزمان.

استطراد:

من خلال دراستنا لنصوص التوراة يتبين لنا أن عدداً من الأنبياء كانت أمهاتهم من أقوام غير أقوام آبائهم وخاصة أنبياء بني إسرائيل وأن عدداً منهم أيضاً كانت زوجاتهم كذلك.

إبراهيم حسب نص التوراة تزوج ثلاث نساء. سارة وهي من حرّان أي أنها أقرب إلى قومه. وهاجر مصرية وقاطورة وهي كنعانية.

إسماعيل حسب الروايات تزوج من مصرية ـ ثم جرهمية.

إسحاق تزوج ابنة خاله من الكلدانيين.

يعقوب تزوج أربع نساء. اثنتان من بنات خاله واثنتان جاريتان ولا ندري من أي قوم كانتا.

يوسف تزوج من مصرية وحسب نص التوراة هي بنت فوطي فارع وهو كاهن مصري.

موسى تزوج بنت الشيخ الصالح من مدين وهي عربية وتدعوهما التوراة صفورة.

داود تزوج عدداً من النساء وكانت أم سليمان بتشبع وهي حثية وليست من بني إسرائيل.

سليمان تزوج العديد من النساء وغالبيتهن لسن من بني إسرائيل.

زوجة لوط كانت من القوم الذين بعثه الله لهم إذ أنه لما هاجر مع إبراهيم لم يكن متزوجاً وعلى الأغلب كان صغيراً باعتباره ابن أخي النبي إبراهيم وقد أردنا من هذا الاستطراد الردّ على اليهود الذين ينسبون أنفسهم إلى هؤلاء الأنبياء أو ينسبون الأنبياء إلى اليهودية بينما القانون اليهودي لا يعتبر أي شخص يهودياً إلا إذا كانت أمه يهودية.

ونلاحظ مما سبق اختلاط الأعراق اختلاطاً عجيباً فكيف يصح القانون اليهودي وما هو مقياسه في هذا الاختلاط العرقي. أو الاختلاط القبلي؟

فطبيعة الأمور الاجتماعية اقتضت أن يتزاوج الناس دون تمييز عنصري. والتوراة وقعت في مطب عنصري كبير حين قالت إن إبراهيم كره أن يزوج ابنه إسحاق من كنعانية وبعثه ليتزوج من ابنة خاله في حران. بينما إبراهيم نفسه يسمح لنفسه أن يتخذ قاطورة الكنعانية زوجة له.

فحقيقة هذه الزيجات تنفي نفياً قاطعاً ما يدعونه عن صفاء العرق الإسرائيلي وكره الزواج من أجنبيات أي من الأغيار.

استطراد:

نلاحظ أن النبوة لم تغادر المنطقة العربية فهي محصورة ما بين العراق والجزيرة العربية وأرض فلسطين والأردن وأن جميع الأقوام التي جازاها الله على شرورها وجدت في هذه المناطق.

نوح بعث لقومه الذين يسكنون المنطقة الواقعة شمال العراق.

إبراهيم بعث لقومه الذين سكنوا في بلاد الرافدين.

هود بعث لقومه الذين سكنوا إرم ذات العماد وهي في جنوب الجزيرة العربية.

صالح بعث لقومه الذين سكنوا الأحقاف الواقعة شمال الحجاز قريباً من الأردن.

لوط: بعث لقوم سكنوا في منطقة البحر الميت.

شعيب: بعث لقوم سكنوا مدين الواقعة في منطقة معان شمال الحجاز بالقرب من الأردن.

موسى: بعث لقومه في صحراء سيناء وكان معه أخوه النبي هارون.

داود: بعث لبني إسرائيل في بعض مناطق فلسطين.

سليمان: بعث لبني إسرائيل في بعض مناطق فلسطين.

إلياس: بعث لبني إسرائيل في بعض مناطق فلسطين.

أيوب: بعث لقومه الذين سكنوا في أرض موآب في الأردن.

يونس: بعث لقوم كانوا يسكنون نينوى بالقرب من الموصل.

المسيح: بعث لبني إسرائيل في بعض أجزاء فلسطين.

محمد ﷺ بعث للعالمين من قلب الجزيرة العربية من مكة.

ولو نظرنا إلى مركزية الرسالة الإسلامية لوجدنا أن رسالة الإسلام كانت من مركز الرسالات. وجميع الرسالات كانت من حولها شمالاً وجنوباً وغرباً وشرقاً. لذلك نرى الارتباط بين رسالة إبراهيم ورسالة النبي محمد صلوات الله عليهما بالبيت الحرام الذي هو مركز وحيد تنظر إليه جميع الرسالات بالتقديس والتكريم.

لذلك أيضاً إن انطلاق إبراهيم كان مكة. أما أولاده وأحفاده فكانوا في الجوانب الجغرافية حتى بعث الله محمداً ﷺ من مكة وبذلك عادت الرسالة العالمية إلى مكة وجمعت بين إبراهيم ومحمد صلى الله عليهما وسلم جميع الرسالات والأنبياء الذين بعثهم الله لأقوامهم تحديداً ولم تكن رسالاتهم عالمية إنسانية إنما كانت محدودة في قوم وفي منطقة محددة.

صحف إبراهيم

أشار القرآن الكريم إلى كتب سماوية أنزلت على الأنبياء وهذه الكتب حسب نزولها التوراة والإنجيل والقرآن. وقد آتى الله سبحانه موسى الكتاب مسطوراً على ألواح

وأصبح هذا الكتاب جزءاً من التوراة التي أنزلت على بني إسرائيل بدءاً من النبي موسى عليه السلام. وأنزل الإنجيل على النبي عيسى عليه السلام وأنزل القرآن على النبي محمد ﷺ.

وأشار القرآن الكريم إلى صحف إبراهيم وموسى. فقال تعالى:

﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ﴿١٤﴾ وَذَكَرَ ٱسْمَ رَبِّهِۦ فَصَلَّىٰ ﴿١٥﴾ بَلْ تُؤْثِرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿١٦﴾ وَٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴿١٧﴾ إِنَّ هَٰذَا لَفِى ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ ﴿١٨﴾ صُحُفِ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ ﴾.

وقد تبين معنا أن صحف موسى عليه السلام أنزلت عليه قبل الكتاب وهي صحف تسلح بها النبي موسى عندما أُمر أن يذهب إلى فرعون. وأنزل الزبور على داود عليه السلام وربما أنزل الله سبحانه كتباً وصحفاً أخرى على أنبياء آخرين ولكن لا ندري عنها شيئاً لأن القرآن لم يصرح بذلك.

أما صحف إبراهيم عليه السلام. فقد وردت أحاديث من المصطفى ﷺ تفصل محتواها. وأورد المفسرون شيئاً منها.

فقد ورد في تاريخ الطبري قوله: وكان مما أنزل الله تعالى على إبراهيم عليه السلام من الصحف فيما قيل عشر صحائف. كذلك حدثني أحمد بن عبد الرحمن بن وهب قال أخبرني عمي عبدالله بن وهب قال حدثني الماضي بن محمد عن أبي سليمان عن القاسم بن محمد عن أبي إدريس الخولاني عن أبي ذر الغفاري قال: قلت يا رسول الله كم كتاب أنزله الله قال: مائة كتاب وأربعة كتب أنزل الله عز وجل على آدم عليه السلام عشر صحائف وعلى شيث خمسين صحيفة وأنزل على أخنوع (إدريس) ثلاثين صحيفة وأنزل على إبراهيم عشر صحائف وأنزل جل وعز التوراة والإنجيل والزبور والفرقان. قلت يا رسول الله فما كانت صحف إبراهيم؟ قال: كانت أمثالاً كلها.

(أيها الملك المتسلط المبتلى المغرور إني لم أبعثك لتجمع الدنيا بعضها إلى بعض. ولكن بعثتك لترد عني دعوة المظلوم فإني لا أردها وإن كانت من كافر. وكانت فيها أمثال: وعلى العاقل ما لم يكن مغلوباً على عقله أن يكون له ساعات. ساعة يناجي

فيها ربه وساعة يفكر فيها في صنع الله عز وجل. وساعة يحاسب فيها نفسه فيما تقدم وآخر وساعة يخلو فيها لحاجته من الحلال في المطعم والمشرب. وعلى العاقل ألا يكون ظاعناً إلا في ثلاث: تزوُّدٍ لمعاده ومرمة لمعاشه ولذة في غير محرم.. وعلى العاقل أن يكون بصيراً بزمانه مقبلاً على شأنه حافظاً للسانه. ومن حسب كلامه من عمله قلّ كلامه إلا في ما يعنيه)[1].

وأخرج البزار وابن المنذر والحاكم وصححه وابن مردويه عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: لما نزلت (إن هذا لفي الصحف الأولى صحف إبراهيم وموسى قال رسول الله ﷺ: وهي كلها في صحف إبراهيم وموسى).

وأخرج سعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله إن هذا لفي الصحف الأولى قال نسخت هذه السورة من صحف إبراهيم وموسى ولفظ سعيد: هذه السورة في صحف إبراهيم وموسى. وأخرج ابن أبي حاتم عن السدي أن هذه السورة في صحف إبراهيم وموسى مثلما نزلت على النبي ﷺ.

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن أبي العالية رضي الله عنه (إن هذا لفي الصحف الأولى يقول قصة هذه السورة في الصحف الأولى.

وأخرج عبد الرزاق وابن جرير وابن المنذر عن قتادة رضي الله عنه (إن هذا لفي الصحف الأولى الآية قال: في الصحف الأولى إن الآخرة خير من الدنيا[2].

هذا ولم تشر التوراة مطلقاً إلى ما أنزل على النبي إبراهيم. وهذا إما لجهل من كاتب التوراة أو انتقاص من نبوة النبي إبراهيم عليه السلام. وذلك قد يكون مقصوداً من قبلهم.

---

(1) ابن جرير الطبري. تاريخ الطبري تاريخ الأمم والملوك المجلد الأول ص 105.

(2) السيوطي: الدر المنثور في التفسير المأثور ص 570 ـ 571 المجلد السادس.

ومن خلال سياق الآيات التي تحدثت عن النبي إبراهيم وجداله مع الملك الذي ادعى الألوهية وهو على الأغلب النمرود نستدل أن إبراهيم عليه السلام كان متسلحاً بهذه الصحف والله أعلم.

ومن الطبيعي أن يسير أبناء النبي إبراهيم على نهجه فإسماعيل نبي وإسحاق نبي وكذلك يعقوب ويوسف ولم ينزل الله سبحانه كتاباً على هؤلاء وقد أنزلت التوراة من بعدهم بكثير. فلا بد أن يكون ما أنزل على النبي إبراهيم قد وصل إليهم جميعاً وساروا على نهجه في السلوك الحياتي إضافة لما أوحى الله إليهم من عقيدة التوحيد والدعوة إلى دين الله.

الفصل الرابع

إبراهيم في الإرث المسيحي

من المعروف أن المسيحية التي وصلتنا من خلال الأناجيل الأربعة وما أنتجه الكهنة ورجال الدين من تفسيرات وتطويرات في المسيحية استندت على كتاب التوراة في كثير من الأمور ولا سيما في التشريع. وقد كان للنبي إبراهيم نصيب وافر من الحديث في الأناجيل والدراسات المسيحية الكهنوتية القديمة والحديثة والمعاصرة وكل ما جاء في الأناجيل الأربعة ورسائل الرسل يستند على ما روته التوراة في سفر التكوين. وقد كثرت التفسيرات حتى دخل فيها الحس الفلسفي مما أبعدها عن حقيقة شخصية هذا النبي وأبنائه إسماعيل وإسحاق.

وبالمحصلة فإن الأناجيل الأربعة كانت صدى لما تردد في التوراة من حيث قصة إبراهيم وأبنائه.

ويجدر بنا أن نلاحظ أن التوراتيين لا يعترفون بالمسيح نبياً مرسلاً حتى هذه اللحظة وخاصة تلك الفرق اليهودية التلمودية أمثال الفريسيين وورثتهم من اليهود الأرثوذكس وهم الأكثرية اليوم. كذلك لا يعترفون بالإنجيل مطلقاً ولا يعترفون بأن الله نزّله. لكنهم اليوم يسكتون عما يقوله المسيحيون. وخاصة البروتستانت الذين يرون أنفسهم شركاء وإخوة في إرث النبي إبراهيم ووعد الله له بامتلاك الأرض المباركة.

ويبدو أن استناد المسيحيين وخاصة البروتستانت على مقولة الشراكة مع اليهود بإبراهيم جاءت من كون السيد المسيح ينتسب إلى النبي داود الذي ينتسب إلى يهودا بن يعقوب الذي هو حفيد النبي إبراهيم. ومن كون المسيح عليه السلام من بني إسرائيل بُعث ليتمم الناموس الذي نزل على موسى وأنبياء بني إسرائيل من بعده وكما فعلت التوراة بتهميش النبي إسماعيل فإن المسيحية تهمش النبي إسماعيل بل ويبالغ البروتستانت في هذا التهميش إلى حد مبالغ فيه. بل ويعتبرون إسماعيل ابن

جارية ليس له مكانة في قدسية أبناء إسحاق. ومنه يستنتجون أن النبي محمداً ﷺ خارج عن التقديس بل ويهاجمونه ويهاجمون دين الإسلام حتى يومنا هذا. بل ولا يعترفون بنبوته ورسالته والقرآن الذي أنزل عليه. ففي إنجيل متى يبدأ الكاتب بالحديث عن نسب يسوع. وأول جملة ترد في هذا الإنجيل (نسب يسوع المسيح ابن داود ابن إبراهيم) ثم يأخذ بإيراد سلسلة طويلة من الأسماء. فإبراهيم ولد إسحاق وإسحاق ولد يعقوب ويعقوب ولد يهودا وإخوته ويهودا ولد فارص...) وحسب هذا الإنجيل فمجموع الأجيال من إبراهيم إلى داود أربعة عشر جيلاً ومن داود إلى الجلاء إلى بابل أربعة عشر جيلاً ومن الجلاء إلى بابل إلى المسيح أربعة عشر جيلاً).

ويرد في هذا الإنجيل قول على لسان يوحنا المعمدان (يحيى) وهو يؤنب اليهود: (أقول لكم إن الله قادر على أن يُخرج من هذه الحجارة أبناء لإبراهيم) وكان هذا القول رداً على اليهود الذين حاولوا أن يتمسحوا بإبراهيم كحجة لهم ليفعلوا الحرام فقال لهم هذه المقولة.

ويرد في إحدى مواعظ السيد المسيح في الفصل الثامن من إنجيل متى قوله:

أقول لكم: سوف يأتي أناس كثيرون من المشرق والمغرب فيجالسون إبراهيم وإسحاق ويعقوب على المائدة في ملكوت السموات).

وهذه الموعظة قالها السيد المسيح لكي يبين للناس أن هناك أناساً مؤمنين تصل مرتبتهم إلى أن يكونوا مع الأنبياء في الجنة وهؤلاء الناس ليسوا من هؤلاء الذين يعيشون مع السيد المسيح أو يعيشون في بقعة محددة وقد قال من المشرق والمغرب وهذا يؤكد مسألة الإيمان التي لا تقتصر على فئة دون فئة أو شخص دون شخص وقد ورد في إنجيل لوقا نشيد على لسان مريم أم السيد المسيح وقد جاء فيه: تعظمُ الربَّ نفسي وتبتهج روحي بالله مخلصي لأنه نظر إلى أَمَتِه الوضيعة سوف تهنئني بعد اليوم جميع الأجيال لأن القدير صنع إليّ أموراً عظيمة قدوس اسمه ورحمته من جيل إلى جيل للذين يتقونه. كشف عن شدة ساعده فشتت المتكبرين في

قلوبهم خلع الأقوياء عن العروش ورفع الوضعاء. أشبع الجياع من الخيرات والأغنياء صرفهم فارغين. نصر عبده إسرائيل ذاكراً كما قال لآبائنا رحمته لإبراهيم وذريته للأبد.

وفي التعليق على نشيد مريم جاء على هامش إنجيل لوقا (إن أعظم تلك المعاني انتصار الله للفقراء والمساكين في وجه الأغنياء والأقوياء وعطف الله على شعبه لما وعد به إبراهيم خليله وأبي المؤمنين)[1].

وقد وردت عبارة إن أبانا إبراهيم في إنجيل لوقا وقد رأيناها بداية في إنجيل متى وكذلك يرد في لوقا نسب يسوع الذي يصل إلى إبراهيم وذلك في الفصل الثالث من هذا الإنجيل.

وقد ورد نص في إنجيل يوحنا تحت عنوان يسوع وإبراهيم جاء فيه:

(إن ثبتّم في كلامي كنتم حقاً تلاميذي، تعرفون الحق والحق يحرركم. أجابوه نحن ذرية إبراهيم لم نكن يوماً عبيداً لأحد فكيف تقول ستصيرون أحراراً فأجابهم يسوع: الحق أقول لكم: كل من يرتكب الخطيئة يكون عبداً للخطيئة والعبد لا يقيم في البيت دائماً أبداً بل الابن يقيم فيه للأبد. فإذا حرركم الابن كنتم أحراراً حقاً. أنا أعلم أنكم ذرية إبراهيم ولكنكم تريدون قتلي لأن كلامي لا يجد إليكم سبيلاً. أنا أتكلم بما رأيت عند أبي. وأنتم تعملون بما سمعتم عن أبيكم فأجابوه إن أبانا هو إبراهيم فقال لهم يسوع إذا كنتم أبناء إبراهيم عملتم أعمال إبراهيم ولكنكم تريدون قتلي أنا الذي قال لكم الحق الذي سمعه من الله وذلك عمل لم يعمله إبراهيم أنتم تعملون أعمال أبيكم).

ويرد في هذا النص أيضاً: قال له اليهود الآن عرفنا أن بك مسّاً من الشيطان مات إبراهيم ومات الأنبياء وأنت تقول من يحفظ كلامي لا يذقِ الموت أبداً أأنت أعظم من أبينا إبراهيم الذي مات.

---

(1) إنجيل لوقا الفصل 1 ص 232.

وجاء فيه أيضاً: ابتهج أبوكم إبراهيم راجياً أن يُرى يومي ورآه ففرح. ويُعلَق في هذه الإنجيل على هذه الفقرة بقوله:

يوم مجيء يسوع ومجده. في يسوع تم ما وعد الله إبراهيم بأن يكثر نسله كالنجوم في السماء والرمل على شاطئ البحر لأن المؤمنين بيسوع هم ذرية إبراهيم الحقيقية[1].

ويرد أيضاً: قال له اليهود أرأيت إبراهيم وما بلغت الخمسين.

فقال لهم يسوع الحق الحق أقول لكم قبل أن يكون إبراهيم أنا هو فأخذوا حجارة ليرموه بها فتوارى يسوع وخرج من الهيكل وقد وردت أمور عديدة في إنجيل برنابا تخص النبي إبراهيم.

منها ما ورد في الفصل الثالث عشر تحت عنوان خوف يسوع وصلاته وتعزية الملاك جبريل العجيبة:

(فأجاب الملاك جبريل: انهض يا يسوع واذكر إبراهيم الذي كان يريد أن يقدم ابنه الوحيد إسماعيل ذبيحة لله ليتم كلام الله فلما لم تقو المديةُ على ذبح ابنه قدم عملاً بكلمتي كبشاً. فعليك أن تفعل ذلك يا يسوع خادم الله)[2].

وجاء في الفصل السابع عشر (ولما قال هذا تنهد يسوع وقال ارأف بإسرائيل أيها الرب الإله وانظر بشفقة على إبراهيم وعلى ذريته لكي يخدموك بإخلاص قلب).

وجاء في الفصل الرابع والعشرين:

أقول لكم إنه كان نهم غني لم يهمه سوى النهم. وكان يولم وليمة عظيمة كل يوم وكان واقفاً على بابه فقير يدعى لعازر وهو ممتلئ قروحاً ويشتهي أن يشبع من الفتات الساقط من مائدة النهم. ولكن لم يعطه أحد إياه بل سخر به الجميع ولم

---

(1) إنجيل متى ص 395.

(2) إنجيل برنابا ص 15.

يتحنن عليه إلا الكلاب لأنها كانت تلحس قروحه وحدث أن مات الفقير واحتملته الملائكة إلى ذراعي إبراهيم أبينا ومات الغني أيضاً واحتملته الشياطين إلى ذراعي إبليس حيث عانى أشد العذاب فرفع عينيه ورأى لعازر من بعيد على ذراعي إبراهيم. فصرخ حينئذٍ الغني يا أبتاه إبراهيم ارحمني وابعث لعازر ليحمل لي على أطراف بنانه قطرة ماء تبرّد لساني الذي يعذب في هذا اللهيب. فأجاب إبراهيم: يا بني اذكر أنك استوفيت طيباتك في حياتك ولعازر البلايا لذلك أنت الآن في الشقاء وهو في العزاء.

فصرخ الغني أيضاً يا أبتاه إبراهيم إن لي في بيت أبي ثلاثة إخوة فأرسل إذاً لعازر ليخبرهم بما أعانيه لكي يتوبوا ولا يأتوا إلى هنا فأجاب إبراهيم عندهم موسى والأنبياء فليسمعوا منهم. أجاب الغني: (كلا يا أبتاه إبراهيم بل إذا قام واحد من الأموات يصدقون. فأجاب إبراهيم: إن من لا يصدق موسى والأنبياء لا يصدق الأموات ولو قاموا)[1].

وللقصة رموزها.

ويرد في إنجيل برنابا أربعة فصول هي السادس والعشرون والسابع والعشرون والثامن والعشرون والتاسع والعشرون. تتحدث عن إبراهيم وعن قسط من حياته يقول برنابا: أجاب يسوع: كل كلمة من كلماتي صادقة لأنها ليست مني بل من الله الذي أرسلني إلى بيت إسرائيل لذلك أقول لكم إن كل ما عندكم قد أنعم الله به عليكم فأي الأمرين أعظم قيمة العطية أم المعطي؟ فمتى كان أبوك وأمك أو غيرهما عثرة لك في خدمة الله فانبذهم كأنهم أعداء (ألم يقل الله لإبراهيم اخرج من بيت أبيك وأهلك وتعالى اسكن في الأرض التي أعطيها لك ولنسلك. ولماذا قال الله ذلك أليس لأن أبا إبراهيم كان صانع تماثيل يصنع ويعبد آلهة كاذبة لذلك بلغ العداء بينهما حداً أراد معه الأب أن يحرق ابنه.

---

(1) إنجيل برنابا الفصل الرابع والعشرون ص 33.

أجاب بطرس: إن كلماتك صادقة وإني أضرع إليك أن تقص علينا كيف سخر إبراهيم من أبيه.

أجاب يسوع كان إبراهيم ابن سبع سنين لما ابتدأ أن يطلب الله فقال يوماً لأبيه: يا أبتاه من صنع الإنسان؟

أجاب الوالد الغبي: الإنسان لأني أنا صنعتك وأبي صنعني.

فأجاب إبراهيم: يا أبي ليس الأمر كذلك لأني سمعت شيخاً ينتحب ويقول يا إلهي لماذا لم تعطني أولاداً.

أجاب أبوه: حقاً يا بني الله يساعد الإنسان ليصنع إنساناً ولكنه لا يضع يده فيه فلا يلزم الإنسان إلا أن يتقدم ويضرع إلى إلهه ويقدم له حملاناً وغنماً يساعده إلهه.

أجاب إبراهيم: كم إلهاً هنالك يا أبي؟

أجاب الشيخ لا عدد لهم يا بني.

فحينئذٍ أجاب إبراهيم: ماذا أفعل يا أبي إذا خدمت إلهاً وأراد بي الآخر شراً لأني لا أخدمه. ومهما يكن من الأمر فإنه يحصل بينهما شقاق ويقع الخصام بين الآلهة ولكن إذا قتل الإله الذي يريد بي شراً إلهي فماذا أفعل من المؤكد أنه يقتلني أيضاً فأجاب الشيخ ضاحكاً: لا تخف يا بني لأنه لا يخاصم إله إلهاً كلا فإن في الهيكل الكبير ألوفاً من الآلهة مع الإله الكبير بعل وقد بلغت الآن سنة من العمر ومع ذلك فإني لم أر قط إلهاً ضرب إلهاً آخر. ومن المؤكد أن الناس كلهم لا يعبدون إلهاً واحداً بل يعبد واحد إلهاً وآخر آخر.

أجاب إبراهيم: فإذاً يوجد وفاق بينهم.

أجاب أبوه: نعم يوجد.

فقال حينئذٍ إبراهيم يا أبي أي شيء تشبه الآلهة؟

أجاب الشيخ: يا غبي إني في كل يوم أصنع إلهاً أبيعه لآخرين لأشتري خبزاً وأنت لا تعلم كيف تكون الآلهة. وكان في تلك الدقيقة يصنع تمثالاً. فقال هذا من

خشب النخل وذاك من الزيتون وذلك التمثال الصغير من العاج انظر ما أجمله ألا يظهر كأنه حي حقاً لا يعوزه إلا النفس.

أجاب إبراهيم: إذاً يا أبي ليس للآلهة نفس فكيف يهبون الأنفاس ولما لم تكن لهم حياة فكيف يعطون إذاً الحياة؟ فمن المؤكد يا أبي أن هؤلاء ليسوا هم الله.

فحنق الشيخ لهذا الكلام قائلاً لو كنت بالغاً من العمر ما تتمكن معه من الإدراك لشججت رأسك بهذا الفأس. لكن اصمت إذ ليس لك إدراك.

أجاب إبراهيم: يا أبي إن كانت الآلهة تساعد على صنع الإنسان فكيف يأتي للإنسان أن يصنع آلهة وإذا كانت الآلهة مصنوعة من خشب فإن إحراق الخشب خطيئة كبرى ولكن قل لي يا أبت كيف وأنت قد صنعت آلهة هذا عديدها لم تساعدها الآلهة لتصنع أولاداً كثيرين فتصير أقوى رجل في العالم.

فحنق الأب لما سمع ابنه يتكلم هكذا. فأكمل الابن قائلاً: يا أبت هل وجد العالم حيناً من الدهر بدون بشر؟

أجاب الشيخ: نعم لماذا؟

قال إبراهيم: لأني أحب أن أعرف من صنع الإله الأول.

فقال الشيخ: انصرف الآن من بيتي ودعني أصنع هذا الإله سريعاً ولا تكلمني كلاماً. فمتى كنت جائعاً فإنك تشتهي خبزاً لا كلاماً.

فقال إبراهيم: إنه لإله عظيم فإنك تقطعه كما تريد وهو لا يدافع عن نفسه.

فغضب الشيخ وقال: إن العالم بأسره يقول إنه إله وأنت أيها الغلام الغبي تقول كلا فوآلهتي لو كنتَ رجلاً لقتلتك ولما قال هذا ضرب إبراهيم ورفسه وطرده من البيت.

ويتابع برنابا في الفصل السابع والعشرين قوله:

فضحك التلاميذ من حمق الشيخ ووقفوا منذهلين من فطنة إبراهيم.

ويقول: حينئذٍ قال فيلبس: يا معلم كيف حدث أن أبا إبراهيم أحب أن يحرق ابنه أجاب يسوع: لما بلغ إبراهيم اثنتي عشرة سنة من العمر قال له أبوه يوماً: غداً

عيد كل الآلهة فلذلك سنذهب إلى الهيكل الكبير ونحمل هدية لإلهي بعل العظيم وأنت تنتخب لنفسك إلهاً لأنك بلغت سناً يحق لك معه اتخاذ إله.

فأجاب إبراهيم بمكر: سمعاً وطاعة يا أبي فبكّرا في الصباح إلى الهيكل قبل كل أحد ولكن إبراهيم كان يحمل تحت صورته فأساً مستورة. فلما دخلا الهيكل وازداد الجمع خبأ إبراهيم نفسه وراء صنم في ناحية مظلمة في الهيكل. فلما انصرف أبوه ظن أن إبراهيم سبقه إلى البيت ولذلك لم يمكث ليفتش عنه.

ويتابع في الفصل الثامن والعشرين: ولما انصرف كل أحد من الهيكل أقفل الكهنة الهيكل وانصرفوا فأخذ إبراهيم إذ ذاك الفأس وقطع قوائم جميع الأصنام إلا الإله الكبير بعلاً فوضع الفأس عند قوائمه بين جذاذ التماثيل التي تساقطت قطعاً لأنها كانت قديمة العهد ومؤلفة من أجزاء.

ولما كان إبراهيم خارجاً من الهيكل رآه جماعة من الناس فظنوا أنه دخل ليسرق شيئاً من الهيكل فأمسكوه ولما بلغوا به الهيكل ورأوا آلهتهم محطمة قطعاً صرخوا منتحبين (أسرعوا يا قوم ولنقتل الذي قتل آلهتنا) فهرع إلى هناك نحو عشرة آلاف رجل مع الكهنة وسألوا إبراهيم عن السبب الذي لأجله حطم آلهتهم.

أجاب إبراهيم: إنكم لأغبياء أيقتل الإنسان الله. إن الذي قتلها إنما هو الإله الكبير. ألا ترون الفأس التي له عند قدميه إنه لا يبتغي له أنداداً.

فوصل حينئذٍ أبو إبراهيم الذي ذكر أحاديث إبراهيم في آلهتهم وعرف الفأس التي حطم بها إبراهيم الأصنام. فصرخ إنما قتل آلهتنا ابني الخائن هذا لأن هذه الفأس فأسي وقص عليهم كل ما جرى بينه وبين ابنه.

فجمع القوم مقداراً كبيراً من الحطب وربطوا يدي إبراهيم ورجليه ووضعوه على الحطب ووضعوا ناراً تحته. فإذا الله قد أمر النار بواسطة ملاكه جبريل أن لا تحرق عبده إبراهيم فاضطرمت النار باحتدام وحرقت نحو ألفي رجل من الذين حكموا على إبراهيم بالموت أما إبراهيم فوجد نفسه مطلق السراح إذ حمله ملاك الله إلى مقربة من بيت أبيه دون أن يُرى من حمله وهكذا نجا إبراهيم من الموت.

ويستمر الحديث في الفصل التاسع والعشرين:

حينئذٍ قال فيلبس ما أعظمها رحمة الله للذين يحبونه قل لنا يا معلم كيف وصل إلى معرفة الله.

أجاب يسوع: لما بلغ إبراهيم جوار بيت أبيه خاف أن يدخل البيت فانتقل إلى بعد عن البيت وجلس تحت شجرة نخل حيث لبث منفرداً وقال لابد من وجود إله ذي حياة وقوة أكثر من الإنسان لأنه يصنع الإنسان. والإنسان بدون الله لا يقدر أن يصنع الإنسان حينئذٍ التفت حوله وأجال نظره في النجوم والقمر والشمس فظن أنها هي الله ولكن بعد التبصر في تغيراتها وحركاتها قال: يجب أن لا تطرأ على الله الحركة ولا تحجبه الغيوم وإلا فنى الناس. وبينما هو متحير سمع اسمه يُنادى يا إبراهيم فلما التفت ير أحداً في جهة قال: إني سمعت يا إبراهيم ثم سمع اسمه يُنادى مرتين أخريين يا إبراهيم فأجاب من يناديني. حينئذٍ سمع قائلاً يقول: إنه أنا ملاك الله جبريل.

فارتاع إبراهيم ولكن الملاك سكن روعه قائلاً: لا تخف يا إبراهيم لأنك خليل الله فإنك لما حطمت آلهة الناس تحطيماً اصطفاك إله الملائكة والأنبياء حتى إنك كتبت في سفر الحياة.

حينئذٍ قال إبراهيم: ماذا يجب علي أن أفعل لأعبد إله الملائكة والأنبياء الأطهار.

فأجاب الملاك: اذهب إلى ذلك الينبوع واغتسل لأن الله يريد أن يكلمك.

أجاب إبراهيم كيف ينبغي أن أغتسل.

فتبدى له حينئذٍ الملاك يافعاً جميلاً واغتسل من الينبوع قائلاً افعل كذلك بنفسك يا إبراهيم. فلما اغتسل إبراهيم قال الملاك: ارتق ذلك الجبل لأن الله يريد أن يكلمك هناك.

فارتقى إبراهيم الجبل كما قال له الملاك ولما جثا على ركبتيه قال لنفسه متى يا ترى يكلمني إله الملائكة فسمع صوتاً لطيفاً يناديه يا إبراهيم فأجابه إبراهيم من يناديني؟

فأجاب الصوت: أنا إلهك يا إبراهيم. أما إبراهيم فارتاع وعفر بوجهه الأرض قائلاً: كيف يصغي عبدك إليك وهو تراب ورماد.

حينئذٍ قال الله لا تخف بل انهض لأني قد اصطفيتك عبداً لي وإني أريد أن أباركك وأجعلك شعباً عظيماً فاخرج إذاً من بيت أبيك وأهلك وتعال اسكن في الأرض التي أعطيكها أنت ونسلك.

فأجاب إبراهيم: إني لفاعل كل ذلك يا رب ولكن احرسني لكيلا يضرني إله آخر.

فتكلم الله قائلاً: أنا الله أحد ولا إله غيري أضرب وأشفي أميت وأحيي أنزل الجحيم وأخرج منه ولا يقدر أحد أن ينقذ نفسه من يدي. ثم أعطاه الله عهد الختان وهكذا عرف الله أبونا إبراهيم.

وجاء في الفصل السادس والتسعين:

أجاب يسوع لعمر الله الذي تقف بحضرته نفسي إني لست مسيّا الذي تنتظره كل قبائل الأرض كما وعد الله أبانا إبراهيم قائلاً بنسلك أبارك كل قبائل الأرض.

وجاء في الفصل الثالث والأربعين:

أجاب يعقوب: يا معلم قل لنا بمن صنع هذا العهد فإن اليهود يقولون بإسحاق والإسماعيليون يقولون بإسماعيل.

أجاب يسوع: ابن من كان داود ومن أي ذرية؟

أجاب يعقوب من إسحاق لأن إسحاق كان أبا يعقوب ويعقوب كان أبا يهوذا الذي من ذريته داود.

فأجاب يسوع: لا تغشوا أنفسكم لأن داود يدعوه في الروح رباً قائلاً هكذا: قال الله لربي اجلس عن يميني حتى أجعل أعداءك موطئاً لقدميك. يرسل الرب قضيبك الذي سيكون ذا سلطان في وسط أعدائك فإذا كان رسول الله الذي تسمونه مسيّا بن داود فكيف يسميه داود رباً صدقوني لأني أقول لكم الحق إن العهد صنع بإسماعيل لا بإسحاق.

وجاء في الرابع والأربعين: فكلم الله حينئذٍ إبراهيم قائلاً خذ ابنك بكرك إسماعيل واصعد الجبل لتقدمه ذبيحة فكيف يكون إسحاق البكر وهو لما ولد كان إسماعيل ابن سبع سنين.

فقال حينئذٍ التلاميذ: إن خداع الفقهاء لجلي لذلك قل لنا أنت الحق لأننا نعلم أنك مرسل من الله.

وجاء في الفصل 99: وأحب إبراهيم ابنه إسماعيل أكثر قليلاً مما ينبغي لذلك أمر الله إبراهيم أن يذبح ابنه ليقتل المحبة الأثيمة في قلبه وهو أمر كان فعله لو قطعت المدية.

وجاء في الفصل الحادي والتسعين بعد المئة:

(لقد رأيت كتيباً قديماً مكتوباً بيد موسى ويشوع خادمي ونبيّ الله. وهو كتاب موسى الحقيقي ففيه مكتوب إن إسماعيل هو أبو المسيّا وإسحاق أبو الرسول مسيا وهكذا يقول الكتاب أن موسى قال: أيها الرب إله إسرائيل القدير الرحيم أظهر لعبدك في سناء مجدك. فأراه الله من ثمّ رسوله على ذراعي إسماعيل وإسماعيل على ذراعي إبراهيم ووقف على مقربة من إسماعيل إسحاق وكان على ذراعيه طفل يشير بإصبعه إلى رسول الله قائلاً هذا هو الذي لأجله خلق الله كل شيء. فصرخ من ثم موسى بفرح: يا إسماعيل إن في ذراعيك العالم كله والجنة. اذكرني أنا عبدالله لأجد نعمة في نظر الله بسبب ابنك الذي لأجله صنع الله كل شيء).

وهناك فقرات متفرقة صغيرة في هذا الإنجيل تذكر النبي إبراهيم بكل صراحة وبشكل عام فإن الأناجيل الأربعة تردد صدى ما تقوله التوراة بشأن النبي إبراهيم وأولاده. بينما إنجيل برنابا يكاد يتوافق مع القرآن الكريم في أهم مفاصل حياة النبي إبراهيم. وأهمها تحطيم الأصنام. ونجاته إلى الأرض المباركة وإسماعيل الذبيح وما إلى ذلك من متفرقات.

وهنا لابد أن نتوقف عند الإرث المسيحي الفكري والتاريخي الذي جاء مفسراً لما ورد في التوراة والأناجيل الأربعة ورسائل الرسل الملحقة بالأناجيل.

وملخص ما يذكره العهد الجديد ـ الأناجيل ـ عن إبراهيم يرد في قاموس الكتاب المقدس حين يقول:

يدعى إبراهيم في العهد الجديد أبا لبني إسرائيل والكهنوت اللاوي وأبا للمسيح وأبا لكل المسيحيين كمؤمنين. وأما البركات التي بورك بها فقد وردت في العهد الجديد بأسماء متنوعة منها. الوعد وبركة ورحمة والقسم ـ والعهد وقد قال المسيح إن إبراهيم رأى يومه وخرج ويذكر العهد الجديد إبراهيم كمثال للتبرير بالإيمان وكذلك ذكره كمثال للأعمال الصالحة التي بها أكمل الإيمان وقد أشار المسيح إلى مكانته السامية بين القديسين في السماء[1].

وبشكل عام لا تنفصل الرؤية المسيحية عن الرؤية التوراتية. فكما جاء في التوراة تنقل سيرة النبي إبراهيم إلى التراث المسيحي على ما فيها من أكاذيب وتلفيقات وعلى ما فيها من تناقض.

لكنْ ما يلفت النظر هو الغلو والمبالغة لدى المسيحية البروتستانتية خاصة الحركات التي انتشرت في أميركا. مثل حركة القيادة الوطنية المسيحية لإسرائيل. والمؤتمر الوطني المسيحي. والاتحاد الأميركي من أجل سلامة أميركا. وللصوت المسيحي. والأكثرية الأخلاقية. والقدرية التدبيرية.

ويربطون الفكر المسيحي البروتستانتي بالصهيونية ودعوتها لاحتلال أرض فلسطين بمعنى أن الإرث المسيحي لم يعد إرثاً دينياً بل أصبح إرثاً سياسياً له أبعاد إيديولوجية.

فمثلاً أرض الميعاد لم تعد في الفكر المسيحي تعني رقعة جغرافية مادية بل أصبحت تعني حقيقة روحية فهي مملكة الله أي الجنة.

---

(1) قاموس الكتاب المقدس ص 12.

وعلى ذلك يقول القديس بولس: بالإيمان تغرب إبراهيم في أرض الموعد كأنها غريبة ساكناً في خيام مع إسحاق ويعقوب الوارثين معه لهذا الموعد عينه لأنه كان ينتظر المدينة التي بها الأساسات التي صابغُها وبارئها الله. رسائل بولس إلى العبرانيين 11: 9 ـ 10. وطبقاً للعهد الجديد فإن ورثة أرض الميعاد الروحية ليسوا بني إسرائيل وإنما هم جميع المؤمنين بالمسيح لأنهم نسل إبراهيم الحقيقيون. ويقول بولس في ذلك فإن كنتم للمسيح فأنتم إذاً نسل إبراهيم وحسب الموعد ورثة.

ويعتقد الإنجيليون أنه عندما خلق الله الكون أعطى بركته لليهود. من أجل ذلك فإن اليهود هم أفضل ويختلفون عن غير اليهود. إن الله أراد منذ أول الأمر أن يحصل اليهود على ملكية الأرض المقدسة. لقد حسم الله هذا الأمر ومنح كل هذه الأرض لليهود.

ويرون أيضاً أن القول بأن أرض إسرائيل من نهر مصر إلى النهر الكبير نهر الفرات يعني أن هذه الأراضي الواقعة بين النهرين تقع ضمن العطاء الإلهي لإبراهيم ويرون أن الله منح الأرض المقدسة لإبراهيم وابنه يعقوب وليس لإسماعيل الابن الآخر لإبراهيم.. إن هذه الأرض هي أرض إسرائيل وليست أرض إسماعيل والواقع أن نظرة البروتستانت إلى علاقة النبي إبراهيم بالأرض الموعودة تجاوزت مقولات النظرة اليهودية في كثير من الأحيان.

ولنتذكر أنه في عام 1649م أُرسل استرحام للحكومة الإنجليزية جاء فيه: ليكن شعب إنجلترا وسكان الأراضي المنخفضة أول من يحمل أبناء وبنات إسرائيل على سفنهم إلى الأرض التي وعد بها أجدادهم إبراهيم وإسحاق ويعقوب لتكون إرثهم الأبدي. وكان اللذان بعثا الاسترحام هما جوانا واينزر وكار ترايت وهما إنجيليان بيورتيان وكانا يقيمان في أمستردام في هولندا.

وقد جاء في مقالة للقس البروتستانتي وليم هتشلر الذي أوصل هرتزل إلى مصاف الأنبياء: استفيقوا يا أبناء إبراهيم فالله يدعوكم للرجوع إلى وطنكم القديم ويريد أن يكون إلهكم.

والأغرب من ذلك كله أن الرئيس رونالد ريغن قال في كنيس يهودي في نيويورك عام 1984: (جميعنا هنا اليوم من أحفاد إبراهيم وإسحاق ويعقوب أبناء وبنات الإله نفسه)[1].

وهناك تركيبة طويلة من الأقوال والتصريحات والكتابات البروتستانتية تتناول العلاقة بالنبي إبراهيم ومن ثم العلاقة باليهود باعتبارهم أبناء الوعد الإلهي لإبراهيم. والملاحظ أن تلك العقيدة البروتستانتية تُدخل البعد الديني بالأبعاد السياسية التي شهدنا ونشهد تداعياتها حتى هذه اللحظة ولعل أخطر ما يعتقده المسيحيون ولا سيما البروتستانت أن الميثاق المزعوم الذي أجراه الله مع النبي إبراهيم عليه السلام انتقل إلى المسيح والمسيحية وهذا بالطبع ما أحدث خلافاً جذرياً وأساسياً بين الفهم المسيحي والفهم اليهودي للميثاق.

وحسبما يعتقد المسيحيون فإما أن يكون اليهود قد نقضوا الميثاق بشكل نهائي لا رجعة فيه لأنهم لم يعترفوا بمسيحهم عندما جاء. وهي النقطة التي عندها نفض الرب يده منهم. أو أن اليهود ظلوا متمسكين بالميثاق برفضهم الإغراء بتركه استجابة لمزاعم زائفة بمسيحانية يسوع.

وفي الحالة الأولى افترض المسيحيون أن الميثاق قد استمر أو أعيد تجديده ولكن منذ ذلك الحين فصاعداً كان الميثاق معهم وليس مع اليهود الذين بالتالي لم يعودوا مختارين ولذلك ينبغي تسمية العهد القديم والعهد الجديد بالميثاق القديم والميثاق الجديد.

ويرى بعض الربانيين اليهود وبعض الكهنة المسيحيين تفسيرات مغايرة للعهد والميثاق. من هؤلاء الرباني نورمان سولومون من جامعة أكسفورد الذي يدرس فيها عام 2001 ومنهم أيضاً أوريجن أبو الكنيسة المسيحية في مدينة قيسارية بفلسطين وهو من القرن الثالث.

---

(1) مجلة رسالة الجهاد الليبية العدد 85 ـ 1990.

فأوريجن يرى أن العهد كناية عن مجاز وهو يقف للرب أو المسيح وفخره أبي الكنيسة أما الرباني اليهودي جوشانان الذي يستشهد به نورمان سولومون فيقول: إن الميثاق كناية عن الحب بين الرب وشعبه إسرائيل.

ويرى أوريجن أن المسيح هو الشخص المركزي يحل محل إبراهيم ويكمل محو خطيئة آدم أما بالنسبة للرباني اليهودي فإن إبراهيم يبقى في مكانه والتوراة هي الترياق الذي يعالج الخطيئة.

ويرى أوريجن: أن معاناة بني إسرائيل برهان على أن الرب تبرأ منهم بينما يأخذ جوشانان المعاناة على أنها عقاب محب وتأديب من أب غفور.

ومنذ ذلك الحين فإن العهد القديم في التراث المسيحي يبشر ويتنبأ بالعهد الجديد وإذا ما فسخ الميثاق القديم فإن الميثاق الجديد يحل محله ويتجاوزه.

ويطرح الحاخام سولومون حلاً للمشكلة بين الطرفين بقوله أن الميثاق مجاز شعري وليس حقيقة موضوعية راسخة[1].

وعلى الرغم من التناقض بين وجهتي النظر بشأن الميثاق فإن زعماء المسيحية الغربية ما يزالون يقرون بالميثاق الإبراهيمي لليهود.

وقد حدث أن زار بابا الفاتيكان القدس سنة 2000م وذهب إلى حائط البراق الذي يدعي اليهود أنه حائط المبكى وصلى هناك كما ينبغي ليهودي تقيّ أن يصلي وجرياً على عادة اليهود الذين يصلون عند الحائط وضع ورقة تحمل صلواته الشخصية في فتحة بالحائط.

وقد تم توضيح صلاته حينما نشر نص صلاته وشرحها، في وقت لاحق من ذلك اليوم كان النص مكتوباً باللغة الإنجليزية. وكانت الصلاة توسلاً بغفران الخطايا الكبرى والتي ارتكبها المسيحيون في حق اليهود وقال النص:

---

(1) كليفور لونجلي. الشعب المختار ترجمة قاسم عبده قاسم جـ 1 ص 94 ـ 95.

يا رب آبائنا لقد اخترت إبراهيم وذريته لجلب اسمك إلى الأمم. نحن حزانى بعمق بسبب سلوك أولئك الذي تسببوا على مجرى التاريخ في معاناة أبنائك ونسألك الغفران ونرغب في أن نلزم أنفسنا بالإخوة الأصلية بشعب العهد.

والواقع أن الكنيسة الكاثوليكية وبنات عمومتها الكنائس الأرثوذكسية الشرقية تقدم في قداسها وفي الصلوات اليومية إشارة إلى نفسها على أنها إسرائيل وأورشليم وشعب الرب والشعب المختار وبشكل متكرر تذكر أنبياء إسرائيل الكبار على أنهم أنبياء الكنيسة. فالقانون الكنسي الذي ينظم قداس الثالوث والمستخدم منذ القرن السادس عشر حتى سبعينات القرن العشرين كان يجعل القساوسة يقدمون القربان المقدس تماماً والنقي الخالص. من جسد المسيح ودمه مع تلاوة الصلاة. (تفضل بالنظر إليهم بمحيّاك المحب الرحيم وتقبلهم كما سرّك أن تقبل تقدمة خادمك هابيل العادل وقربان أبينا إبراهيم تقدمة مقدسة ضحية ليس ملطخة)[1].

والغريب أنه عندما اشتدت قوة البروتستانتية في أميركا افترضوا أن الميثاق الذي انتقل من اليهود إلى الكنيسة الكاثوليكية قد ألغي مرة ثانية ومُنح للبروتستانت وهكذا كان من المفترض أن الكاثوليك أيضاً قد تبرأ منهم الرب فقد كانوا بالنسبة للبروتستانت مثلهم مثل اليهود بالنسبة للكاثوليك[2].

ومن المعروف أن البروتستانتية تميزت بنظرة مغايرة عن الكنيسة الكاثوليكية والأرثوذكسية فيما يخص النظرة إلى اليهود وميثاق العهد المعقود بين الله والنبي إبراهيم، وهم الذين كانوا أشد حماساً وقوةً لإعادة الاعتبار للتوراة واليهود بشكل عام.

---

(1) المرجع السابق ص 107.

(2) المرجع السابق ص 109.

إبراهيم في الإرث المسيحي في دائرة الضوء

لقد تعرفنا على نظرة المسيحية بالنسبة للنبي إبراهيم وقرأنا بعض النصوص الواردة في الأناجيل ثم تعرفنا على كيفية انتقال العهد الإبراهيمي من اليهود إلى المسيحية الكاثوليكية ثم هذا الانتقال من الكاثوليكية إلى البروتستانت.

وقد تبيّن معنا مدى التعقيد الديني بين اليهود والمسيحية حول هذه المسألة ووجهات النظر المتناقضة والمختلفة.

والغريب في الأمر أن الإيمان بالعهد والميثاق اقتصر على اليهود والنصارى وخاصة لدى المسيحية الغربية التي صبت كل حقدها على اليهود في قرون سابقة وقد استُثني العرب والمسلمون من هذا العهد. وكأنهم ليسوا موجودين أو أنهم ليسوا على علاقة بإبراهيم وأولاده. وكأن إبراهيم عليه السلام وُلد في لندن أو واشنطن أو سدني أو أمستردام، أو كأن وجود إبراهيم عليه السلام في القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة ليس له أي معنى، أو كأن البيت الحرام الذي رفع قواعده النبي إبراهيم ليس موجوداً، عدا عن كون إسماعيل عليه السلام هو ابن إبراهيم عليه السلام والعهد ـ إذا كان هناك عهد ـ يشمله مثله مثل إخوته. إسحاق والبقية.

على كل حال لابد من طرح العديد من الأسئلة:

ماذا يعني قولهم إنهم واليهود أبناء إبراهيم؟

هل حقاً أن المسيحيين الصهاينة هم واليهود أبناء النبي إبراهيم؟ وما هي الأسس والقواعد التي يستندون إليها في هذه المقولة؟

قد يكون الجواب مستنداً على ما قاله المسيح عليه السلام وعلى ما قاله تلاميذه في معرض التعاليم التي كان المسيح يعلمها لتلاميذه ومن تلك المقولات:

نحن ذرية إبراهيم. وقوله أنا أعلم أنكم ذرية إبراهيم. وقول الإنجيل فأجابوه إن أبانا هو إبراهيم. وقوله لأن المؤمنين بيسوع هم ذرية إبراهيم الحقيقية، ومن ذلك الكثير من الأقوال.

فإذا كانوا يفترضون أنهم نسل إبراهيم من حيث العرق والدم فنسبهم غير صحيح وإن كانوا يفترضون أنهم من أتباع إبراهيم عقيدة وتشريعاً فهذا غير صحيح أيضاً. والأدلة على ذلك كثيرة:

أولاً: لقد صرح القرآن الكريم بأن عدداً كبيراً من الأنبياء هم من ذرية إبراهيم وهؤلاء الأنبياء اصطفاهم الله سبحانه بنفسه ليسيروا على سنة إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب. وقد تميز هؤلاء الأنبياء عن الأقوام الذين بُعثوا لهم. هذا التميز والتمييز هو بين نبوة الأنبياء وسلوكهم من جهة وبين كفر الأقوام وضلالهم من جهة أخرى. واصطفاء الله لأنبيائه لا يعني قطعاً اصطفاءً للأقوام.

فبنو إسرائيل لم يؤمن منهم إلا القليل النادر على الرغم من إرسال الله لهم أنبياء عديدين. بل إنهم امتازوا بأن عارضوا الأنبياء ورفضوا دعوتهم وقتلوا بعضهم الآخر. وليس الانتساب الذي يدعيه بنو إسرائيل سوى وهم وأمنيات ليس لهما أي أساس من الحقيقة والمنطق.

لقد سارت المسيحية على خطا اليهودية فيما يتعلق بالنبي إبراهيم. وتجاوزتها في قولها إن العهد انتقل من اليهود إلى المسيحيين بسبب تخلي اليهود عن عقيدتهم ورفضهم الاعتراف بالمسيح رباً أو ابن إله.

أما بالنسبة للعرق والجنس فليس هناك مقياس عرقي يوصل المسيحية بالنبي إبراهيم. وخاصة المسيحية الغربية.

لقد ثبت عبر مئات السنين أنه لم يبق من بني إسرائيل أحد يؤكد نسبة العرقي الموصل إلى يعقوب وإسحاق وإبراهيم. فجميع اليهود الحاليين ينتسبون إلى أكثر من ثمانين عرقاً. والمحصلة أنهم متهودون منهم الزنجي من الفلاشا. ومنهم اليمني ذو اللون الزيتوني. ومنهم المصري والإنجليزي والروسي والفرنسي وغيرهم. ولا عرف ينطبق على الآخر. فلا نسب لهم سوى أممهم وشعوبهم. وليس لهم علاقة ببني إسرائيل.

فإذا كان اليهود كذلك فكيف بالمسيحيين الغربيين؟ لقد دخلت المسيحية أوروبا في بداية القرن الرابع عشر. وكانت أوروبا بأجمعها وثنية تحكمها القوة الرومانية الوثنية. والمسيحية التي تبنتها روما هي مسيحية بولس الرسول وليست مسيحية المسيح عليه السلام.

لقد تساءل الباحثون والمهتمون عن هذا الادعاء بالانتساب إلى النبي إبراهيم حتى أن غريس هالسل صاحبة كتاب النبوءة والسياسة. سألت أحد الأمريكيين الذين رافقوها في رحلة إلى فلسطين. فقالت: هل الناس الذين قدموا مؤخراً إلى فلسطين من أوروبا مثل مناحيم بيغن الذي جاء من بولندا هل إنهم نفس الشكل من الساميين الذين عاشوا في فلسطين قبل 3000 سنة أليس هؤلاء الساميون هم شرقيون. فأجاب: إن اليهود هم شعب من عرق واحد. فقالت: إن يهودياً يمكن أن يعتبر شرقياً وإن يهودياً يعيش في فرنسا يمكن أن يعتبر قوقازياً بينما الفلاشة الأثيوبي يعتبر زنجياً. فرد قائلاً: إن جميع اليهود من عرق واحد وكانوا كذلك من أيام إبراهيم[1].

فهذا الكلام يخالف أبسط قواعد العلم لكن التعصب الأعمى من المسيحية الصهيونية جعلهم يؤمنون بذلك إيماناً خرافياً واضحاً.

وبنفس الطريقة تطرح المسيحية الصهيونية نفس الرؤية فليس غريباً أن يدعي الرئيس ريغن أنه من أبناء إبراهيم.

ونعتقد أن من ينتسب إلى النبي إبراهيم من حيث العرق والجنس أصبح من النادر جداً. إن لم يكن غير موجود كما قلنا. فكيف ينتسب المسيحيون الأميركيون أو البريطانيون أو الهولنديون إلى النبي إبراهيم؟ ومن المعروف أن جميع العلماء قسموا الشعوب الأوروبية الأميركية إلى أنجلو ساكسون، وآريين وسلافيين وغيرهم من العروق الغربية، وهؤلاء لا يمتّون بأي صلة إلى العرق العربي أو (السامي) كما يقولون.

---

(1) غريس هالسل: النبوءة والسياسة 92 ـ 93.

ومن الواضح أنهم ـ وسيراً على طريق التوراة ـ يحاولون أن يشطبوا أي علاقة بين إبراهيم وإسماعيل، وأي علاقة بين إبراهيم والعرق العربي، وأي علاقة بين إبراهيم والبيت الحرام.

وإذا كانوا يدعون النسب إلى إبراهيم من حيث العقيدة واتباع دينه. فإن إبراهيم لم يكن يهودياً ولا نصرانياً. فالتوراة أنزلت على موسى والأنبياء بعد إبراهيم بحوالي 70 سنة والمسيح جاء بعد إبراهيم بحوالي 1950 سنة فكيف ينتسبون إلى إبراهيم، ومن الواضح أنهم يريدون أن ينسّبوا إبراهيم وأولاده إلى اليهودية أو النصرانية بأي شكل من الأشكال:

يقول تعالى: ﴿ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لِمَ تُحَآجُّونَ فِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَمَآ أُنزِلَتِ ٱلتَّوۡرَىٰةُ وَٱلۡإِنجِيلُ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِهِۦٓۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ﴿٦٥﴾ هَٰٓأَنتُمۡ هَٰٓؤُلَآءِ حَٰجَجۡتُمۡ فِيمَا لَكُم بِهِۦ عِلۡمٞ فَلِمَ تُحَآجُّونَ فِيمَا لَيۡسَ لَكُم بِهِۦ عِلۡمٞۚ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ﴿٦٦﴾ مَا كَانَ إِبۡرَٰهِيمُ يَهُودِيّٗا وَلَا نَصۡرَانِيّٗا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفٗا مُّسۡلِمٗا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴿٦٧﴾ إِنَّ أَوۡلَى ٱلنَّاسِ بِإِبۡرَٰهِيمَ لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ وَهَٰذَا ٱلنَّبِيُّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْۗ وَٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾ (آل عمران: 65 ـ 68).

وهنا يأتي الرد القرآني على اليهود والنصارى: لم تحاجون في هذا النبي وتدعون تارة أنه يهودي وتارة أنه نصراني؟ كيف تقولون ذلك وقد أنزلت التوراة وكذلك الإنجيل بعده بمئات السنين. فإن كنتم عاقلين عليكم أن تسكتوا. لأن الأمر بديهي لا يحتاج لأكثر من ذلك من البراهين. إن إبراهيم له عقيدته. فهو حنيفي مسلم ولم يكن مشركاً كبعضكم. وأولى الناس بإبراهيم الذين اتبعوه واتبعوا نداءه بالحج. والنبي محمد ﷺ هو أولى الناس بإبراهيم لأنه سار على عقيدته بينما الآخرون حرّفوا كتبهم وحرفوا عقيدتهم، فمنهم من انحاز إلى عبادة الأصنام كاليهود ومنهم من أشرك عندما ألّه المسيح كالنصارى.

إن أخطر ما يكمن في ذلك الادعاء اختلاط الأسطورة بالسياسة. وكل هذه الادعاءات تهدف إلى هدف واحد وهو تحقيق ادعاء اليهود بملكيتهم لأرض

فلسطين باعتبارها الأرض التي وعد الله بها إبراهيم ونسله من بعده. والنسل يقتصر على إسحاق دون إسماعيل. وإبراهيم وإسحاق ويعقوب براء مما يدعي اليهود.

إن عقيدة إبراهيم هي عقيدة التوحيد. وقد سار عليها أبناؤه وأحفاده. لكن اليهود والمسيحيين البروتستانت يريدون أن يحرفوا إبراهيم عن عقيدته. وكذلك يريدون حرف إسحاق ويعقوب والأنبياء عن عقيدتهم التوحيدية.

يقول تعالى: ﴿ وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُۥنَ أَلْسِنَتَهُم بِٱلْكِتَٰبِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمَا هُوَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ (آل عمران: 78).

ويقول تعالى: ﴿ مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ ٱللَّهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا۟ عِبَادًا لِّى مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِن كُونُوا۟ رَبَّٰنِيِّۦنَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ ٱلْكِتَٰبَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ ﴿٧٩﴾ وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَن تَتَّخِذُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ وَٱلنَّبِيِّۦنَ أَرْبَابًا ۚ أَيَأْمُرُكُم بِٱلْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾ (آل عمران: 79 ـ 80).

ويقول تعالى: ﴿ قُلْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴾ (آل عمران: 84).

ويقول تعالى: ﴿ وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَٰبَنِىَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٣٢﴾ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ ٱلْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنۢ بَعْدِى قَالُوا۟ نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴾ (البقرة: 132 ـ 133).

ويبدو أن اليهود والمسيحيين الغربيين لم يفهموا المعادلة أو أن اليهود فهموها وأخفوها حتى انطلت الحيلة وانطلى التحريف على المسيحية الغربية.

إن يعقوب لم يوص أبناءه بأن الأرض المباركة ستكون لهم من بعده. إنما وصّاهم أن يعبدوا الله الواحد الأحد إله إبراهيم وإسماعيل وإسحاق.

إذاً هذه عقيدة إبراهيم أولاً وهذه عقيدة إسحاق وإسماعيل ثانياً وهذه عقيدة يعقوب وأبنائه ثالثاً. فلا هم يهود ولا هم نصارى. إنما هم موحدون أحناف ليس إلاّ.

ومن ناحية ثالثة بأي حق يدعي البروتستانت المتعصبون أنهم أبناء إبراهيم. وإبراهيم ابن المنطقة العربية. لم يغادرها إلى روما أو باريس أو لندن أو برلين ولم يغادرها إلى واشنطن ونيويورك. فأبناء المنطقة هم أحق الناس بإبراهيم. والذين لبوا نداء الحج هم أولى الناس به، ومن لم يلبّ دعوته فهو كافر بالله جاحد بالعقيدة الصحيحة.

على كل حال فإن النبي إبراهيم أوضح عقيدته بشكل كامل متكامل فهل اتبع اليهود هذه العقيدة؟ وهل اتبع المسيحيون البروتستانت تلك العقيدة.

يقول تعالى: ﴿ قُلْ صَدَقَ اللَّهُ فَاتَّبِعُوا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا ﴾ (آل عمران: 95).

ويقول تعالى: ﴿ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا ﴾ (النساء: 125).

ويقول تعالى: ﴿ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ (الأنعام: 161).

ويقول تعالى: ﴿ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا ﴾ (النحل: 120).

ويقول تعالى: ﴿ ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا ﴾ (النحل: 123).

ويقول تعالى: ﴿ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ ﴾ (الحج: 78).

ومن المعروف أن العرب قبل الإسلام عرفوا اليهودية والنصرانية وعرفوا أيضاً عقيدة الحنيفية ديانة النبي إبراهيم. والظاهر أن الحنيفية كان لها بعض الأتباع في شبه الجزيرة العربية. وقد حاولت المسيحية أن تكون البديل فأخفقت وكل ما فعلته أن ساعدت على قيام أو إحياء مفهوم مفاده أن الجد الأعلى لعرب الشمال وأهل الكتاب هو إبراهيم وأن الديانة الحق هي ديانة إبراهيم الجد الأعلى وهي النبع الذي جاءت منه اليهودية والنصرانية وأن الخلاف الواقع بين أتباع اليهودية ثم أتباع الكنائس يعني أن زيفاً قد أصاب اليهودية والنصرانية لذا تحسن العودة إلى الأصل الإبراهيمي ودُعيت ديانة إبراهيم باسم الحنيفية. وأخذ عدد من رجالات قريش

يلتمسون الحنيفية في كل مكان فكان أن رفضوا عبادة الأوثان وأكل ما ذبح لها وكان أحد وجوه التماسهم لدين إبراهيم الانفراد والتعبد.

والدين الحنيف أطلق على من كان على ملة إبراهيم ففي الجاهلية قالوا: من اختتن وحج البيت فهو حنيف.

لقد أخذ العرب عن إبراهيم عبادة الله والختان وتقديم الأضحية وإقامة المعابد والزكاة عن الممتلكات. وإبراهيم بنى مع ولده إسماعيل مكة والبيت لعبادة الله الذي راح المؤمنون يطوفون حوله لتأدية نذورهم وفيما بعد راحوا يحجون إلى مكة من أماكن بعيدة فصارت الكعبة مقدسة عند العرب[1].

وجاء أيضاً: وهناك ما يدل على أن بعض القبائل العربية في الجزيرة العربية كانت تمارس دين التوحيد الذي نادى به إبراهيم الخليل عليه السلام من قبل والذي يرتقي إيمانه به إلى زمن يسبق عهد موسى عليه السلام واليهود. ويقول الدكتور غوستاف لوبون: (لقد وجد بين العرب في جزيرة العرب من يعبد إلهاً واحداً وسمى هؤلاء بالحنفاء. وكان النبي ﷺ يحب هذا الاسم. وليست عقيدة التوحيد التي هي من أهم مبادئ القرآن كل ما عند الحنفاء بل قالوا أيضاً كما قال القرآن فيما بعد إن على الإنسان أن يسلم بقضاء الله وقدره تسليم إبراهيم حينما رأى ذبح ابنه إسماعيل ولذا لم يكن من الخطأ إخبار محمد ﷺ في القرآن بوجود مسلمين قبل ظهوره، والحنيف ذكر في الغالب مقترناً بإبراهيم في القرآن الكريم مشيراً إلى وحدانية الله (ملة إبراهيم حنيفاً) حنفاء لله غير مشركين به)[2].

إذاً ليس لليهود والمتهودين ولا للمتنصرين أي حق مادي أو معنوي في ادعائهم أنهم ينتسبون إلى إبراهيم ودين إبراهيم عليه السلام.

---

(1) موسوعة عالم الأديان: الجزء الأول ص 158 ـ 159.

(2) د. أحمد سوسة: العرب واليهود في التاريخ ص 265.

إن الشاهد المادي على عقيدة النبي إبراهيم هو البيت الحرام، وهو الأثر الأهم الدال على عقيدة أتباع هذا النبي العظيم.

إن الخدعة اليهودية استمرت مئات السنين وأكثر من وقع ضحية هذه الخدعة هم أتباع اليهودية من الجماهير التي ليس لها مصلحة في البعد السياسي الذي اخترعته الحركة الصهيونية بشقيها اليهودي والبروتستانتي المتعصب.

وقد عمل منظرو التلمود والمتعصبون من حاخامات اليهود على توريط اليهود والمتهودين في حرب مفتوحة عليهم من قبل شعوب الدنيا فكانوا وما زالوا يعيشون هاجس الرعب والصراع الدموي والقلق من المستقبل الغامض. وكل ذلك بسبب إقناع أنفسهم بأن الله وعد إبراهيم بامتلاك أرض فلسطين.

الفصل الخامس

الردود اليهودية والمسيحية
على المدّعين بالوعد الإلهي للنبي إبراهيم
لامتلاك أرض فلسطين

لا شك أن بعض الفئات اليهودية وبعض الفئات المسيحية وخاصة العربية ترفض مقولة التوراة وتفسيراتها بأن الرب وعد أولاد النبي إبراهيم بامتلاك أرض فلسطين وإقامة دولة يهودية على أرضها.

ولما كان الاحتلال الصهيوني قد أحدث تغييراً كبيراً بعد ضم القدس المحتلة تحت إدارة الكيان الصهيوني فقد ازدادت الهوة بين يهود متصهينين ويهود غير صهاينة يرفضون تفسير التوراة تفسيراً حرفياً وكذلك الأمر بالنسبة للطوائف المسيحية في العالم فقد آثرت فئة صغيرة من المسيحيين المتصهينين أن تسير بعكس الإيمان المسيحي الرافض للاحتلال الصهيوني والقائم على هلوسات تفسيرية للتوراة تخدم المصالح السياسية العليا للحركة الصهيونية العالمية.

ومن الطبيعي أن نرى عدة فئات تتفاوت نظرتها وقد تختلف حول تفسيرات الصهيونية للوعد الإلهي الذي جاء نصه في كتاب التوراة:

1 ـ فئة ترى أن هذا الوعد مجرد تلفيق اخترعه مدونو التوراة.

2 ـ فئة ترى أنه لا يصح احتلال القدس وفلسطين مطلقاً ولا يجوز إقامة دولة تسمى إسرائيل إلا بعد أن يبعث الله مسيحه.

3 ـ فئة ترى أن مدينة القدس من حق أصحاب الديانات الثلاث اليهودية والمسيحية والإسلام وأن الجميع هم أبناء إبراهيم يجب أن يشتركوا في حقهم بالوعد والإرث.

ناطوري كارتا (حراس المدينة)

ظهرت حركة ناطوري كارتا منذ عام 1935 وهي حركة تعادي الصهيونية وتعادي إقامة دولة لليهود على أرض فلسطين. ومن أهم زعماء الحركة الحاخام عمرام بلوي والحاخام أهرون كتسنلبويجن والحاخام ليبله فايسبيتش والحاخام

إلياهو بروش، وترى الحركة أن دولة إسرائيل ثمرة الغطرسة الآثمة لأنها قامت على يد نفر من الكفرة الذين تحدوا مشيئة الله وإرادتهم بإعلانهم إقامة دولة إسرائيل بدلاً من انتظار المسيح المنتظر المخول وحده بإقامة مملكة إسرائيل.

وتعتبر جماعة الحاخام حاييم كتسلبويجن أكثر الجماعات من ناطوري كارتا تشدداً وقد ناضلت حركة ناطوري كارتا ضد الصهيونية معتبرة إياها حركة ملحدة ومهرطقة لأنها انتهكت العهود الثلاثة التي قطعها اليهود للرب قبل خروجهم إلى المنفى وهي ألا يسببوا الألم للأغيار الذين يقيمون بينهم وألا يحاولوا احتلال أرض إسرائيل بالقوة وألا يستعجلوا الأمور.

وترى الحركة إن إعلان دولة إسرائيل نقض أسس قوانين الشريعة لذا رفضت الاعتراف بالدولة وقوانينها.

وترى أن العناية الإلهية وضعت اليهود في المنفى وقد طالب الحاخام بلوي الأمين العام للأمم المتحدة عام 1949 وضع القدس تحت الوصاية الدولية وإصدار جوازات الأمم المتحدة للمتدينين اليهود الذين يرغبون بزيارة القدس وأعلن الحاخام أن الحركة على استعداد لمغادرة القدس إلى أي مكان آخر يستطيع أفرادها العيش فيه بموجب التوراة والشريعة[1].

ومن تشدد الحركة تجاه الصهيونية ودولة الكيان أن أحد حاخاماتها وهو ديفيد وايس الموجود في نيويورك. صرح أثناء إحدى مقابلات قناة الجزيرة معه أنه لو كان يمتلك قنبلة نووية لألقاها على إسرائيل.

الكنيسة الإنجيلية في أميركا

رفضت الكنيسة الإنجيلية في الولايات المتحدة الصهيونية المسيحية ومستنداتها التوراتية لدعم الكيان الصهيوني لأنه تحقيق لوعد مزعوم.

---

(1) د. إرشاد عبدالله الشامي، القوى الدينية في إسرائيل، عالم المعرفة 186، 1994، ص 316 ـ 317.

وقد أوكلت هذه الكنيسة تحويل الرفض لأساليب عملية إلى المجلس الوطني لكنائس المسيح الذي يضم 34 طائفة يمثلون حوالي 40 مليون عضو.

الكنيسة الكاثوليكية في أميركا

وهذه الكنيسة لا يختلف موقفها عن موقف الفاتيكان تجاه إسرائيل وفلسطين حسب تصنيفها في عام 1917 قال البابا بنيدكت 15 معلقاً على وعد بلفور (لا لسيادة اليهود على الأرض المقدسة) وفي 15 أيار عام 1922 وجد الفاتيكان مذكرة رسمية لعصبة الأمم تنتقد إقامة وطن قومي لليهود في فلسطين. وقال إن الحبر الأعظم لا يمكن أن يوافق على منح اليهود امتيازات على غيرهم من السكان. وظل هذا الموقف متماسكاً حتى بداية الستينات حيث بدأ التغيّر لهذه الكنيسة.

الكنيسة الأرثوذكسية

وبنت الكنيسة الأرثوذكسية في الولايات المتحدة معارضتها للصهيونية المسيحية على منطلقات عقدية حيث اعتبرت هذا التيار يصر على زرع رؤية لاهوتية غريبة عن المسيحية وأن أهدافها سياسية وليست دينية وهي في محصلتها تخدم مصالح دولة بعينها.

مجلس كنائس الشرق الأوسط

وقد تمثل موقف هذا المجلس برفض قيام الكيان الصهيوني رفضاً قاطعاً لأنه يقوم على خرافة لم يكن لله دخل فيها. واعتبر المجلس الصهيونية المسيحية كما جاء في بيانه الصادر في نيسان عام 1986 سوء استعمال للكتاب المقدس وتلاعباً بمشاعر المسيحيين في محاولة لتقديس إنشاء دولة من الدول وتسويغ سياسات حكوماتها.

وأجمل الأمين العام للمجلس القس رياض غريغور مبررات الرفض في الأسباب التالية:

1ـ إن الصهيونية المسيحية لا تمت بصلة للمسيحية لأنها تشويه مشبوه الغايات لبعض ما جاء في أسفار الكتب المقدسة.

2ـ إنها مؤامرة حيكت ضد المسيحيين عامة والمسيحيين العرب خاصة لضرب المشروع الحواري بين المسيحية والإسلام ولتبرير أطروحات صراع الحضارات والأديان.

الروم الأرثوذكس

ولم تشذ هذه الكنيسة عن المواقف الأخرى وأصر بطريرك الروم الأرثوذكس الأب عطاالله حنا على تسمية الصهيونية بالمجموعات المتصهينة التي تدعي المسيحية. ويؤكد الروم الأرثوذكس أن ما يجعلهم يتشددون في الرفض اعتقادهم بأن التفسيرات والتحليلات الصهيونية للكتاب المقدس هي تفسيرات وتحليلات سياسية وليست روحانية هدفها تبرير الاحتلال والعدوان والترويج بأن الأرض الفلسطينية لهم وليست لسواهم.

وتؤمن الكنيسة **الإنجيلية المشيحية** أن إسرائيل الحالية التي سبقت قيامها قوى سياسية دولية كثيرة حتى صدر وعد بلفور عام 1917 وتصويت الأمم المتحدة على تقسيم فلسطين عام 1947 وقيام الكيان الإسرائيلي عام 1948 وباعتراف فوري أميركي سوفياتي لا علاقة لها بالنبوءات القديمة التي تحققت فعلاً في إطارها الزمني في العهد القديم واكتملت في دلالتها الروحية في العهد الجديد وأن كل ما يقال حول عودة اليهود الآن وربط ذلك بهذه النبوءات ثم مجيء السيد المسيح ثانية وإقامة الهيكل ومعركة هرمجدون هو فكر قديم لا يتفق مع اللاهوت الكتابي، لكن أبواق الصهيونية العالمية تحاول دائماً إحياء هذا التيار لخدمة أغراضها السياسية.

ويتبين من خلال البيانات والمؤتمرات أن أكثر الكنائس في الولايات المتحدة. ترى أن القدس مدينة يقدسها اليهود والمسيحيون والمسلمون لأنها الميراث الروحي

لكل أولاد إبراهيم. وترفض ادعاء الصهاينة بأن القدس ميراث مادي خاص باليهود.

مما تقدم نرى أن العديد من الكنائس المسيحية في الشرق والغرب ترفض تفسير ما يسمى العهد تفسيراً حرفياً وترى أن احتلال فلسطين وتشريد أهلها ليس سوى مخطط استعماري سياسي. وليس تحقيقاً لوعد إلهي للنبي إبراهيم وأولاده بامتلاك هذه الأرض وطرد سكانها منها.

ومن الملاحظ أن هناك فرقاً واضحاً بين التيارات البروتستانتية المحافظة التي تؤمن بحرفية التوراة إيماناً استعمارياً وبين البروتستانتية التي تمثلها بعض الكنائس الإنجيلية التي تنتقد بشدة قيام الكيان الصهيوني وممارساته العدوانية على الأرض الفلسطينية وشعبها.

وقد أكد هذه الناحية كبار رجال الدين المسيحي في الشرق والغرب من ذلك مثلاً ما قاله البابا شنودة من أن ما يُطلق عليه المسيحية الصهيونية هو بدعة أميركية لا وجود لها في العالم العربي مشيراً إلى أن هذا التعبير مرفوض من جانب كافة الطوائف المسيحية الرسمية المعروفة في كافة أنحاء العالم.

ومنها ما قاله القس صفوت البياضي رئيس الطائفة الإنجيلية في مصر من أن المسيحية بريئة من تهمة الصهيونية وأكد أن التيار اليميني المتشدد في الولايات المتحدة الموالي لإسرائيل هو تيار سياسي وليس تياراً دينياً يحمل في طياته مغالطات خطيرة لأن المسيحية لا ترضى أبداً عن المعاناة التي يعيشها الشعب الفلسطيني. وأوضح أن من يعتقد أن المجيء الثاني للسيد المسيح مرهون بتجمع اليهود مرة أخرى في إسرائيل وقيام إسرائيل الكبرى يسيء تفسير الكتب المقدسة فليس فيها ما يحمل هذا المعنى كما أن الزعم بالحقوق التاريخية بشأن هيكل سليمان والادعاء بأن اليهود هم شعب الله المختار هي أمور بعيدة عن الأديان وهي مجرد دعايات إعلامية وصهيونية تجيد الترويج لها بحكم إجادتهم لصناعة الإعلام.

ويذكر الدكتور إكرام لمعي رئيس سنودس النيل الإنجيلي عام 2003 في تلفزيون الجديد اللبناني أن اليهود كانوا قبائل همجية قليلة العدد لا جذور لها في المنطقة[1].

ومن الطبيعي أن نرى هناك بعض الفئات اليهودية والشخصيات اليهودية غير الصهيونية التي ترفض استناد الصهيونية لإقامة دولة على أساس الوعد المقطوع من الرب لإبراهيم ونسله. على الرغم من أن هذه الفئات ضعيفة ومتشرذمة وليس لها ذلك التأثير الكبير على مجريات التطلعات السياسية للكيان الصهيوني.

النبي إبراهيم في تراث الشعوب

تنقل المصادر القديمة في بعض البلدان المجاورة للجزيرة العربية شيئاً كثيراً عن النبي إبراهيم. وبدا وكأنه نبي عُرف لديها أو بُعث لها وليس فقط لمنطقة محددة في مكة أو فلسطين.

ومن الواضح أن العقائد تتأثر ببعضها وليس من الغريب أن نرى مثلاً الشيء الكثير في الزرادشتية الأولى مما جاء به الأنبياء من أخلاقيات واعتقادات توحي بأن التأثر والتأثير أمر حاصل بالتأكيد.

ولما كان النبي إبراهيم قد وُلد ونشأ في أوركلدان فإن المحيط المجاور هو الأقرب وهو الأكثر تأثراً. خاصة أن الحضارة الكلدانية كانت قد شكلت عدة دول وإمبراطوريات امتدت على مساحات واسعة من الأراضي حتى وصلت إلى فلسطين وحدود مصر من جهة وإلى حدود تركيا من جهة أخرى.

والواقع أن الأحداث التي جرت مع النبي إبراهيم ودعوته للتوحيد في مجتمع وثني كانت قد انتشرت في المحيط المجاور لأنها أحداث هزت المجتمع وعقائده علماً أن هذا المجتمع كان قوياً وله حضارته وعقائده.

---

(1) مركز الكاشف للمتابعة والدراسات الإستراتيجية ـ الصهيونية المسيحية شباط 2007.

وعندما نتذكر أن تاريخ وجود النبي إبراهيم هو تاريخ الدولة الكلدانية البابلية تذكرنا أن هناك إلى جانب هذه الحضارة حضارات أخرى منها الحضارة الإيرانية القديمة. وحضارات اليمن القديمة أيضاً. إضافة لحضارة الكنعانيين وحضارة المصريين.

ولا شك أن الدعوة للتوحيد كانت آنذاك تعيش فترة مخاض جديد لعقيدة إقليمية لا تخص منطقة بعينها بل تخص عدة مناطق. وهذه هي عقيدة التوحيد التي أراد الله لها أن تكون من خلال رسالة النبي إبراهيم عليه السلام.

ولعل ارتباط النبي إبراهيم بالبيت الحرام جعل هذا البيت محط أنظار العديد من الشعوب فهو في أساسه للناس كافة. ولذلك لا نستغرب أن تلبي بعض الشعوب نداء النبي إبراهيم بل وتعتبره شخصية تخصهم بقدر ما تخص غيرهم.

يرى بعض الدارسين والباحثين في تاريخ الأديان أن شخصية زرادشت الداعية الإيراني حقيقية. وأنه هو إبراهيم الخليل الذي جاء ذكره في التوراة والقرآن وأن أسفار ـ الأبستاق ـ الكتاب المقدس لدى الزرادشتية هي صحف إبراهيم التي تحدث عنها القرآن الكريم.. وقد ساد هذا الرأي لدى الكثير من الزرادشتيين خاصتهم وعامتهم فالمؤرخ الأسدي في كتابه (لغة فرس) يقول: الأبستاق تفسير الزند وكان الزند صحف إبراهيم ويقول صاحب برهان قاطع: كان إبراهيم زرادشت يدعي أن الزند نزل عليه من السماء.

ويقول بعضهم إنه صحف إبراهيم.

ولعل التشابه بين ما تذكره الكتب المقدسة عن حياة إبراهيم وما تذكره التراجم والأساطير الفارسية عن حياة زرادشت وخاصة ما يتعلق باتجاه كليهما إلى التأمل في كواكب السماء وملاحظة بزوغها وأفولها والانتهاء من هذا التأمل وهذه الملاحظة إلى أن كائنات هذا شأنها لا يمكن أن تكون آلهة وما يتعلق بمحاربة كليهما

لما كان عليه قومه من عبادة الكواكب وما يمثلها ويرمز إليها من أصنام وما يتعلق بإلقاء كليهما بالنار وجعلها برداً وسلاماً عليه[1].

وعلى الرغم من أن بعض المؤرخين رفض هذه المقولة لأسباب كثيرة كتاريخ وجود كل منهما، إبراهيم وجد سنة 1950 ق.م. زرادشت وجد سنة 660 ق.م. وإبراهيم عليه السلام وجد ما بين مكة وفلسطين. زرادشت وجد في آذربيجان ومن ثم إيران.

فعلى الرغم من ذلك نرى أن هناك تشابهاً في كثير من القضايا الشخصية وبعض القضايا العقدية والتشريعية. ولكن الزرادشتية بعد موت صاحبها انحرفت عنه وعن عقيدته وأدخلت الثنوية في العقيدة وكذلك النار المقدسة وبعض الطقوس الأخرى التي لم يقل بها زرادشت.

والواقع أننا حين نتصلح التاريخ في العهود الجاهلية السالفة نجد شعوبها وطوائفها تتوجه إلى الكعبة وتقصدها من كل صوب وحدب بكل خضوع وأدب. كما نشاهد سدنتها وكهنتها وولاتها وخزنتها يتلقون ويستقبلون زائريها بالعطف والمحبة. وقداسة الكعبة وتوقيرها من قبل الشعوب لم تكن بدافع ذاتي منبعث من شعورهم وإنما الدافع عندهم والباعث هو ابتغاء الخير ودوامه الذي ينتظره المرء ويتمناه فيها إذا احترم الكعبة أو يخاف عقاب الله أو الآلهة حسب اعتقاده فيما إذا انصرف عنها. ومن الطبيعي أن تقديس الكعبة مرتبط بتقديس وتكريم النبي إبراهيم عليه السلام.

فالهنود يزعمون أن روح سيفا إلههم وهو الأقنوم الثالث في العقيدة البوذية قد حلت في الحجر الأسود حين زار مع زوجته بلاد الحجاز.

وكانت الصابئة من الفرس والكلدانيين يعدّون الكعبة أحد البيوت السبعة المعظمة. كما كان أسلاف الفرس يقصدون البيت الحرام ويطوفون حوله تعظيماً له

(1) د. علي عبد الواحد وافي: الأسفار المقدسة قبل الإسلام ص 148 ـ 149.

وإجلالاً للنبي إبراهيم عليه السلام باعتباره كلدانياً جاء من أوركلدان إلى فلسطين ثم إلى مكة ومن ثم بنى البيت الحرام. وكان آخر من حج منهم ساسان بن بابك. وكان ساسان إذا أتى البيت طاف به وزار زمزم.

ويروي المسعودي في مروج الذهب أن الفرس كانت تهدي إلى الكعبة أموالاً في صدر الزمان وجواهر. وقد كان ساسان بن بابك أهدى غزالين من ذهب إضافة لبعض الجواهر والسيوف والذهب إلى الكعبة وقذف بهذه الهدايا في بئر زمزم. وقدس الكعبة الفرسُ من غير الصابئة واحترموها زاعمين أن روح هرمز حلّت فيها وكانوا يحجون إليها. وقد ورد أن بعض اليهود أيضاً قدسوها لأنه كما يقولون إن فيها تمثالاً للنبي إبراهيم وتمثالاً آخر للنبي إسماعيل.

وقال ابن إسحاق: وكان تبّع وقومه أصحاب أوثان يعبدونها. فتوجه إلى مكة حتى إذا كان بين عسفان وأمج أتاه نفر من هذيل بن مدركة بن إلياس بن مضر فقالوا له أيها الملك ألا ندلك على بيت مال وأثر أغفلته الملوك قبلك فيه اللؤلؤ والزبرجد والياقوت والذهب والفضة قال: بلى، قالوا: بيت الكعبة يعبده أهله ويصلون عنده. إنما أراد الهذليون هلاكه بذلك لما عرفوا من هلاك من أراد البيت من الملوك وبغى عنده. فلما أجمع لما قالوا أرسل إلى الحبرين فسألهما عن ذلك فقالا له ما أراد القوم إلا هلاكك وهلاك جندك. ما نعلم بيتاً لله اتخذه في الأرض لنفسه غيره ولئن فعلت ما دعوك إليه لتهلكن وليهلكن من معك جميعاً قال: فماذا تأمراني أن أصنع إذ أنا قدمت عليه؟ قالا: تصنع عنده ما يصنع أهله. تطوف به وتعظمه وتكرمه وتحلق رأسك عنده وتذل له حتى تخرج من عنده قال: فما يمنعكما أنتما من ذلك؟ قالا: أما والله إنه لبيت أبينا إبراهيم وإنه لكما أخبرناك ولكن أهله حالوا بيننا وبينه بالأوثان التي نصبوها حوله وبالدماء التي يهرقونها عنده وهم نجس أهل الشرك أو كما قالا له. فعرف نصحهما وصدق حديثهما فقرب النفر من هذيل فقطع أيديهم وأرجلهم ثم مضى حتى قدم مكة فطاف بالبيت ونحر عنده وحلق رأسه

وأقام بمكة ستة أيام فيما يذكرون ينحر بها للناس ويطعم أهلها ويسقيهم العسل ورأى في المنام أنه يكسو الكعبة. فكساها بالخصف.

وكان تبّع فيما يقولون أنه أول من كسا الكعبة وأوصى به ولاته من جرهم وأمرهم بتطهيره وألاّ يقربوه دماً ولا ميتة. وجعل له باباً ومفتاحاً. ثم خرج منها متوجهاً إلى اليمن بمن معه من جنوده وبالحبريين حتى إذا دخل اليمن دعا قومه إلى الدخول فيما دخل فيه فأبوا عليه حتى يحاكموه إلى النار التي كانت باليمن[1].

الحرم الإبراهيمي الشريف

يعتبر الحرم الإبراهيمي من أقدس المساجد الإسلامية. فالزوار يشدون إليه الرحال بعد زيارتهم للحرم القدسي الشريف المجاور وبذلك تعتبر مدينة الخليل المدينة الإسلامية المقدسة الثانية في فلسطين.

والواقع أننا بحاجة إلى بعض التفصيلات حول الحرم الإبراهيمي الشريف حتى نتمكن من معرفة حق المسلمين بهذه المدينة، وبهذا الحرم الذي ظل مسجداً معروفاً حتى قام الاحتلال الصهيوني بتقسيمه إلى قسمين، قسم هو المسجد ويخص المسلمين وقسم جعلوه خاصاً باليهود مدّعين أحقيتهم بامتلاكه.

لقد تحدثنا في صفحات سابقة عن رحلة النبي إبراهيم في القرن التاسع عشر ق م من أوركلدان إلى فلسطين. وقلنا أنه سكن بعض الوقت تحت بلوطات ممرا أو بطمات ممرا الواقعة في شمال الخليل.

ولما توفيت زوجته سارة في تلك الأثناء دفنها في مغارة المكفيلة. ومكفيلة اسم كنعاني معناه مغارة مزدوجة. وقد اشترى النبي إبراهيم هذه المغارة من عفرون بن صوقر الحثي، وقد وُلد النبي إسماعيل في هذا الموقع عند بلوطات ممرا واسم ممرا تدل على أمير من الآموريين اتخذ هذا المكان سكناً له.

---

(1) الشيخ محمد هادي الأميني. مكة ص 59 ـ 60.

ولما توفي النبي إبراهيم دفنه ولداه إسماعيل وإسحاق في نفس المغارة قرب زوجته سارة ثم لما مات إسحاق وكذلك زوجته رفقة دفنا أيضاً في المغارة. كما دفنت فيها زوجة النبي يعقوب الأخرى ليئة. ويقول كتاب التوراة إن يعقوب عندما مات حُنط كعادة المصريين ثم نُقل إلى الخليل من مصر ودفن في المغارة نفسها.

وتقول التوراة: لما مات يوسف في مصر حنطت جثته وعندما خرج بنو إسرائيل بقيادة النبي موسى من مصر نقلوها معهم ودفنوها بالقرب من نابلس ويقال إن جثته نُقلت بعد ذلك إلى قرية أربع. وقد غيّر اسمها إلى حبرون نسبة إلى أحد أولاد كالب بن يَفُنَّة. وهو من أصحاب يوشع الذي تقول التوراة إنه احتل قرية أربع بعد معركة مع ملكها هوهام العناقي.

ويقال إنه في عهد النبي سليمان أقام حمى على قبور إبراهيم وعائلته.

وفي العهد الروماني أقيمت قلعة بالقرب من مقبرة النبي إبراهيم وعائلته.

وفي سنة 316 أقامت (أفتروبية) امرأة مكسيمان ووالدة زوجة قسطنطين كنيسة على قبر إبراهيم وعائلته.

ثم في زمن الإمبراطور يوستنيانوس 527 ـ 565م أقيمت كنيسة على مقبرة إبراهيم وهدمها الفرس في غارتهم على فلسطين عام 614م وبقيت كذلك إلى أن دخل العرب المسلمون وحرروها من الرومان.

كانت القبائل العربية تنزل فلسطين قبل الإسلام بقرون. وقد استقرت في أوائل القرن الثاني للميلاد قبيلة لخم القحطانية جنوبي البلاد وامتدوا في غربي البحر الميت. وينسب إلى اللخميين الذين نزلوا فلسطين وعلى وجه التحديد ناحية (حبرى) الصحابي تميم بن أوس الداري الذي كان بين جماعة من الدارية قدمت على رسول الله ﷺ بعد إسلامها إلى مكة. قال تميم الداري موجهاً خطابه إلى الرسول الكريم ﷺ: يا رسول الله إن لي جيرةً من الروم بفلسطين لهم قرية يقال لها (حبرى) وأخرى يقال لها بيت عينون فإن فتح الله عليك الشام فهبها لي فقال هما لك. وكتب

كتاباً بذلك ومما جاء فيه إن له قرية حبرى وبيت عينون قريتها كلها سهلها وجبلها وماءها وحرتها وأنباطها وبقرها ولعقبه من بعده. هذا وليس لرسول الله ﷺ قطيفة بالشام غيرها[1].

وأضاف المؤرخ البلاذري في فتوح البلدان على إقطاع قريتي حبرى وبيت عينون (مسجد إبراهيم) الذي لم تكن مباني حبرى قد امتدت إليه حتى يوم الإقطاع. وأضافت مصادر أخرى إلى أن الإقطاع شمل قرية المرطوم أو الرطوم فضلاً عن حبرى وبيت عينون ومسجد إبراهيم.

وموقع هذه القرى الموقوفة هي حبرى ـ قرية أربع الكنعانية الحثية.

وكان من الطبيعي أن تتجه أنظار المحررين العرب المسلمين إلى مقام جد الأنبياء. وكان خراباً بعد غارة الفرس عام 614م فرمموا ما سمحت لهم الظروف بترميمه. وقد شاد الأمويون سقف الحرم الحالي والقباب التي فوق مراقد إبراهيم ويعقوب وزوجتيهما وفي العصر العباسي فتح الخليفة المهدي باب السور الحالي من جهة الشرق وبنوا له المراقي الجميلة من ناحيتي الشمال والجنوب وأمر المقتدر بالله ببناء القبة التي على ضريح يوسف عليه السلام.

ولما جلس المهدي على عرش مصر أمر بفتح باب لمسجد الخليل وزينه وفرشه بالسجاجيد وأدخل على عمارته إصلاحاً كثيراً.

وقال الأصطخري في كتابه المسالك والممالك الذي ألفه عام 340هـ 951م ومن بيت لحم على سمته في الجنوب مدينة صغيرة شبيهة بالقدر بقرية تعرف بمسجد إبراهيم عليه السلام وفي المسجد الذي يجمّع فيه الجمعة قبر إبراهيم وإسحاق ويعقوب عليهم السلام صفاً وقبور نسائهم صفاً بحذاء كل قبر من قبورهم قبر امرأة صاحبه.

---

(1) صبح الأعشى. والطبقات الكبرى لابن سعد 7 ـ 408.

في عام 513هـ ـ 1119م دخل جماعة من الفرنج مغارة مكفيلة أشار إليها ابن القلانسي بقوله: وفي هذه السنة 513هـ حكى من ورد من بيت المقدس ظهور قبور الخليل وولديه إسحاق ويعقوب الأنبياء عليهم السلام وهم مجتمعون في مغارة بأرض بيت المقدس وكأنهم كالأحياء لم يبل لهم جسد ولا رم عظم وعليهم في المغارة قناديل معلقة من الذهب والفضة. وأعيدت القبور إلى حالها التي كانت عليه.

وفي عام 1168م بنيت كنيسة على موقع الحرم الإبراهيمي الشريف وللغرب منها شيدت القلعة.

ولما استرد صلاح الدين الأيوبي الخليل على إثر معركة حطين عام 583 ـ 1187م حوّل الكنيسة المذكورة إلى جامع وهو الحرم الإبراهيمي الشريف اليوم، ونقل إليه منبر عسقلان الذي كان المستنصر بالله أبو تميم معد الفاطمي أمر بصنعه عام 484هـ وما زال قائماً إلى يومنا هذا.

في عام 664 نزل السلطان الظاهر بيبرس غزة ومنها رحل إلى الخليل وفيها منع اليهود والنصارى الإفرنج من دخول مقام الخليل وكانوا قبل ذلك يدخلون ويؤخذ منهم المال على ذلك فأبطله واستمر منعهم.

في عام 666 أمر بيبرس بعمارة مسجد الخليل عليه السلام، فتوجه الأمير جمال الدين ابن نهار للقيام بذلك حتى أنهى عمارته وفي ذلك يقول المقريزي عن بيبرس (وجدّد قبة الخليل عليه السلام ورم شعثه وأصلح أبوابه، وميضأته وبيضه).

ومن أهم الشخصيات التي زارت قبر النبي إبراهيم في الخليل. الشيخ أحمد بن محمد المقري التلمساني صاحب كتاب نفح الطيب وقال في ذلك: وزرت مقام الخليل ومن معه من الأنبياء ذوي المقامات الرفيعة.

وقد زار الشيخ عبد الغني النابلسي الخليل عام 1011 وكتب وصفاً لقبر النبي إبراهيم وبعض الأماكن الموجودة حوله.

ولعل أقدم وصف عُثر عليه لهذا الحرم الشريف هو لـ ناصر خسرو الذي زاره عام 438هـ 1047م ويقول فيه:

والمشهد يتكون من بناء ذي أربع حوائط من الحجر المصقول. طوله ثمانون ذراعاً وعرضه أربعون وارتفاعه عشرون. وثخانة حوائطه ذراعان. وبه مقصورة ومحراب في عرض البناء. وبالمقصور محاريب جميلة بها قبران رأسهما للقبلة. وكلاهما من الحجر المصقول وبارتفاع قامة الرجل. الأيمن قبر إسحاق بن إبراهيم والآخر قبر زوجته. وبينهما عشرة أذرع. وأرض هذا المشهد وجدرانه مزينة بالسجاجيد القيمة والحصر المغربية التي تفوق الديباج حسناً. وقد رأيت هناك حصيرة صلاة. قيل أرسلها أمير الجيوش وهو تابع لسلطان مصر وقد اشتُريتْ من مصر بثلاثين ديناراً من الذهب المغربي. ولو كانت من الديباج الروماني لما بلغت هذا الثمن ولم أر مثلها في مكان قط.

حين يخرج السائر من المقصورة إلى وسط ساحة المشهد يجد مشهدين أمام القبلة الأيمن به قبر إبراهيم الخليل. وهو مشهد كبير ومن داخله مشهد آخر لا يُستطاع الطواف له ولكن له أربع نوافذ يرى منها. فيراه الزائرون وهم يطوفون حول المشهد الكبير. وقد كسيت أرضه وجدرانه ببسط من الديباج. والقبر من الحجر وارتفاعه ثلاثة أذرع وعلق به كثير من القناديل والمصابيح الفضية.

والمشهد الثاني الذي يسار القبلة به قبر سارة زوج إبراهيم. وبين القبرين ممر عليه باباهما. وهو كالدهليز وبه كثير من القناديل والمسارج. وبعد هذين المشهدين قبران متجاوران. الأيمن قبر النبي يعقوب والأيسر قبر زوجه وبعدهما المنازل التي اتخذها لضيافة زائريه وبها ستة قبور. وخارج المشهد منحدر به قبر يوسف بن يعقوب. وهو من الحجر وعليه قبة جميلة. وعلى جانب الصحراء بين قبر يوسف ومشهد الخليل (مقبرة) يُدفن بها الموتى من جهات عديدة. وعلى سطح المقصورة في المشهد حجرات للضيوف الوافدين وقد وُقف عليها أوقاف كثيرة من القرى ومستغلات بيت المقدس.

وفي سنة 745هـ 1344م زار المؤرخ العمري مدينة الخليل فوصف الحرم الإبراهيمي في كتابه مسالك الأبصار وممالك الأمصار: فيقول:

لم يكن لهذا الحير باب. وإنما المسلمون لما افتتحوا البلد فتحوا له باباً وبناؤه بناء محكم وفي حائطه حجارة هائلة في كبر القدر منها ما طوله سبعة وثلاثون شبراً وقد أقيم بهذا الموضع خطبة ورتب به إمام ومؤذنون.

وفي قبلته باب ينزل منه بدُرج كثيرة إلى سرداب ضيق تحت الأرض يأخذ متشاملاً إلى فجوة فيها ثلاث نصائب قبور في حائطه يقال إنها قبر الخليل وزوجته وإسحاق. وهناك طاقة لا يعرف إلى أين تنتهي. لكن يقال إنها مغارة تحت أرض الحرم فيها الموتى وتلك أمثال القبور من فوق.

وقد أتيتُ إلى هذا السرداب ومشيت به زحفاً لضيقه.

ثم يقول: وهذا الحرم مؤزّر جدره بالرخام الملون والمذهب وعليه أوقاف جليلة.

وفي عام 901هـ وصف صاحب الأنس الجليل في تاريخ القدس والخليل الحرم الإبراهيمي بقوله: وهذا المقام الكريم الذي هو داخل السور طوله في سعته من صدر المحراب الذي عند المنبر إلى صدر المشهد الذي به ضريح النبي يعقوب عليه السلام ثمانون ذراعاً ينقص يسيراً نحو نصف أو ثلثي ذراع تقريباً وعرضه شرقاً بغرب من السور الذي به باب الدخول إلى صدر الرواق الغربي الذي فيه شباك يتوصل به إلى ضريح سيدنا يوسف عليه السلام أحد وأربعون ذراعاً.

وقال الحافظ ابن عساكر مؤرخ دمشق: قرأت في بعض الكتب لأصحاب الحديث ونقلت منها قال محمد بن أبي بكر أن محمد خطيب مسجد إبراهيم ـ وكان قاضياً في أيام الراضي بالله في سنة نيف وعشرين وثلاثمائة وما بعدها 935م. سمع من جماعة وحدث عنه جماعة من أهل العلم قال سمعت محمد بن أحمد بن علي بن جعفر الأنباري يقول سمعت أبا بكر الإسكافي يقول: صح عندي أن قبر إبراهيم عليه السلام في الموضع الذي هو فيه الآن لما رأيت وعاينت. وذلك أنني وقفت على السدنة وعلى

الموضع أوقافاً كثيرة بنحو أربعة آلاف دينار رجاء ثواب الله عز وجل. وطلبت أن أعلم صحة ذلك حتى ملكت قلوبهم بما كنت أعمل معهم من الجميل والكرامة والملاطفة والإحسان إليهم وأطلب بذلك أن أصل إلى ما صح وحاك في صدري، فقلت لهم يوماً من الأيام وقد جمعتهم عندي بأجمعهم أسألكم أن توصلوني إلى باب المغارة كي أنزل إلى الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم وأشاهدهم فقالوا قد أجبناك إلى ذلك لأن لك علينا حقاً واجباً ولكن ما يمكن في هذا الوقت لأن الطارق لنا كثير. ولكن حتى يدخل الشتاء. فلما دخل كانون الثاني خرجت إليهم فقالوا أقم عندما حتى يقع الثلج. فأقمت عندهم حتى وقع الثلج وانقطع الطارق عنهم فجاؤوا إلى صخرة ما بين قبر إبراهيم الخليل وقبر إسحاق عليهما السلام فقلعوا البلاطة ونزل رجل منهم يقال له صعلوك وكان رجلاً صالحاً فيه خير ودين ونزلت معه ومشى وأنا من ورائه فنزلنا اثنتين وسبعين درجة فإذا عن يميني دكان عظيم من حجر أسود وإذا عليه شيخ خفيف العارضين طويل اللحية ملقى على ظهره وعليه ثوب أخضر فقال لي صعلوك هذا إسحاق عليه السلام، ثم سرنا غير بعيد وإذا دكان أكبر من الأول وعليه شيخ ملقى على ظهره له شيبة قد أخذت ما بين منكبيه أبيض الرأس واللحية والحاجبين وأشفار العينين وتحت شيبته ثوب أخضر قد جلل بدنه والرياح تلعب بشيبته يميناً وشمالاً فقال لي صعلوك هذا إبراهيم الخليل عليه السلام. فسقطت على وجهي ودعوت الله عز وجل بما فتح علي ثم سرنا فإذا بدكان لطيفة عليه شيخ آدم شديد الهيبة كث اللحية وتحت منكبيه ثوب أخضر قد جلله فقال لي صعلوك هذا يعقوب النبي عليه السلام. ثم إننا عدنا يساراً للنظر إلى الحرم فحلف أبو بكر الإسكافي أن تممت الحديث قال: فقمت من عنده في الوقت الذي حدثني فيه من وقتي إلى مسجد إبراهيم عليه السلام فلما وصلت إلى المسجد سألت عن صعلوك فقيل لي الساعة يحضر فلما جاء قمت إليه وجلست عنده وطارحته بعض الحديث فنظر إليّ بعين منكرٍ للحديث الذي سمع فأومأت إليه بلطف تخلصت به من الإثم. ثم قلت

له إن أبا بكر الإسكافي عمي فآنس عند ذلك فقلت له يا صعلوك بالله لما عدلتم نحو الحرم ماذا كان وما الذي رأيتما فقال ما حدثك أبو بكر فقلت أريد أن أسمعه منك أيضاً قال سمعنا من نحو الحرم صائحاً يصيح تجنبوا الحريم رحمكم الله فوقعنا مغشياً علينا ثم إنا بعد وقت أفقنا وقمنا وقد أيسنا من الحياة وأيست الجماعة منا قال: فقال لي الشيخ. فعاش أبو بكر الإسكافي بعدما حدثني أياماً يسيرة ثم توفي وتوفي كذلك صعلوك رحمهما الله[1].

وقد وردت مثل هذه القصة الموثقة في كتاب الإشارات إلى معرفة الزيارات للهروي.

وكذلك قال بهذه القصة صاحب كتاب الأنس الجليل في تاريخ القدس والخليل.

والواقع أن مسجد الخليل حظي باهتمام الخلفاء والسلاطين على مدى ألف وأربعمائة سنة بالاهتمام والتبجيل والتقدير.

ومع الاحتلال الصهيوني للضفة الغربية ومنها الخليل عاثوا فساداً فيها، وأجروا الجرائم الدموية بحق حماةِ هذا المسجد العظيم ولعل أكبر مجزرة شهدها الحرم ما قام به الصهيوني باروخ غولدشتاين عندما دخل المسجد في رمضان وعند صلاة الصبح وقتل أكثر من ثمانية عشر مصلياً فلسطينياً ثم قُتل بدوره.

(1) نقلاً عن كتاب مصطفى الدباغ، بلادنا فلسطين، جزء الخليل ص 339 ـ 340.

الفصل السادس

الصراع على إبراهيم

الصراع من أجل إبراهيم

لعلنا الآن نصل إلى مفصل من مفاصل الصراع بين أتباع النبي إبراهيم الحقيقيين وبين من يدّعون انتسابهم له ويمارسون ما يخالف أبسط مبادئه ومنهجه وسلوكه والواقع أن أحد كبار الباحثين الألمان لخص هذا الصراع بقوله:

إن إسماعيل عليه السلام مثّل طريق إبراهيم خير تمثيل بينما انشق أحفاد يعقوب من بني إسرائيل عن هذا الطريق وأصبحوا وثنيين بكل ما تعني الكلمة من معنى. والصراع المستمر بين أحفاد إسماعيل ومن يدَّعون الانتساب إلى يعقوب هو صراع بين التوحيد والوثنية، وهذا الصراع قائم مستمر متجسد في فلسطين.

إن عداء اليهود اليوم لإسماعيل وأحفاده ومن اتبع منهجه التوحيدي هو نفسه عداؤهم للمسيح عليه السلام. فهم يريدون أن يبعدوا إسماعيل ويبعدوا المسيح عن دائرة منهج النبي إبراهيم. ويدل هذا على أن هناك حركة عنصرية مستمرة لا تنقطع أساسها التفكير الديني التوراتي والتلمودي وفروعها التفكير الصهيوني المعاصر الذي جسد أعلى درجة من العنصرية في التاريخ.

إننا لا شك نقف أمام أسئلة عديدة على العالم كله أن يجيب عليها ولا سيما هؤلاء المسيحيون الغربيون الذين وقعوا في البداية في مصيدة اليهودية ثم ما لبثوا أن أقنعوا أنفسهم بقناعات اليهودية التي رسخت التفسيرات المغلوطة للتوراة في أذهانهم هل جعل الله سبحانه إبراهيم نبياً كي يعده بأرض له ولنسله أم أن الله بعثه نبياً لينشر عقيدة التوحيد بين الناس ويرسخ منهج ربه في هذه الأرض؟

هل أقام إبراهيم قواعد البيت الحرام في مكة المكرمة برغبة شخصية منه أم أن الله سبحانه أراد ذلك كي يكون البيت مثابة للناس ورمزاً خالداً لعقيدة التوحيد؟ لماذا يريد اليهود نفي بناء إبراهيم لهذا البيت والآثار الدالة عليه لا تعد ولا تحصى؟ من الذي سار على منهج النبي إبراهيم وسنته؟ هل هم أتباع الإسلام والنبي محمد

ﷺ أم هؤلاء الذين جاؤوا من كل أصقاع الأرض بعد أن تهودوا وصور لهم زعماؤهم أنهم من نسل إبراهيم وأبنائه وأحفاده.

إن الدلائل التاريخية والتي أهمها آيات القرآن الكريم تشير إلى أن إبراهيم وإسحاق ويعقوب ونسله بريئون مما لفقه هؤلاء اليهود. وبريئون من سلوكهم وأفعالهم. ولو كانوا فعلاً على منهج النبي إبراهيم لآمنوا برسالة النبي محمد ﷺ ولآمنوا برسالة المسيح الحقيقية. لكن انتسابهم إلى النبي إبراهيم كذبة كبرى أرادوها كي يربطوا البعد السياسي بالبعد الديني التاريخي. والسبب واضح تماماً وهو أنهم لا دين لهم ولا انتساب.

كيف صنعوا الصراع على إبراهيم؟

عندما نراجع نصوص التوراة ونقابلها بنصوص آيات القرآن الكريم نرى التناقض يصل أوجه. فوجود النبي إبراهيم والغاية من هذا الوجود يختلفان ويتناقضان بشكل كبير. تركز التوراة على أن وجود إبراهيم مرتبط بالأرض. فلا هو يصارع قومه الوثنيين ولا هو يعيش صراعاً مع المشركين. وليس من سبب لهجرته إلا بلاد غير بلاده وموطنه سوى وعدٍ من الله بأن يملكه أرضاً. وهذه الأرض ليست أغنى من بلاده ولا أخصب.

أهذه هي غاية الله من بعث إبراهيم نبياً يصارع الأوثان وعبدة الأوثان. وهل مهمة الأنبياء محصورة في المكافآت المادية الأرضية؟

ما الفرق بين هؤلاء الوثنيين الذين حاولوا قتل النبي إبراهيم وبين هؤلاء المتهودين الذين حاولوا قتل رسالته. وما الفرق بين القتل المادي والقتل الروحي؟

إن القرآن الكريم حينما يوضح شخصية هذا النبي العظيم بأنه إمام وأنه أمة وأنه النبي الذي نادى بعقيدة التوحيد في عدة مناطق من هذا الوطن العربي يبين لنا ولغيرنا أن الأنبياء يصطفيهم الله لمهمة واضحة وهي دعوة الناس إلى دين الله الواحد وليس دعوة الناس للغزو والاحتلال وحروب الإبادة والاستيلاء على

الأراضي المسكونة إننا نرى التوراة وهي تحرف الحقائق عن مسارها. وهي تشوه غاية الله وهدفه من وجود الأنبياء ورسالاتهم.

فإذن صنعوا الصراع أولاً مع الله سبحانه مع إرادته ومشيئته واصطفائه وبذلك فهم في دائرة المشركين الذين حاربوا ويحاربون منهج الله في الرسالات والأرض.

لقد كان منهجهم وما زال يسير على استبعاد الآخرين وإضفاء الصفات الدونية عليهم ومنذ النبي إبراهيم نرى أنهم استبعدوا الرسالة التوحيدية الشاملة عن النبي إبراهيم وضيقوا عليه الخناق حتى أصبح خادماً سياسياً لأهدافهم الاستعمارية العنصرية. استبعدوا عنه بناءه لبيت الله الحرام. استبعدوا حتى رحلته إلى مكة ودعوته العالمية للحج. وضيقوا أكثر فأكثر فجعلوه رجلاً بلا رجولة وبلا قرار وبلا إرادة. وخاصة حينما جعلوه ينفذ أوامر امرأته ولا يعصي لها أمراً. بينما الحقيقة تقول إن أوامر الله له ليس لها علاقة بامرأته. فلا هي تستكشف الغيب الذي قرره الله في علمه حين أرسل زوجته الأخرى وابنه إسماعيل إلى وادي مكة كي يكون هناك البيت الحرام مرفوعاً شاهداً على عقيدة التوحيد منذ ذلك الزمن وحتى قيام الساعة.

ومرة أخرى خلقوا الصراع حين جعلوا من النبي إسماعيل أقل وزناً وأقل شأناً من النبي إسحاق. فإذا بهم يفترضون أن إسماعيل ابن جارية، ويجب أن يُستبعد من إرث أبيه. ويجب أن يرحّل هو وأمه وهو طفل صغير.

إنهم لم يفهموا ما هي النبوة بينما سرّ النبوة كان في إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ولم يفهموا أن الله عندما اصطفى إسماعيل نبياً وإسحاق نبياً اصطفاهما لغايات كبيرة على رأسها إنهم من الأنبياء والمرسلين يدعون إلى عقيدة التوحيد ولا يتوقفون عن ذلك لقد أرادوا من كلامهم في التوراة أن يخلقوا فتنة بين الأخوين النبيين. وقد نجحوا في خلق هذا الصراع بين الأحفاد أو بين أتباع إسماعيل والمدّعين أنهم أتباع إسحاق لقد خلقوا هذه الفتنة وهذا الصراع، ولو كانوا فعلاً على منهج إبراهيم عليه السلام

لما فرقوا بين الأخوين إسماعيل وإسحاق ولما اخترعوا الصراع القائم من أكثر من ألف وأربعمائة سنة حتى الآن.

لقد اخترعوا الصراع مع أكثر من مليار مسلم يؤمنون بالله رباً وبإبراهيم نبياً واخترعوا الصراع مع أكثر من مليار مسيحي يؤمنون برسالة المسيح وجده النبي إبراهيم هم أرادوا من رفضهم للمسيح أن يقولوا ليس من حق أتباع المسيح وزكريا ويحيى أن يسكنوا في أرض فلسطين. ولهذا هجّروا المسيحيين العرب من القدس وفلسطين كما هجّروا المسلمين. هم لا يريدون أن يكون إبراهيم أباً لإسماعيل وجداً لمريم والمسيح ولو أنهم يستطيعون اليوم تبديل ما جاء في سفر التكوين لما قصروا وهم يلعنون الساعة التي دوّن فيها عزرا الكاتب سفر التكوين وجاء على سيرة إسماعيل وأمه المظلومة في كتابهم. ويلعنون الساعة التي بُعث فيها المسيح ليهديهم سواء السبيل.

لقد رفع النبي إبراهيم قواعد البيت الحرام في مكة وبلغ رسالته للناس كافة. وهي رسالة التوحيد الواضحة. وحين نرى أحفاد يعقوب عليه السلام وهم يستوطنون أرض مصر لأكثر من مائتي سنة. ينسون إبراهيم وإسحاق ويعقوب. وينسون عقيدة التوحيد التي نادى بها يوسف حفيد إبراهيم. وعندما يرحلون من مصر باتجاه سيناء تدغدغ أفكارهم ونفوسهم عقيدة وثنية أخذوها عن المصريين، لم يفهموا ماذا تعني دعوة النبي موسى لذلك طلبوا أن يجعل لهم آلهة كما للشعوب التي رأوها تعبد آلهة في سيناء. ثم غافلوا النبي موسى عندما ذهب لميقات ربه أربعين يوماً فصنعوا العجل وأخذوا يقولون هذه آلهتك يا إسرائيل التي أخرجتك من مصر. وكأي قبائل متخلفة راحوا يرقصون حول هذا العجل ويغنون ويدورون حوله. فأين هي عقيدة إبراهيم من هؤلاء. وأين هي عقيدة موسى وهارون من عبدة العجول والأبقار؟

وكيف يدعون نسبهم العرقي أو الديني إلى النبي إبراهيم وهم أخذوا عن المصريين عقائدهم وشاطروهم الزواج المتبادل. ألم تقل التوراة إن النبي يوسف كان قد

تزوج من ابنة كاهن أون فوطي فارع المصري، ألم تقل التوراة إن النبي موسى تـزوج مـن صفورة ابنة الشيخ العربي الجليل صاحب مديَن؟ والذي أطلقوا عليه اسم يثرون.

إذاً مرة أخرى نقول إن الصراع الذي افتعلـوه هـو صراع الـوثنيين مـع أهـل التوحيد صراع ضد إبراهيم وأتباعه منذ أربعة آلاف عام وحتى اليوم.

لقد دخلوا سيناء وظـل النبـي موسـى يـدعوهم إلى عقيـدة إبـراهيم عقيـدة التوحيد ومرت عشرات السنين ولم يفهموا على النبي موسى وحتى آخر لحظـة ظـل صابراً عليهم بعزيمة الأنبياء وهيهات هيهات. لأنهم كـما قـال النبـي موسـى قـساة القلوب قساة الرقبة. أشربوا في نفوسـهم عبـادة العجـل. لـذلك لم تفـدهم دعوتـه ورفضوا أوامره. فاتخذ القرار الأخير: (رب إني لا أملك إلا نفسي وأخي فافرق بيننا وبين القوم الفاسقين). فهل نريد وصفاً أكثر من هذا لبني إسرائيل ـ الفاسقين ـ وما الفرق بين من فسق ومن كفر؟ هكذا أرادوا أن يكونـوا بعيـدين عـن ملـة إبـراهيم الحنيفية وعن عقيدة موسى التوحيدية. وهم يريدون فقط أن يتمـسكوا بـأمر بعيـد عن الله، بعيد عن الدين. يريـدون أن يثبتـوا دعـواهم أن الله وعـد إبـراهيم بـأرضٍ يمتلكها هو ونسله من بعده. وما عدا ذلك فلا يهمهم ولا يروق لهم أن ينظـروا فيـه أو يطبقوه. إذاً هي دعوة استعمارية مستندها نص ديني اعتقدوا أن الله نزله وخدعوا أنفسهم وحاولوا خداع الناس. ولكن ألسنتهم شهدت عليهم وعزرا الكاتب كتب لهم توراة أخرى آمنوا بها لأنها دغدغت صدورهم وشهوتهم وميلهم الطبيعي نحـو الفساد والإفساد وحب التملك ولو على حساب الآخرين من الشعوب هل قرأنا أو سمعنا أن النبي إبراهيم وأحفاده دعـوا إلى احـتلال الأرض المباركـة؟ أم أننـا قرأنـا وسمعنا أن إبراهيم بنى الكعبة ودعا الناس إلى الحج وتلبية نداء الله الواحد؟

ولم يحصروا صراعهم في زمن من الأزمان أو في مكان من الأمكنـة. فبعـد أن أراد النبي موسى باختياره أن يكون بعيداً عنهم ولو بالموت. استمروا على شذوذهم وانحرافهم عن عقيدة النبي إبراهيم والأنبياء من بعده.

في عصر ما بعد النبي موسى افتقدوا للأنبياء فلم يعد هناك من يرشدهم ويهديهم. واختاروا لأنفسهم منهجاً وثنياً خاصاً. فجسدوا ربهم وسمّوه رب بني إسرائيل ورب الجنود وجعلوه جندياً مسلّحاً يقودهم في حروب تصوّروها. فأين صفات رب إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب ويوسف. ألا نرى الفروق الشاسعة بين صفات الله خالق السماوات والأرض والبشر وبين صفات الرب الخاص بهم؟ هكذا صوّر سفر يشوع وهو السفر السادس من التوراة العبرانية الإله الإسرائيلي الذي هبط من عليائه يلبس الدرع ويحمل الرمح والخوذة على رأسه ليقاتل إلى جانب تلك القبائل البربرية التي يقودها يشوع من أجل احتلال أريحا. هل هذا هو إله إبراهيم؟ من الطبيعي أن يأتي الرد بالنفي لأن إله إبراهيم ليس إله حرب وقتل وليس هو ذلك الإله الذي يوصي أتباعه بقتل الإنسان طفلاً وشيخاً وامرأة وبقراً وحميراً كما نص على ذلك سفر يشوع التوراتي.

لقد مكث أتباع إبراهيم وإسماعيل في البيت الحرام في وادٍ غير ذي زرع. يدعون إلى التوحيد والسلام والأمن. وراح من يدعون الانتساب إلى يعقوب عليه السلام يسفكون الدماء وتغمرهم شهوة القتل وحروب الإبادة.

هناك في البيت الحرام أحفاد إسماعيل يستقبلون الحجاج والعاكفين والساجدين والركع السجود. يطعمونهم ويسقونهم ويعينون الفقير منهم، يفتحون قلوبهم وأذرعهم للزائرين الآمنين على أرواحهم وأموالهم ومتاعهم، بينما من انحازوا عن التوحيد حلّلوا المحرم ومثّلوا خير تمثيل القبائل الهمجية التي يقودها قائد إلهي إسرائيلي يسفك ويقتل ويخرب ليرضي شهوته الشاذة.

وبالقرب من قبر النبي إبراهيم يوزع يشوع أراضي الدم على أسباط بني إسرائيل. وهيهات أن يتحول الهمجي إلى مزارع وابن مدينة وهيهات يقيم حضارة طالما هو لا يعرف ولم يعرف أسس الحضارة. كيف بأناس يأتون من التيه الصحراوي بعد أن مكثوا ثمانين سنة بين الرمال يستطيعون أن يتمثلوا الحضارة الكنعانية العربية التي استقبلت

النبي إبراهيم بالأحضان وأنزلته بين ظهرانيها منزلاً حسناً مباركاً قبل أن يظهر يشوع بأكثر من ثمانمائة سنة. ويأتي بعد هذه القرون لينفذ مشيئة كاتب التوراة الذي أرادها حرباً مفتوحة على إبراهيم وعقيدته وأحفاده وأبناء جلدته.

وعندما يأتي عصر القضاة لا يجد بنو إسرائيل سوى زناة وقاطعي طرق ليقضوا لهم ويعلموهم شريعتهم الدموية حتى أنهم وجدوا في بعض النساء من يقضي لهم وعلى الرغم من ذلك يفصح سفر القضاة عن انحراف كبير حتى في عقيدتهم المنحرفة. فانحازوا عنها إلى عقائد وثنية استبدلوها بعقيدتهم الوثنية القديمة. فراحوا يعبدون عشتار وبعل وملكولم وعدداً من الأوثان المنتشرة هنا وهناك.

ولما لم تنفع هذه العقائد في تحقيق مطامعهم أراد نبي لهم اسمه صموئيل أن يجمع ما تفرق من شعثهم ونصّب لهم ملكاً بالكاد حتى قبلوا به، فقالوا عنه ليس ذا مال ومن عائلة فقيرة. فقادهم في حروب ضد المنشقين عنهم أصحاب جالوت. وكل ذلك لم ينفع في تصحيح نفوسهم. فقضى الله لهم بأن يبعث داود نبياً يفصل في نزاعاتهم ويضرب على أيديهم. لقد كان داود يريد أن يصححوا مسارهم الوثني وأن يعودوا إلى عقيدة إبراهيم لكنهم رفضوا وراحوا يشنون عليه حروباً نفسية ودموية. فاتهموه بالانحراف والزنا ثم قلبوا أبناءه عليه بانقلاب شرس وراحوا يقتلون بعضهم بعضاً حتى فني بيت النبي داود ولم يبق منه سوى من اختاره الله ليكون نبياً يتابع مسيرة أبيه، وكذا عندما ورث سليمان أباه داود شنوا عليه أبشع حملة نفسية ودينية. فقالوا عنه إنه انحاز إلى عبادات نسائه الوثنية وترك عبادة الرب، كل ذلك لأن سليمان كان نبياً مختاراً من الله يقضي بين الناس بالعدل. فلم يرق لهم لأنهم كانوا يريدون أن يقضي لهم على حساب غيرهم.

وهكذا أحفاد إبراهيم من الأنبياء أرادوا لبني إسرائيل الطريق المستقيم فرفضوا وأبوا إلا أن يظلوا يفتعلون الصراع الدموي ضد الأنبياء والمصلحين وضد كل من سار على منهج إبراهيم والأنبياء من بعده.

ويبقى المنهج النفسي الديني المنحرف مسيطراً عليهم. لم يحاولوا مرةً أن يعودوا إلى الله وعقيدة إبراهيم والأنبياء.

لننظر ماذا فعلوا بالنبي إلياس عندما أراد أن يمنعهم من عبادة البعل. فبعد أن قتل إلياس أنبياء البعل في إسرائيل بحكم من الله طلَبه هو. أمر الملك أخاب وزوجته الوثنية إيزابل بأن يُحضر ويعدم. ففر إلياس هائماً على وجهه ولكن إذا بقدميه تحملانه إلى بئر السبع. هنا سرّح خادمه وذهب مسيرة يوم في الصحراء وجلس إلى رتمةٍ والتمس الموت لنفسه وقال: (حسبي الآن يا رب فخذ نفسي فإني لست خيراً من آبائي ثم اضطجع ونام تحت الرتمة فإذا بملاك قد لمسه وقال له (قم فكلْ) فالتفت فإذا عند رأسه رغيف مليل وجرّة ماء فأكل وشرب ثم عاد واضطجع. فعاوده الملاك ثانية ولمسه وقال قم فكل فإن الطريق بعيدة أمامك. فقام وأكل وشرب وسار بقوة تلك الأكلة أربعين يوماً وأربعين ليلة إلى جبل الله حوريب. ودخل المغارة هناك وبات فيها وهي المغارة التي لجأ إليها موسى حينما اختبأ من الله (فإذا بكلام الرب إليه يقول ما بالك ههنا يا إلياس فأجاب إلياس إني غرتُ غيرة للرب لأن بني إسرائيل قد نبذوا العهد مع الله وبقيت وحدي وفياً لله ولهذا السبب يطلبون نفسي ليأخذوها) فقيل له اخرج وقفْ على الجبل أمام الرب فإذا بالرب عابر وريح عظيمة وشديدة تصدع الجبال. بعد ذلك صوت نسيم لطيف فخرج إلياس ووقف بمدخل المغارة وتقبل أوامر الله بخصوص ما يجب أن يفعله من الآن فصاعداً في إسرائيل ومن أجله. سفر الملوك الثاني الفصل 18 ـ 19.

لنقارن بين هذا الحدث وسير هاجر في الصحراء بعدما طردت هي مع إسماعيل ـ حسب التوراة ـ هي أيضاً لم يبق معها ماء وأرشدها الله إلى موضعه بطريقة عجيبة. هي أيضاً سألها ملاك الله ماذا تفعلين وتقوت بقوة فائقة الطبيعة ومشت إلى فاران[1].

(1) رينهارد لاوت. إبراهيم وأبناء عهده مع الله.

يقول رينهارد لاوت: إن إسماعيل هو الشاهد على حقانية الله وفيها على العدالة بالمعنى الضيق. ليسمح لي في نهاية عملي هذا أن أعبر عن النيّة التي كتبته فيها بكلام القرآن نفسه: ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلْيَهُودَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْ ۖ وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّا نَصَٰرَىٰ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٨٢﴾ وَإِذَا سَمِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُواْ مِنَ ٱلْحَقِّ ۖ يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾ (المائدة: 82 ـ 83).

لما أرادوا أن يقتلوا إلياس النبي، أليس لأنه حارب وثنيتهم وسار على نهج من قبله من الأنبياء، أليس لأنه أراد أن يعود بهم إلى عقيدة إبراهيم وأولاده عليهم السلام. لقد حاربهم إلياس لأنه أراد أن يدافع عن عقيدة جده الأكبر إبراهيم وهي عقيدة التوحيد. وهكذا هو طريق جميع أحفاد ذلك النبي الإمام من الأنبياء والصديقين.

ويتأصل العداء أكثر فأكثر حين يزحف البابليون إلى فلسطين ويحررونها من هؤلاء الفاسدين المفسدين. حينما نقرأ حوار نبوخذنصر وغيره من قادة الزحف مع بني إسرائيل ندرك مسألة في غاية الخطورة. فقد وبّخهم وأنّبهم لما فعلوه بالنبي إرميا والأنبياء الآخرين الذين انتقدوهم ورفضوا فسادهم وفرض نبوخذنصر عليهم أن يخرجوا إرميا من البئر الذي كان مسجوناً فيه. وقد أراد أن يأخذه معه مكرماً معززاً لكنه آثر أن يذهب إلى مصر ويعيش ويموت هناك.

وأوصى نبوخذراصّر ملك بابل على إرميا نبوزرادان رئيس الشُّرُط قائلاً خذه وضع عينيك عليه ولا تفعل به شيئاً رديئاً بل كما يكلمك هكذا افعل معه.

(فالآن هأنذا أحلّك اليوم من القيود التي على يدك فإن حسن في عينيك أن تأتي معي إلى بابل فتعال فأجعل عينيّ عليك. وإن قبح في عينيك أن تأتي معي إلى بابل فامتنع) إرميا 39.

إن الكلدانيين البابليين حين أتوا إلى فلسطين كان هدفهم الأساسي تأديب بني إسرائيل الذين انحازوا كلياً عن طريق إبراهيم وطريق التوحيد. ومن المؤكد أن ذلك كان تقديراً من الله الذي بعث لهم الأنبياء ليرشدوهم دوماً إلى طريق الصواب ولكنهم رفضوا وعاندوا. جاء في إرميا: (أتسرقون وتقتلون وتزنون وتحلفون كذباً وتبخرون للبعل وتسيرون وراء آلهة أخرى لم تعرفوها ثم تأتون وتقفون أمامي في هذا البيت الذي دعي باسمي عليه وتقولون قد أُنقذْنا حتى تعملوا كل هذه الرجاسات) 7: 9ـ10.

وتبعد المسافات وتبتعد بين منهج إبراهيم ومنهج هؤلاء الوثنيين الذين فُرضت عليهم الشقاوات والمآسي بسبب أفعالهم وإدامتهم للحقد على إبراهيم وأبنائه الأنبياء حتى في السبي البابلي لم يرتدعوا وتناسوا تماماً ملة إبراهيم.

ويأتي عصر المسيح ويا له من عصر امتلأ بالشرور اليهودية الفاسدة حتى بلغت ذروتها. بعث الله لهم ثلاثة أنبياء في عصر واحد. زكريا ويحيى والمسيح بن مريم. مثلوا عقيدة إبراهيم التوحيدية خير تمثيل لكن اليهود كانوا أقصى وأشرس فقتلوا يحيى ثم ألحقوا به النبي الشيخ زكريا ولاحقوا المسيح وحاولوا قتله إلى أن رفعه الله إلى السماء حفظاً له من شرورهم وإفسادهم.

المسيح عليه السلام قال لهم: لا تدعوا أنفسكم أبناء إبراهيم: (وإذا كنتم أبناء إبراهيم عملتم أعمال إبراهيم).

وقال لهم يحيى: أقول لكم إن الله قادر على أن يُخرج من هذه الحجارة أبناء لإبراهيم ومنذ أن بعث المسيح بن إبراهيم شن اليهود عليه حرباً لا هوادة فيها، واتهموه بأنه يستمد تعاليمه من الشيطان فقالوا عنه مجنون ورفضوا نبوّته ورفضوا إنجيله وقالوا عنه إنه ابن زنى ووصفوا الصدّيقة مريم بأبشع الصفات. أليس هذا كافياً ليعلمنا أن هؤلاء اليهود وثنيون حاربوا عقيدة إبراهيم وعقيدة أبنائه وأحفاده أليس هذا دليلاً على أنهم أرادوا أن يستمر الصراع مع أحفاد وأتباع إبراهيم الحقيقيين؟

ومضى عداؤهم للنصرانية التي تبناها أتباع عيسى بن مريم حتى هذا اليوم فهم يريدون أن تكون المسيحية بلا مسيح. مسيحية غربية تؤمن بشعب الله المختار من اليهود يريدون مسيحية بلا إنجيل حقيقي يؤنبهم ويقرعهم.

لننظر إلى قول المسيح فيهم. الويل لكم أيها الكتبة والفريسيون المراؤون فإنكم تقفلون ملكوت السماوات في وجوه الناس فلا أنتم تدخلون ولا الذين يريدون الدخول تدعونهم يدخلون.

ثم يقول: أيها الحيّات أولاد الأفاعي! كيف لكم أن تنجوا من عقاب جهنم. من أجل ذلك ها أنذا أرسل إليكم أنبياء وحكماء وكتبة فبعضهم تقتلون وتصلبون. وبعضهم في مجامعكم تجلدون ومن مدينة إلى مدينة تطاردون حتى يقع عليكم كل دم زكي سفك في الأرض من دم هابيل الصدّيق إلى دم زكريا بن بركيا الذي قتلتموه بين المقدس والمذبح. متى فصل 23.

وهكذا منذ ما قبل المسيح بألفي عام وإلى ما بعده سار أحفاد إبراهيم الحقيقيون في طريق خطّ إبراهيم بوحي من الله. وسار المتمردون على دينه في طريق آخر خطه الشيطان لهم ليكونوا أعداء دائمين لا أمل فيهم. أعداء لإبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب ويوسف وهارون وموسى وأعداء لداود وسليمان وإلياس والمسيح. وأخيراً جسدوا عداءهم المتراكم لنبي الرحمة والإنسانية محمد ﷺ في أبشع صورة وأردأ سلوك.

أبناء إبراهيم ينتصرون لحنيفيته

اصطفى الله النبي محمداً ﷺ ليكون خاتم النبيين والمرسلين. اختاره من بين أحفاد إبراهيم ليكون النبيّ الخاتم وليحقق على يديه ورسالته بركة الله ووعده لإبراهيم بأن يكون نسله كعدد رمال البحر والصحراء.

إبراهيم عليه السلام دعا ربه قائلاً: ﴿ رَبَّنَا وَٱبۡعَثۡ فِيهِمۡ رَسُولٗا مِّنۡهُمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَيُزَكِّيهِمۡۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴾ (البقرة: 129) فاستجاب الله لدعائه فبعث محمداً رسولاً نبياً ﷺ.

وعيسى ابن مريم: ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ﴾ (الصف: 16).

إذاً مع مبعث محمد ﷺ بعث التحدي من جديد. بعث الصراع مع هؤلاء الوثنيين الذين انحازوا عن سنة إبراهيم. بُعث محمد ﷺ ليبعث من جديد دين إبراهيم وبيت إبراهيم وكعبة إبراهيم ليبعث حنيفية إبراهيم. من جديد بعد انتهى اليهود من تشويه رسالة السيد المسيح وتحريف عقيدته ظنوا أنهم أصبحوا بمنأى عن الفضيحة. فإذا بنبي آخر الزمان يُبعث برسالة عالمية إنسانية قوية يتسلح بقرآن رباني مجيد يحميه الله من التحريف والعبث.

هنا يشتد الصراع على النبي إبراهيم بين أتباعه الحقيقيين والوثنيين من اليهود حتى يبلغ ذروته.

الآن ومع مبعث محمد ﷺ نبياً ورسولاً يريد الله سبحانه أن يُظهر لهم أن دين إبراهيم هو الدين الخالد الذي مهما حاولوا تغييبه فإن الله يُبقيه قوياً من خلال رسالة ما شهد العالم القديم والحديث أنقى منها وأجل وأعظم. إنها رسالة الإسلام التي أرادها الله لإبراهيم والأنبياء جميعاً.

إبراهيم أراد أن يكون البيت الحرام مثابة للناس كما أمره الله سبحانه. وها هو النبي محمد ﷺ يحقق أمر الله وأمنية إبراهيم. إبراهيم عليه السلام تعلم مناسك الحج من الوحي الإلهي وهاهم المسلمون أتباعه يحققون هذه المناسك. وكذلك السعي بين الصفا والمروة. والوقوف في عرفات. هاهنا تعود روح النبي إبراهيم متجلية في تلك الديار الحجازية. في البيت الحرام. في عرفة في منى ومزدلفة. في السعي وزمزم والمقام. هاهنا تتجلى روحه لتقول لهؤلاء المنحرفين ظهر الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقاً. تقول روحه ما بُعثت لأسفك الدماء وأحتل الأراضي بل جئت لأنشر التوحيد وأدعو الناس للمحبة والسلام والاتجاه في صعيد واحد هو صعيد سنة الله المستقيمة في هذه الأرض. بُعث رسول الله محمد ﷺ ليقول لهؤلاء الذين انحرفوا عن سنة إبراهيم تعالوا إلى كلمة سواء. لا تخفوا الحق ولا تحرفوا ما أنزل الله

ولا تغيّبوه. تعالوا لنا ما لكم وعليكم ما علينا. لكنهم رفضوا إلاّ أن يبادروا بالغدر والخسّة والمؤامرة. حاولوا قتله ففشلوا تآمروا مع الوثنيين أمثالهم ليوقعوا به ففشلوا وأتاهم الله من حيث لم يحتسبوا وقذف في قلوبهم الرعب.

وما هي سنوات حتى اشتد الصراع بين أتباع إبراهيم بقيادة رسول الله محمد ﷺ وبين الوثنيين اليهود. فأجلاهم عن المدينة وطاردهم في خيبر وتيماء وفدك وواد القرى. وكان حكم الله عليهم نافذاً. لقد أدركوا الآن أن إبراهيم هو ذلك النبي الذي نبذهم وطاردتهم روحه لأنهم لفقوا عليه وكذبوا ولأنهم حاولوا خداع العالم من خلاله فغضب عليهم ولعنهم مثل ما لعنهم داود وعيسى وبقية الأنبياء. لقد حاول النبي ﷺ أن يؤلف قلوبهم باعتبارهم أهل كتاب وحاول أن يُفهمهم أن ما جاء به النبي موسى عليه السلام لا يختلف عما في الإسلام من عقيدة وتشريع، ولكنهم أبوا إلاّ أن ينكروا عليه النبوة حسداً من عندهم وأبوا إلاّ أن يعادوه وظنوا ظنوناً سيئة ومنحرفة ولا سيما ظنهم بأنهم قادرون على الوقوف في وجه هذا الدين الحنيف. فهزموا في نفوسهم وهزموا في ظنونهم وهزموا في الديار التي استوطنوها.

البيت الحرام الذي رفع قواعده في مكة النبي إبراهيم كان شاهداً عليهم وسيبقى لأن إبراهيم دعاهم إلى دين التوحيد وأداء فرض الحج الذي فرضه الله على الناس جميعاً ولو ساروا على منهج إبراهيم لما طردوا من الجزيرة. ولو آمنوا برسالة خاتم الأنبياء لظلوا قريبين من ذلك البيت الحرام يستوحون منه طريق إبراهيم وعقيدته التوحيدية ولأنهم فسدوا وأفسدوا انتصر الله لمحمد ﷺ ليؤكد أن إبراهيم يعود بروحه من جديد ليؤكد انتصار التوحيد على وثنية هؤلاء الذين يدَّعون الانتساب إلى ملّته ودينه. ويزحف أحفاد إبراهيم الحقيقيون هنا وهناك ليحرروا الشام من الاستعمار الروماني والعراق من الاستعمار الفارسي واليمن من نفوذ الأحباش وتعيش فلسطين حرة عربية إبراهيمية إسلامية على مدى قرون وقرون قوية عزيزة بمسجدها الأقصى ومسجدها الخليلي الشريف.

إذاً هو جولات وجولات من الصراع على إبراهيم ومن أجل إبراهيم عليه السلام.

ونعتقد أن الصراع اليوم يحتدم ويحتدم بين أحفاد الإسلام، أحفاد إبراهيم والمدّعين الفاسدين من اليهود والمتهودين. ولئن امتلك هؤلاء المنحرفون القوة المالية والسلاح فإن الإيمان بعدالة القضية لن يفتر أو يضعف إلى أن يأذن الله بالنصر مرة أخرى مثلما تم النصر في زمن النبي محمد ﷺ وصحابته. ويعود مجد النبي إبراهيم إلى ما كان عليه ويسود التوحيد مرة أخرى أرض فلسطين التي احتضنت إبراهيم حياً وميتاً واحتضنت أبناءه وأحفاده من الموحدين الأنبياء.

على خطا إبراهيم عليه السلام أم على خطا نمرود

مع اشتداد الحرب على العراق تمدد جنود الجيش الأميركي من اليهود ليصلوا إلى المتاحف والآثار والوثائق التاريخية. وقد حانت لهم الفرصة لتصل أيديهم إلى تاريخ العراق وبابل والمناطق الحضارية التي خلفتها الإمبراطوريات المتعاقبة في بلاد الرافدين وقد دفعت الصهيونية بشقيها اليهودي والبروتستانتي المحافظ كل ما في إمكانياتها لتصل إلى آلاف اللوحات والرُّقم والآثار التي خلفتها بابل وغيرها من المدن التي شهدت في القرن السادس ق.م جلب اليهود من فلسطين إلى تلك المناطق.

وكما حرفوا التوراة عن مسارها فقد سرقوا الآثار ليطمسوا التاريخ وليحرفوا الحقائق عن مسارها خاصة ما يتعلق منها بالحديث عن تواجد اليهود في العراق.

مع غزو العراق صب الصهاينة جام حقدهم على التاريخ العربي في العراق وعلى الحضارة العربية العريقة في هذا البلد. وراحوا يسرقون كل ما تطاله أيديهم ليصدروه إلى مراكز الأبحاث الصهيونية وليباع لتجار الآثار والسياسة في فرنسا وأميركا وبريطانيا وغيرها. كل ذلك في كفة والبحث عن أرض إبراهيم ومولده وقومه وطمس حقائقها وحقائقه في كفة أخرى.

وعلى إثر ما وصل إلى الصهاينة من آثار ومخطوطات مسروقة أخذوا يدبرون عدة خطط في غاية الخطورة.

1 ـ سرقة كل ما يمت بصلة لتاريخ أوركلدان وفدان آرام والمنطقة التي سار فيها النبي إبراهيم من أوركلدان مروراً بحرّان وعلى طريق رحلته إلى داخل سوريا ووصولاً إلى مدينة الخليل العربية الكنعانية.

2 ـ تتبع كل شبر من الأرض التي أوردها كاتب التوراة في سفر التكوين على أنها الأرض التي سكن فيها إبراهيم وأقاربه والعمل على وضع تسميات عبرانية لها ومن ثم ترميمها على أساس أنها آثار عبرانية يهودية.

3 ـ العمل على تسرب مجموعات يهودية عن طريق تركيا إلى تلك المناطق المحاذية تماماً للحدود السورية من جهة العراق ومن جهة تركيا. وهذه المجموعات تأتي بأسماء غير يهودية حتى تموّه على الجميع وتخدعهم.

وأخيراً وفي سنة 2007 قام بعض أساتذة الجامعات الأميركية من الصهاينة بجملة مفادها أن يقوم بضعة آلاف من اليهود بالسير على الأقدام أو في حافلات على طريق إبراهيم التي سار فيها من أوركلدان وحتى فلسطين. ليؤكدوا أنهم أحفاد هذا النبي العظيم. ولتكون فاتحة وباباً للسلام والتطبيع على الطريقة الصهيونية.

لكن هذه المحاولة باءت بالفشل لأن خلفياتها افتضحت وانكشفت نواياها. ولما لم يجد المشبوهون نتيجةً من محاولتهم غيروا أساليبهم واستغلوا تواجد القوات الأميركية الغازية في العراق وكذلك كون تركيا عضواً في حلف الناتو. فراحوا يتسربون من تركيا باتجاه المناطق الحدودية بين العراق وسوريا وتركيا. وتسربوا يفتشون عن أي أثر أو مقام أو حجرٍ أو بركة ماء أو جواد قديم قيل إنه على علاقة برحلة النبي إبراهيم عليه السلام من أوركلدان إلى فلسطين.

ووصلوا إلى فدان آرام التي ذكرتها التوراة على أنها المكان الذي كان يسكن فيه خال النبي يعقوب لابان وبأساليب معينة أحاطوا أحد المقامات هناك بحجارة وأصبح محجّاً للعديد من القادمين من أورفة من تركيا. وهكذا يتحركون في كل اتجاه وبأساليب مختلفة للاستيلاء على هذه الأماكن الأثرية والدينية.

والواقع أن هؤلاء لا يتحركون دون تخطيط صهيوني دقيق. وهذا ما يذكرنا بما قام به بعض الآثاريين والمؤرخين الغربيين المؤيدين للدراسات التوراتية من أعمال تنقيبية في فلسطين ليثبتوا كلام التوراة ويؤيدوه، ومن ذلك البحث عن أسماء الأماكن القديمة في فلسطين من قرى وخرب وآثار. وغايتهم من ذلك دعم المقولات الصهيونية التوراتية وتثبيت الاحتلال الصهيوني لفلسطين.

خاتمة

رحلة حقيقية عشناها بدءاً من أربعة آلاف عام حتى الآن. عشنا مع النبي إبراهيم في أوركلدان وهو يحطم الأصنام وينقذه الله سبحانه وتعالى من النار ومن صانعي النار. عشنا معه عندما نجاه الله إلى الأرض المباركة فسار في رحلة طويلة شاقة لا ندري كم استغرقت. وهناك في فلسطين وجد شعباً محباً موحداً يقوده كاهن للعلي القدير يُدعى ملكي صادق. ثم هناك في الخليل يسكن هذا النبي العظيم عند بني حَثّ وينجب ولديه إسماعيل وإسحاق ومن هناك يأمره الله أن يبعث بزوجته وابنه إسماعيل إلى وادٍ غير ذي زرع عند بيت الله المحرم.

وترفع قواعد البيت ويدعو هذا النبي العظيم الناس للحج ويعود إلى فلسطين ليشهد ولادة النبي يعقوب ابن النبي إسحاق. ثم يلبي نداء ربه ويدفن في مغارة المكفيلة إلى جانب زوجته وهكذا تتوالى الأحداث إلى أن يأتي عزرا ليكتب التوراة أيام السبي البابلي ويُدخل الخرافة بالدين والسياسة بالتاريخ فتخرج لدى اليهود فكرة الأرض الموعودة أو الأرض التي وعد الله أن يمتلكها أحفاد إسحاق ويعقوب عليهما السلام.

ومن تلك اللحظة الكتابية المخترعة ينفتح صراع على إبراهيم وإرثه ما يزال قائماً إلى هذا اليوم.

لقد استطاعت الدعاية اليهودية الصهيونية أن تُدخل في عقول الملايين من المسيحيين الغربيين مقولة الأرض الموعودة، حتى كان الدعم الاستعماري للحركة الصهيونية لإقامة وطن قومي لليهود في فلسطين. وانطوت الخدعة على هؤلاء حتى وقت متأخر حين راح العالم يدرك أنه قد خدع تماماً، فبرزت الأصوات المنادية بالتصحيح. واشتدت الحملة العنصرية على العديد من المفكرين والمؤرخين الغربيين كونهم راحوا يفضحون الصهيونية وادعاءاتها الكثيرة.

وبدا تماماً أن الصراع على الصهيونية راح يتسع ويتسع وأصبحت المعركة متشعبة الجوانب على المستوى المسلح والإعلامي والثقافي والتراثي. وبرزت من جديد أوجه الصراع حول الكذبة الكبرى التي اخترعها اليهود فيما يتعلق بنسل النبي إبراهيم والوعد الإلهي المزعوم ومن خلال دراساتنا المستفيضة للنص التوراتي بكل خلفياته وأبعاده نستطيع القول بأن سلاح المعرفة والتعمق في الدراسات التوراتية فتح لنا السبيل الواقعي الموضوعي لدحض مزاعم اليهود الصهاينة ومن لف لفهم، وكذلك فتح لنا الأفق حتى نوضح كيف صنعوا هذه الكذبة والخديعة باعتمادهم النص التوراتي الذي ألفه عزرا الكاتب وهو بعيد كل البعد عما يقال إنه وحي إلهي أو هو منزل من السماء.

وعندما قامت على أرض فلسطين العربية دول الصهاينة راحوا يشتغلون ليلاً نهاراً لتهويد فلسطين بكل معالمها الدينية والآثارية والحضارية. وأخذوا يحيطون الأقصى بالحفريات العميقة حتى يكاد الأقصى ينهار وهذا هو هدفهم من تلك الحفريات. وكذلك الأمر فعلوا بالحرم الإبراهيمي الشريف حتى استطاعوا في وقت لاحق من تسعينات القرن العشرين أن يقيموا كنيساً يهودياً على قسم من هذا المسجد الإسلامي المعروف.

وفي مناطق عدة من فلسطين المحتلة هدموا المساجد أو حوّلوا بعضها إلى كُنُسٍ يهودية أو مخافر للشرطة. وشنوا أكبر حملة على المستوى الرسمي وعلى المستويات الأخرى لتغيير أسماء القرى والأماكن الجغرافية من جبال ووديان وسهول وشواطئ لتصبح أسماء يهودية عبرانية، حتى تُنسى الأسماء العربية الفلسطينية. إن الادعاء بملكية أرض فلسطين ادعاء باطل رفضته كل الدراسات العلمية الآثارية والتاريخية ومن فضل الله علينا أن القرآن الكريم أُنزل ليكون الحكم الفصل في الصراع بين أمة الإسلام الإبراهيمية وهؤلاء الملحدين الوثنيين الذين جاؤوا متهودين من يهود الخزر، فأين هم من إبراهيم وإسحاق ويعقوب وإسماعيل؟ أين هم من داود وسليمان وإلياس والمسيح عليهم السلام؟

وإذ نحكّم العلم والعقل ونحكم القرآن الكريم فإننا نقول لهم إن دعوتكم استعمارية صهيونية ركبت ظهر حمار الدين اليهودي المخترع لتخدعوا العالم بمقولات لا أساس لها من الصحة.

وإن محاولاتكم إلصاق أنفسكم بإبراهيم هي محاولات فاشلة مصيرها الفضيحة والافتضاح أما طريق إبراهيم من أوركلدان إلى فلسطين فهي طريق رسمها الله عز وجل لتكون تمهيداً للذهاب إلى وادي مكة ورفع قواعد البيت، وليست طريقاً للاستعمار كما ترسمون. إبراهيم لم يأت غازياً ولا محارباً إنما جاء نبياً حنيفاً مسلماً، جاء ليرسخ عقيدة التوحيد في المنطقة كلها. ولو كان ادعاؤكم صحيحاً للبيّتم نداء إبراهيم وآمنتم بالنبي الخاتم محمد ﷺ.

ولكنكم لا تعرفون من كتاب موسى شيئاً لأنه كتاب منزل من الله. أنتم اخترعتم كتابكم التوراتي ليكون نظرية عنصرية دينية سياسية. ورسمتم على ضوء هذا الكتاب خططكم لاستعمار فلسطين وطرد سكانها الأصليين منها. وهكذا افتتحتم باباً للصراع على مصراعيه. ولن يزول الصراع طالما بين أيدي المسلمين قرآن الله المجيد. وطالما يوجد في هذه الأمة من يفضل الشهادة على الحياة.

المصادر والمراجع

1 ـ القرآن الكريم.

2 ـ صحيح البخاري/ المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية القاهرة 1971.

3 ـ صحيح مسلم.

4 ـ تاريخ ابن خلدون المجلد الثاني.

5 ـ د. أحمد سوسة. العرب واليهود في التاريخ، مكتبة النوري ط 8 دمشق 2007.

6 ـ التوراة. دار الكتاب المقدس بيروت، دمشق ط 8 1982.

7 ـ م ريجنسكي، أنبياء التوراة والنبوءات التوراتية، ترجمة آحو يوسف.

8 ـ حنا حنا، دراسات توراتية، دار آرام، دمشق 2006 ط 1.

9 ـ رينهارد لاوت، إبراهيم وأبناء عهده مع الله، ترجمة غانم هنا، خطوات للنشر دمشق ط 1 2006.

10 ـ المسعودي، مروج الذهب طبعة دار الأندلس 1965.

11 ـ مقدمة ابن خلدون.

12 ـ د. جواد علي، تاريخ العرب قبل الإسلام المجلد 2.

13 ـ ابن كثير، البداية والنهاية مجلد أول. دار الكتب العلمية ط 1 بيروت 1994.

14 ـ السيوطي، الدر المنثور في التفسير المأثور الجزء 1.

15 ـ الأزرقي، تاريخ الأزرقي، أخبار مكة، دار الأندلس بيروت مجلد 1 1978.

16 ـ إسرائيل فنكلشتاين، آشير سيلبرمان، التوراة اليهودية مكشوفة على حقيقتها ترجمة سعد رستم. دار صفحات للدراسات والنشر ط 1 2007 دمشق.

17 ـ كاتلين كانون، الكتاب المقدس والمكتشفات الآثارية الحديثة ترجمة شوقي شعث دار الجليل ط 1990.

18 ـ ابن جرير الطبري، تاريخ الطبري، المجلد الأول.

19 ـ الكتاب المقدس، إنجيل لوقا.

20 ـ إنجيل برنابا، ترجمة خليل.
21 ـ قاموس الكتاب المقدس، منشورات دار الكتاب المقدس، بيروت 1980.
22 ـ مجلة رسالة الجهاد، ليبيا العدد 85 ـ 1990.
23 ـ كليفورد لونجلي، الشعب المختار، ترجمة قاسم عبده قاسم جـ 1 1995.
24 ـ غريس هالسل، النبوءة والسياسة، ترجمة محمد السماك، جمعية الدعوة الإسلامية 1993.
25 ـ موسوعة عالم الأديان، الجزء الأول، منشورات نوبلس 1999.
26 ـ مركز الكاشف للمتابعة والدراسات، الصهيونية المسيحية شباط 2007.
27 ـ علي عبد الواحد وافي، الأسفار المقدسة قبل الإسلام.
28 ـ الشيخ محمد هادي الأميني، مكة.
29 ـ صبح الأعشى، القلقشندي، الطبقات الكبرى لابن سعد.
30 ـ مصطفى الدباغ، بلادنا فلسطين، جزء الخليل 1972.
31 ـ القوى الدينية في إسرائيل، عالم المعرفة، العدد 186 تأليف د. رشاد عبدالله الشامي، ط 1، 1994.

الفهرس التفصيلي

مقدمة 9

وفيها حديث عن النبي إبراهيم وزوجته هاجر وابنه إسماعيل والكعبة المشرفة، وعن علاقته بالشكل العام للمنطقة والقبائل العربية التي سكنت الرافدين وأرض كنعان. ثم كيف خدع الصهاينة العالم بالمقولات التوراتية التلمودية الخادعة بأن أرض فلسطين هي الأرض الموعودة لليهود والمتهودين المعاصرين.

تمهيد: الرسالات التوحيدية قبل النبي إبراهيم عليه السلام 15

1 ـ رسالة النبي نوح عليه السلام 17

2 ـ رسالة النبي هود عليه السلام 17

3 ـ رسالة النبي صالح عليه السلام 17

4 ـ المناطق التي سادت فيها هذه الرسالات 19

5 ـ عودة إلى نوح عليه السلام 19

6 ـ العلاقة بين نوح وإبراهيم عليهما السلام 26

الفصل الأول: النبي إبراهيم عليه السلام في الرواية التوراتية 29

1 ـ إبراهيم أصلُه وأسرته 31

2 ـ الوعد الإلهي المزعوم بتملك الأرض 32

3 ـ إبراهيم ينجب إسماعيل ومن ثم إسحاق 39

4 ـ هاجر وإسماعيل في وادي مكة 46

5 ـ أولاد وأحفاد إبراهيم عليه السلام 48

6 ـ وفاة سارة وإبراهيم 55

الفصل الثاني: النبي إبراهيم عليه السلام في النص القرآني 59
1 ـ زمن النبي إبراهيم عليه السلام 62
2 ـ من هم قوم إبراهيم عليه السلام؟ 66
3 ـ رحلة إبراهيم عليه السلام إلى حرّان 71
4 ـ مع النمرود 72
5 ـ رحلة النبي إبراهيم عليه السلام إلى الأرض المباركة 75
6 ـ فصل جديد في حياة النبي إبراهيم عليه السلام 78
7 ـ متى وُلد إسماعيل عليه السلام؟ 81
8 ـ النبي إبراهيم عليه السلام وبناء الكعبة 84
9 ـ نداء إبراهيم عليه السلام لتلبية فريضة الحج 87
10 ـ أول بيت وُضع للناس 88
11 ـ الآثار الباقية من النبي إبراهيم عليه السلام 91
12 ـ دعوة الحج للناس كافة 93
13 ـ عقيدة إبراهيم عليه السلام في القرآن الكريم 97
الفصل الثالث:
1 ـ هل لبّى الأنبياء دعوة النبي إبراهيم عليه السلام للحج 101
2 ـ رد على رينهارد لاوت 105
3 ـ هاجر وسارة بطاقتا تعريف 110
4 ـ إبراهيم أبو الأنبياء 112
5 ـ استطراد 1 118
6 ـ استطراد 2 119
7 ـ صحف إبراهيم 120

الفصل الرابع: إبراهيم في الإرث المسيحي 125
1 ـ إبراهيم في الأناجيل متى. مرقص. لوقا. يوحنا. برنابا 128
2 ـ البروتستانتية المتعصبة للتوراة 138
3 ـ إبراهيم في الإرث المسيحي في دائرة الضوء 143
الفصل الخامس: الردود اليهودية والمسيحية على المدّعين بالوعد الإلهي 151
ناطوري كارتا. حراس المدينة 153
الكنيسة الإنجيلية في أميركا 154
الكنيسة الكاثوليكية في أميركا 155
الكنيسة الأرثوذكسية 155
مجلس كنائس الشرق الأوسط 155
الروم الأرثوذكس 156
الإنجيلية المشيحية 156
النبي إبراهيم في تراث الشعوب 158
الحرم الإبراهيمي الشريف 162
الفصل السادس:
الصراع على إبراهيم ـ الصراع من أجل إبراهيم 171
أبناء إبراهيم ينتصرون لحنيفيته 183
على خطا إبراهيم أو على خطا نمرود 186
الخاتمة 189

سيرة ذاتية

1 ـ حسن مصطفى الباش

2 ـ مواليد فلسطين، طيرة حيفا 24/ 11/ 1941

3 ـ إجازة في الآداب، قسم اللغة العربية، جامعة دمشق 1973

4 ـ ماجستير مقارنة أديان، جامعة الدراسات الإسلامية، باكستان، فرع القاهرة 2001

5 ـ دكتوراه مقارنة أديان، جامعة الدراسات الإسلامية، باكستان، فرع القاهرة، 2003

6 ـ أستاذ مقارنة الأديان في كلية الدعوة الإسلامية، فرع دمشق.

7 ـ حائز على جائزة القدس العربية عام 2003 اليمن.

8 ـ رئيس تحرير مجلة المجاهد حتى عام 2007

9 ـ عضو الأمانة العامة لاتحاد الكتاب والصحفيين الفلسطينيين منذ عام 1975

10 ـ عضو اتحاد الكتاب العرب جمعية الدراسات والبحوث منذ عام 1986

11 ـ يشارك في العديد من المؤتمرات العربية والدولية.

12 ـ مقيم في القطر العربي السوري منذ 1948.